

عمى الذباب

باقية

للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: عمى الذباب

تأليف: أحمد زكريا الأمير

مراجعة لغوية: أحمد شعبان

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

التسيق الداخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٨٩٢٦

الترقيم: ٠٦-٧-٠٦٧١٨-٩٧٧٧-٩٧٨



لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقتي
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storage and retrieval systems, without permission in writing from the publisher, except by reviewers, who may quote brief passages in a review

روايه

عمى الذباب

تأليف

أحمد زكريا الأمير

إهداء

إلى الصادقين في هذا العالم.. آمنوا بأن الحياة
منصفة وإن بدت لكم غير ذلك.. آمنوا بأنكم
باقون، وأن صدقكم سيبقى وسيزول ما دون
ذلك.. آمنوا بأنكم مبصرون، ولا تطفئوا
أعينكم عن الحقيقة.. فتصابوا بذاك العمى.

الفصل الأول

القاهرة ٢٠١٠م

كالعادة بدا "الباص" العام لن يتحرك لوهلة، فانتظاره غير العادي يصرخ بذلك، لكن أتوبيس "٦٢٠ م" دوماً يصنع ذلك، ويتقن التغلب على العدد كما يتقن التغلب على الطرق التي يقطعها، والتي لم تكن يوماً مشفقة عليه، هذا الضجيج المؤلم هو اعتياد يومي، وما يحدث في ذلك الصندوق المتحرك يسمى الحياة، على المحطة تقف شابة في أول الثلاثين من عمرها، تحمل صندوقاً خشبياً يعلم الله ما يحويه، يقف "الباص" لتصعد الفتاة بشكل روتيني، نحيلة جداً كي تشغل حيزاً، لكن ربما الصندوق يفعل، الساعة الرابعة عصرًا، أظهرت الشمس بعض حرها، لذا لا أحد سيحتمل سخافة أخرى، خلف تلك الفتاة تقف سيدة أربعينية، بدينة صلدة الوجه، كأنه صنع من فولاذ، "تزغدها" قائلة لها: إليك عني بصندوقك هذا، أنا أرثدي جوارب طيبة، وليس لي طاقة بصندوقك. على الجانب الآخر يرد رجل خمسيني بصوت أقل حدة من صوتها المتشنج قائلاً: جميعنا متعبون، من الوقوف والحر، إن كنتِ تظنين نفسك في تلك الحياة وحدك. علقت سيدة سبعينية تجلس على كرسي إلى جانب الشباك قائلة: لا شيء يدوم يا بنيتي، أول أمس مات جاري، ولم

يكن لأولاده طاقة بسيارة لنقل جثمانه، لذا استخدموا "الباص" العام لنقله، ومن سيعترض حينها؟! جميعنا سنموت حتمًا، وفي مثل ذلك الصندوق ستحملين، فصرخت الأربعينية قائلة: كل يوم أركب "الباص" مع بعض الرعاع أمثالكم، جدي كان باشا في يوم ما، ولم تكن بمخيلته يومًا أن تنشأ له حفيدة مثلي. ردت سيدة أخرى تبدو أقل قليلًا من السبعين: أنظنين نفسك خالدة هنا؟ جدك هذا الذي تتحدثين عنه أين هو الآن؟! إن أمثالكن هن الرعاع يا سيدتي، أما نحن فملح الأرض، في عمر تلك الفتاة كنت أحمل صناديق أثقل وأكبر وأركب "الباص" لكن لا أحد اعترضني يومًا بهذه السخافة، ثم تحول الحديث لنوع من "النوستالجيا" الجميلة، رق كل من فوق الخمسين لذلك الحديث، بينما المرأة الأربعينية تنظر للفتاة صاحبة الصندوق، وربما وخزتها مرة أو مرتين، والفتاة لا تتفوه بشيء، قال رجل خمسيني: كان الناس آنذاك على درجة من الاحترام والذوق، ولم نكن نسمع بأي لفظ بذيء أبدًا، كان عهدًا تتوارى فيه اللصوص خوفًا على نفسها، الآن يفخرون بسرقاتهم ويعدونها إنجازًا، بدا الحديث أنه سيطول للأبد، حتى قطعت المرأة الأربعينية ذلك كله بالصراخ "أنا عميت .. عيني .. عيني .. مش شايقة". ساد "الباص" حينها نوعٌ من اللغظ

الممزوج بالحوقة والشامة، وبعض الشفقة أحياناً، وبالطبع بالرغم من كل شيء قِيدَت المرأة لبيتها، لكن أي عمى يأتي بغتة هكذا.

الحظ لا اسم له .. نعم .. لا اسم له، هل صادفت الحظ يوماً لتسأله: يا حظ ما اسمك؟ بالطبع لا.. هذا محض خيال أو جنون لكن حين لا نجد بداً من الاختراع، فليكن لا اسم له، بل لنكن أكثر وقاحة لنسأله: ما أنت؟ .. أخاله بعد تنهد يجيب إن كان حظاً سعيداً بتواضع جم فيقول القدر الذي منح للسعداء فيسلمك لسؤال وجودي عن معنى السعادة، أما إن كان أعاذك الله عثراً فسيجيبك حتماً بلا تنهد، ربما بوقاحة أمين الشرطة أو عسكري المخالفات المروية: "أنا لزاماً عليك رضيت أم لم ترض". وفي تلك اللحظة المباركة أنت أمام بركان الغضب النافث دخانه، لا يملك سلبي مثلي سوى أن يطأطئ رأسه ويمضي خانعاً، يحاول أن يجر جر ذيله نحو الظل ليركن إليه قليلاً حتى تكف الشمس، أو يجابه حقيقة أنه محض بطريك في هذا العالم، لا يصنع شيئاً سوى أن يصفق بجناحيه في تلك اللحظات البعيدة عن الدببة المتوحشة وأساك القرش .. لتحفظ ماء وجهك إذن، كي لا تصير قصة يلو كها الناس كمئات القصص ربما انتهت بالدعاء، أو بصلاة وتمتمة وممصمة

شفاة.. دعنا من هذا التصور الآن، ولنكن أكثر واقعية، فمن يخاف هو الأجدر بصناعة الخوف.. هكذا كان فرعون موسى هو في الأصل جبانًا، يخشى على ملكه من محض نبوءة، قتل على إثرها مواليد العبرانيين في بداية قصته مع موسى النبي، ولولا أنني الآن ناسك لتلفظت بألفاظ بذئية، وهرعت للمعبد أنادي باسم يهوي، بصوت عالٍ أمام المذبح لأي مصير تركتنا، هذا يبدد نُسكي .. لا ... لنرجع لسفر الخروج هذا أفضل .. "وكلم ملك مصر (قابليتي) العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة، واسم الأخرى فوعة وقال: حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابنًا فاقتلاه، وإن كان بنتًا فتحيا، ولكن القابلتين خافنا الله، ولم تفعلنا كما كلمهما الملك، بل استحييتا الأولاد، فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد؟ فقالت القابلتان لفرعون: إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة، فأحسن الله إلى القابلتين" ١٥:٢٠ [سفر الخروج - التوراة].

ذُيِّلَت العبارات السابقة بتوقيع اسم شبتاي تسيفني ربا سيعني لنا هذا الاسم تساؤلات مبهمة، مطروحة لليوم أو ربا لن يعني لك شيئًا على الإطلاق، هكذا هي الحياة دومًا تقيمك بين احتمالين عليك أن تختار

بينهما، أو تلقي بنفسك بين دفتيهما لنرى أيهما ستركلك أولاً، لا تتمتع الحياة دومًا بتلك الديمقراطية المنشودة على الأرض، ربما تختار لك الأسوأ، أو توكلك إليه مزعناً صاغراً، لا تملك شيئاً سوى الانصياع أو الانتحار، وصدقني لا تختار أبداً الانتحار، ربما يوكلك الاحتمال الأسوأ لما لم تخله يوماً أنه بانتظارك من نعيم.

مثلاً إن كنت مضطهداً، أنت بين احتمالين إما أن تكون فذاً، وإما أن تكون مجنوناً، بين الاثنتين شعرة دقيقة، لها وصف صراط يوم القيامة، لذا تَمَسَّكَ بعقلك، ولا تكن غيباً إلى هذا الحد الذي يوكلك للجنون، لا تنس اللحظة أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً، سيجعلك هذا محض مسخ حيواني إن نسيت، تذكر بين الفينة والأخرى، أنك ميت لا محالة، فتلك حقيقة لن تنكرها، وإن كنت ملحدًا لا تَمُتْ مسخًا إذن، أو لا تَمُتْ أبداً.

ماذا إن استسلمت للجنون؟ .. هذا لعمرك لسؤال عجيب لا ينطق به مجنون أبداً، لكن سأجيبك بشيء من الخبرة.. على الأقل كف هذا الجنون واحتفظ به لنفسك فقط، ولا تختل به بين الخلائق، فهذا سخف بيّن، لن تنال به الشهرة طويلاً، سيسبك الناس قليلاً، وسينسوك كما ينسون كل شيء في حياتهم، عدا رغيف الخبز، لا تقتل النساء، ولا تقتل طفلاً، ولا تغتصب طفلة، لا تسرق مالاً، ولا إرثاً، لا تدعي النبوة، ولا تدعي أنك

المهدي المنتظر أو المسيح المخلص، لا تصل بجنونك إلى هذا الحد،
سيجعلك "مسخة" وأضحوكة لا أكثر، أما عمن سيتبعك فهؤلاء
عتهاء كل العصور.

جزيرة المورة (إسبانيا) خريف ١٦٢٠م

يقع مردخاي تسيغي مع زوجته المحبة فوعة وولدهما الصبي أليشع في
قبو أعده أسفل المنزل من أجل النوم ليلاً، بعيداً عن أيدي الجنود
المفتشين عن كل ما هو غير كاثوليكي بناء على أمر الكنيسة، فيتم حرقه
إن كان بلا روح، أو المحاكمة التي تؤدي بحياته إن كان ثمة روح فيه،
هذا اليوم كان عاصفًا جدًّا، أحد تلك الأيام التي تستشعر فيها نفير
الملائكة في الهواء، لكن بالنسبة لمردخاي بدا هذا النفير مؤنسًا جدًّا في هذا
القبو الرطب، كان واجبًا عليه أن يقيم شعائر الصلاة في تلك الليلة،
فغدًا يوم "كيبور"، لكنه وصل البيت متأخرًا بعد وداع صديق صباه
إيزاك يوشع للمرة الأخيرة تركه على صليبه ينام نومته الأخيرة، بعدما
قبض عليه في حالة تلبس مع نسخة من التلمود في صندوق خشبي قديم
أودعه في قبو مثل الذي يمكن فيه مردخاي ليله.

عادة لا حديث بين الزوجين في المنزل، ربما النظرات المرتابة الخائفة تكفي، أو ربما الإشارة نحو الصليب الخشبي وأقنوم المسيح على الحائط ليذكر كل منهما الآخر بأن ثمة من يترصد بهما، إلى هذا الحد لدرجة التفتيش في النوايا، فيجيب الزوج بنظرة الواصل وبإشارة بيديه الاثنتين "ما يعني نحن باقون"، أو الإشارة نحو الأرض الخشبية لتعرف الزوجة أن ثمة أمرًا يوجب الكلام، فتفتح كوة خشبية غير ظاهرة، ليظهر سلم خشبي هابطاً نحو الأسفل لقبوها السري، الذي يحوى كل ما يدل على هويتها الحقيقية، يبدو القبو في أحد أركانه كمعبد يهودي كامل، نسخة التوراة العبرانية بقمهاشها المرسوم عليه نجمة داوود، والشمعدان والطاقيّة الصغيرة (الكيبا)، والشال المهذب (الطليت)، الذي يوضع على الكتفين، والأشرطة الجلدية الخاصة بيده ورأسه لربط (التفيلين) لإقامة الشعائر.

بالرغم من أن فوعة أعدت كل شيء ليوم العيد بدا مردخاي مضطرباً بعض الشيء عند دخوله للبيت، متجهماً أكثر من أي وقت مضى، خطواته حثيثة أكثر من اللازم، وعينه حمران بلا دمة واحدة.. أشار بقدمه نحو الأرض بدبة كانت قوية، بدا غاضباً جداً، أسرع فوعة تفتح الكوة، وأدخلت الصغير فيها دون كلمة واحدة، وحين أغلقا

الكوة، بدأ مردخاي بتبديل لباسه، وخلع الصليب من فوق قميصه، وأمسكه بيده، وصوت أنفاسه يعلو حتى بدا صدره يغلى كالمرجل، ثم قذفه على الأرض، وانفجر في النحيب، كان يصرخ كمجنون، فهرعت نحوه فوعة تحاول أن تكتم أنفاسه بيدها، فقد بدا صوته مسموعاً خارج القبو، وبدأ حينها الصبي في البكاء حزناً على ما يصنعه أبوه أو خوفاً منه، فهرعت إليه الأم، وحينها بدأ مردخاي ينتبه، لكن الدموع كانت تصارعه، فيحاول أن يكتمها، وبقي على تلك الحالة ساعة أو أكثر، ثم بدأ بالاستعداد لإقامة الشعائر، فأحضر الماء في إناء، وبدأ في التطهر، ثم خطى نحو التوراة متصنعاً الرزانة قليلاً، وحين هم بفتحها صرخ باسم يهوي: "يا يهوى العادل لأي عذاب تتركنا"، صرخت فيه فوعة حينها تنبهه:

- مردخاي .. هل جنتت؟! .. تقول الاسم المحرم! .. هذه خطيئة.
- خطيئة؟! .. أي خطيئة؟؟ .. لأي شيء نحن هنا؟ .. لنُقهر فقط؟!
- مردخاي .. هل شربت اليوم؟ أنت تهذى .. ما بك؟
- رأيت اليوم صديق عمري يموت على صليب خشبي .. فعلوا به كما فعلوا بابن النجار .. وأنا أرتدي صليهم طوال النهار كي لا أقتل مثله .. وتحذثيني عن الخطيئة! .. هذا عجيب! .. حقاً عجيب!!

- أنت سكران تهذي.
- أنا لا أهذي ولست سكراناً .. أنا فقط مللت .. مللت هذا العالم اللعين.
- ما بك؟ انتهى هذا اليوم، فقد دنست صلاتك على أي حال .. نم قليلاً..
- اخرج من هنا.. هيا اخرج.
- لن أخرج.. ربما أفضي ليلتي وحدي أفضل.. اذهبي أنت وألشع الصبي للأعلى.

عمد للتوراة ونكسها، فقرأ من آخر الأسفار لا من أولها، بدأ بسفر زكريا: "كانت كلمة الرب إلى زكريا بن برخيا بن عدو (النبي) قائلاً: "قد غضب الرب على آبائكم فقل لهم هكذا قال رب الجنود: ارجعوا إليّ.. يقول رب الجنود فأرجع إليكم يقول رب الجنود لا تكونوا كأبائكم الذين ناداهم الأنبياء الأولون قائلين: هكذا قال رب الجنود: ارجعوا عن طرقكم الشريرة وعن أعمالكم الشريرة، فلم يسمعوا ولم يصغوا إليّ.. يقول رب الجنود آبائكم أين هم؟ والأنبياء هل أبداً يحيون؟ ولكن كلامي وفرائضي التي أوصيت بها عبيدي الأنبياء أفلم تدرك آبائكم؟ فرجعوا وقالوا: كما قصد رب الجنود أن يصنع بنا كطرقنا وكأعمالنا كذلك فعل بنا"، وحينها رجع مردخاي إلى نفسه ليقول حسناً أدوناي (يارب) حسناً.

كانت ليلة مردخاي عصبية جدًا، في الغد سيكون قد وجد في قرارة نفسه الحل، عليه أن يرحل عن أرض صباه وبداية حبه للحياة، وعن بيته والأصدقاء، لن أبالغ حين أقول إن الكلمات تبدو بلهاء جدًا لتصف هذا الشعور، فقد ألممت به في حياتي ترحل كآنية جوفاء تحمل شكلك فقط، لكن روحك الخاوية ستكون بين تلك الجدران، سيمضي ليفتدي حياته، لكن صدقني فيما سأقول كان إيزاك صديقه المصلوب أكثر حظًا منه، لذا لا تقتل نفسك، سيمتلئ الإناء الخاوي بشيء ما جميل أو قبيح بعد حين، لكن لا تمنع نفسك التجربة، فالحياة عادة تقتل فيك أشياء وتنبت فيك أشياء، هذا عهداها بالأشياء وبنا، عهد الصبية بألعابهم، لذا كن حريصًا على ألا تملأ فخارتك تلك بشيء يحبه الناس، كن طيبًا يا صديقي.. كن طيبًا.

- أليس هذا مردخاي بائع الدجاج والبيض؟
- نعم .. اخفض صوتك قليلًا بنيامين.
- الحكيم إلغازر أخبرني أن أناديه مفتش الأسود .. أي أسود؟ إنه يبيع الدجاج!
- بنيامين!

- سليمة؟؟

- بالطبع وطازجة.

- هذا جيد بالطبع.

- ألم أقل لك؟؟ ..

قالها بصوت عالٍ، ثم همس له:

- اخبره أنني سأحضر الشموع.

- بالطبع .. فليحفظك الرب.

الانتظار خطيئة لص يسلبك العمر، بحساب بسيط للأرقام ستجد أن
ثلث عمرك يذهب للنوم، والثلث الآخر لتقضي حاجيات يومك
البشرية، والثلث الأخير في الانتظار، فإن كان قد قدر لك العيش ثلث
عمرك فقط فلا تجعل الانتظار لصك، اقتله، دومًا لا تنتظر .. لا تنتظر ..
لا تنتظر، لكن على مردخاي أن ينتظر حتى العتمة، نهار طويل جدًا حتى
تأتي العتمة، فالحكيم العازر هو من يملك مفتاح تلك الزنزانة الكبرى
المسماة "جزر مورة"، أو المسماة إسبانيا. لأي وجهة سيكون رحيلك يا
مردخاي؟؟ وأي أرض ستطوؤها؟؟ غريبٌ بلسان غريب.. إن كانت
الغربة قدرك، فليكن القدر رحيمًا.

- فوعة .. فوعة
- كان ذلك عند دخول البيت، ثم أشار نحو القبو .. وككل مرة ينزلان على سلمهما الخشبي ويغلقان الكوة:
- اليوم سنذهب للحكيم العازر.
- ثم ماذا؟
- فوعة .. حاولي أن تفهمي أرجوكِ.
- أفهم ماذا؟
- سأخبر الحكيم اليوم أنني قبلت أن نرحل من هنا.
- حسناً .. حسناً.
- بدأت في البكاء، ولكن بحرص شديد على ألا تُخرج صوتاً يُسمع.
- عزيزتي لا تبكي.
- ربينا على تلك الأرض مردخاي .. هذه بلادنا.
- هذه ليست بلادنا .. لم تكن يوماً .. ولن تكن.
- كما لن تكون أي أرض أخرى.
- تمالكِي نفسك أرجوكِ .. أنت تؤمنين بالتوراة، لا تنسي أن أباك كان حاكماً.

- لن نرحل قبل أن أودع قبر أبي وأمي .. أرجوك.
- هذا أكيد .. أكيد.

الفصل الثاني

المنوفية - مصر - ١٩٥٤م

صلاة الفجر جماعة أثابكم الله .. ثم يُشرع في أذان الفجر، يقوم الحاج ممدوح عزت من نومه يهمس بأذكار الصباح، ثم ينتبه لزوجته الحاجة خديجة عبد العال، والتي في مثل عمره ليوقظها لصلاة الفجر كما يفعل منذ ثلاثين عامًا .. دأبه بالحياة كغيره من رجال عصره صوفي النزعة قليلاً، ناصري كعبد الناصر نفسه ربما أكثر قليلاً، طويل القامة، أصلع الرأس، يتمتع بشارب صغير عند أرنبه الأنف، قمحي البشرة كرجل أكل عليه الدهر وشرب، وخط خطوطه بفن الشيخوخة المعتاد لمثل عمره، منذ ثلاثة أعوام فقط تقاعد الحاج ممدوح عن العمل كمدير للمشتريات بمحاج القطن بمدينة شبين الكوم، لكنه كان نظيف اليد، لذا لا يملك شيئاً من الحياة سوى معاشه الضئيل، الذي يقتات به وزوجته العجوز، والتي تقاعدت هي الأخرى بعده بشهرين لا أكثر، بعد عمر قضته كمعلمة للفنون والرسم في مدرسة إعدادية، ثم وكيلة للمدرسة ثم ناظرة، وَقَعُ الحياة الرتيبة البسيطة يجعلها دون مشكلات كبرى، إذا وصلت لهذا العمر بتلك الرتبة، فهذا لعمر ك لنصر مبین لا يفقده سوى غبي أو لص .. صدقني لا شيء في هذا العالم يساوي قيمة

- الهدوء والاستقرار بحياة هادئة. فالمغامرون حظهم منه قليل،
كاللصوص عليهم أن يسعوا للسرقة حتى آخر يوم لهم على الأرض، أو
يهرعوا هرباً من الشرطة حتى آخر يوم لهم.
- خديجة .. يا حاجة خديجة .. الفجر أذن.
- حاضر هقوم أهه .. أصل البت بنت بتك ما نيمتنيش طول الليل.
- وهي بنت الكلب دية إيه إيلي بينمها هنا؟؟؟! ما تسبها تبات عند أبوها
وأماها .. هم مش ليهم بيت؟!
- يوووه يا ممدوح هنرجع تاني للموال ده.
- تاني وتالت وعاشر كمان .. البت لازم أمها إيلي تربها .. مش تخلف
وترمي .. البنت في سن خطرة.
- بقولك إيه .. قوم إلحق الفجر أحسن.
- ما فيش فائدة .. لا حول ولا قوة إلا بالله.
- أثمر هذا الزواج المبارك عن سلالة من نسل فريد النوع، سيتبن ذلك فيما
بعد، فالابنة صفيناز، وهي موظفة تعمل في سنترال شين الكوم،
متزوجة من بيطري يدعى محمود البلكي، ولها ابنة تدعى آية، وهي تلك
المشار إليها في الحوار السابق محض مصائب لا بشر.
- أله .. الحاج ممدوح!! إزيك يا راجل يا طيب؟

- الحمد لله .. إزيك إنت يا حاج نصري؟؟
- يا أخويه أهه قاعد على القهوة زي ما أنا أهه .. فينك وفين أيامك يا راجل يا محترم؟؟
- أهه في الدنيا .. من يوم ما طلعت على المعاش وأنا قاعد في البيت .. ألا إزي الحاج رضوان؟؟
- ده في الجامع وجاي .. أصلهم عاملين مقرأة هناك النهارده .. مش طلع معاش.
- بجد صحيح؟؟ .. والله وبقينا زملا يا رضوان من تاني .. هههههه.
- والله وحشاننا خفة دمك يا حاج ممدوح.
- بقولك إيه ما تيجي نلعب طاولة .. بقالي كتير ما مسكتش الزهر.
- بس كده .. طاولة يا حودة.

خريف ١٩٨٨م

- الكويت - الجهراء في سكن خاص بالمدرسين العزاب، حيث يعمل الأستاذ إبراهيم نصحي، مدرس التربية الرياضية بمدرسة ابتدائية، معارًا لفترة واحدة فقط، أعني أربع سنوات فقط.
- ألا قوللي يا إبراهيم.. إنت بتؤمن بالعفاريت والكلام ده؟؟

- ده إيه الفضى يا سي منصور ده؟؟!!، قاعدين تتكلموا على العفاريات

والجن ده كلام؟! .. طب هناكل إيه طيب؟

- أنا بسألك بجد، معندكش حكاية إنت راخر عنهم؟

- مش هتحب إلي هتسمعه ده!

- بس إحكي بس.

- طيب فسح خدني جنبك .. (سكت قليلاً وكأنه يراجع نفسه ألا يقول)

.. فيه واحد يبقى ابن عم أمي .. الراجل ده كان بيقول إنه متجوز من

الجن ومخلف كمان، يوم ما مات اختفت جثته.

- إزاي يعني؟

- أه زى ما بقول كده .. أنا فاكر اليوم ده إلي حكى لي ده جيرانه، كان

ساكن في قرية في بنها، الناس كلها تعرف بعض كويس والبيوت قريبة

من بعض، فكل جيرانه حكوا نفس الحكاية عن موته.

- تصدق إنك مل ما تكمل (قاطع أحد الحضور).

- قالوا إنه قعد طول الليل يصرخ ويتخانق، وتظهر كأن نار بتطلع من بيته

لحد ما دخلوا لاقوه ميت على الأرض، بلغوا أهله على ما رجعوا يشفوه

كانت الجثة اختفت.

- ومظهرش تاني؟

- لأ لحد النهارده.
- أيوه يعني مكانش متجوز؟؟ ولا كان له أهل؟
- لأ يا شيخ مصطفى عمره ما إتجوز، وكان ساكن في بيت لوحده جنب أهله آه، بس مستقل لوحده كده.
- يعني طب إزاي؟؟!! .. مش يمكن ده ملعوب أو مقلب وسافر بعدها؟؟؟
- يمكن طبعا .. لكن طول عمره معروف عنه الحكاية دية، والغريب إن القرية كلها عارفة كده، يعني مثلاً يطلع في عز الحر في الظهر في نقرة الشمس، ويلف نفسه ببطانية وينام على السطح بتاع البيت على ظهره مفتوح عينه.
- وده ليه يعني؟
- بيقولوا كده بيحلب النجوم.
- نجوم! .. ودية بطَّلَع إيه لما يحلبها؟
- وأنا إيش عرفني .. حصل حاجة تانية ودية أنا شوفتها بعيني من نفس الرجل.
- إيه طار في الهوا شاشي؟
- لا هتريق همشي ومش هكمل.

- لا يا سيدي إحكي.

- أنا كنت صغير وقتها لكني فاكّر .. كانت أمي عيانة جدًّا، ومش عارفين إيه السبب، ولا حد عارف يداويها، وفي يوم جه ابن عمها ده عندنا عشان يزورها، وقعد يطلب حجات غريبة كده، أبويا نزل اشتراها وطلب قفص أو سبت.

- حجات زي إيه يعني؟

- شغل يازبده يا سيدي .. حنة وبخور جاوى وكده .. المهم قعد يتكلم شوية كلام كده، ويشعل البخور وألاقي القفص بيتهز كأن حد بيحركه، وحاولت أشوف إيه إيلي بيحركه ده، مفيش حاجة شايفها .. سمعته بيتكلم بعدها مع حد، وبعدين طلب منّا نخرج بره ونقفل الأنوار، وأمّي نايمة في سريرها في أوضة تانية، طلب نسيبها لوحدها ونضلم الأوضة شوية، وخرج من الأوضة إيلي كان فيها شايل القفص، وفيه ورقة مكتوبة كأنها روشة مكتوبة بخط غريب جدًّا.

- بأنهي لغة بقى؟

- بالإنجليزي .. طلب إن محدش يدخل على أمي لحد تاني يوم الصبح وحصل كده فعلاً.

- وبعدين؟

- ثاني يوم لاقينا جلابية أُمي عليها دم من عند بطنها، وفيه مكان لجراحة
فعلاً في معدتها، نزل أبويا جاب الدواء، وعليها مفيش كام يوم رجعت
ثاني زي الفل.

- أنا مش مصدق الكلام ده!!.

- عندك حق متصدقش .. بس ده أنا شوفته بعيني.

- يعني إزاي؟؟!! يعني دكتور جني جه عملها العملية؟؟!!

- يا أخي احترم دماغنا (قاطع أحد الحضور).

- غريبة!! (علق آخر)

- ليه بقى غريبة إن شاء الله؟

- ما كنتم من شوية مصدقين قصة الراجل أبو رجل معزة .. ما علينا، أنا

رايح السوق حد هيجي معايا؟

- أنا جاي معاك.

- بس يا شيخ مصطفى ما تقعدنيش أستناك كتير زي كل مرة.

- لا ما تخافش.

- طيب أما نشوف.

المشوار إلى السوق حينها نزهة كبيرة غير التسوق، لكن للشيخ مصطفى

مدرس اللغة العربية وزميل السكن لإبراهيم تطلعاً آخر، فهو يريد أن

يسأل عن الرجل صاحب القصة، لذا كانت خطاه متباطئة عن كل مرة
يهرول فيها للسوق بينما يلحقه إبراهيم.

- على فكرة يا إبراهيم أنا من قرية جنب بنها بردك، وسمعت كثير عن
قصة الرجل ده فعلاً.

- غريبة!! .. ما كنت مش مصدقني من شوية.

- يا أخي اعذرني الموضوع مريب برضة.

- ماشي .. ما علينا.

- ألا ما تعرفش فعلاً الرجل ده كان بيعمل إيه؟

- يعني إيه بيعمل إيه؟ .. شيخ مصطفى إيه نفسك هفتك؟

- هههه لا يا أخي هفتني إيه .. بس أنا مش قادر أصدق.

- على فكرة ولا أنا.. بس ده إلي حصل.

- يعني ده سحر يعني ولا إيه بس؟

- سمعته مرة كان بيقول ده نوع كده معين اسمه "الكابالا" تقريباً.

- آه قولت لي بقي.

١٩٤٥م بقرية صغيرة بجوار شين الكوم

تدخل صفيناز على زوجها محمود البلكي في بيت أبيه، الذي خلا من البشر بعد موت أهله واحداً تلو الآخر، عدا ابنة نشأت طفلة في نفس البيت تُدعى زينب، يتيمة قُطِعَتْ عن أهل تعرفهم، فصارت ابنة للعمدة والد محمود البلكي الحاج حسين، وعُرفت بهذا في البلدة على أنها نادرة الظهور، لا تزال صبية في السابعة عشرة من عمرها، سميت بين فتيات القرية بزهرة بيت العمدة .. لم تخطب زينب بعد، ترفض كل خطيب يأتي لها تحت سر ما، لا يعرفه أحد من أهل القرية، حتى تواتر بين أهل القرية أنها تحب ابن العمدة الدكتور محمود، وتنتظر بين الفينة والأخرى أن تتصيده، وهو لا ريب لديه الميل الكافي لها، فمهما كانت لابنة البندر من جاذبية "فالبليدي يوكل"، كما يُقال في تلك القرية المنسية في الزمان .. لنصدق كرجال في ذلك القول، من يقاوم جمال صبية في السابعة عشرة من عمرها، فارعة الطول، مع جسد يملك كل نفحات الأنوثة، وذاك الطابع الفلاحي الذي سيشتاقه ذلك البيطري يوماً.

دون كذب كانت كل غرائز الرجال تشتعل بنظرة واحدة، أو ربما ضحكة واحدة مع تمايل الخطوات .. سيشتاق أكثر حين تجلس عند

قدميه لتدلكهما أو تخلع عنها الحذاء، ربما تقتله كلمة "سيدي فلان"
كأي رجل تربى في قرية، فالحديث هنا عن الغريزة.. والغريزة فقط.

تدخل مفتاح البوابة لتفتح باب حديدي موصل، ثم بعض أشجار
الموالح على الجانبين تحجب ضوء الشباك المشتعل، لذا تقدم نحو الباب
الخشبي بعد الردهة الطويلة لتسمع صوت أنين الشهوة .. لم تكن لتقرع
الباب حينها لكن الباب موصل من الداخل، ثمة باب آخر من الجهة
المغايرة، تتسلل إليه لترى قلمه في محبرة أخرى.. لم تتفوه حينها..
انتظرت بردهة البيت حتى انتهت تلك الليلة الحمراء لزوجها مع تلك
الغنيمة التي ورثها .. سينسل خارجاً بعد ساعة، ربما أكثر، للردهة ليجد
زوجته قابضة على كرسي أمام غرفة عشيقته تحمل بندقية أبيه القديمة
الموضوعة في البيت كأبي بيت لعمدة في مخبأ خاص لها.

- صفياناز!! (قالها بوجه مرعوب).

- إيه؟؟ إنبسط؟

- إيه؟

- ما سمعتنيش؟ .. إنبسط؟ .. البت حلوة الصراحة.

- أنا .. أنا ...

- هشششش ما تحولش تكذب .. أنا هنا من ساعة تقريباً.

- ساعة؟

- آه غريبة مش كده .. أقولك يا سيدي من ساعة ما أقول كانت

بتقول إيه؟

- أنا ...

- إخرس .. إنت بقى إتجوزتها؟ .. ولا الموضوع جه فجأة كده؟

- لا ده ...

خرجت حينها زينب لتشهر ورقة زواجهما العرفي .. ببعض من التبجح

اللئيم.

- لا يا ست هانم آني متجوزاه والورقة أهيه.

- يا شاطرة .. إنتي بقى يا عصفورة فاكرة إن الورقة دية هتنفعك بحاجة.

- آني ...

- إخرسي .. إنتي لسه ها تتكلمي! .. إنت تعالى هنا .. فين الطلق بتاع

البندقية دية؟

- إنتي اتجننتي؟

- لأ .. لسه .. إنطق فين؟

أشار بيده نحو درج في الجوار ..

- روح هاته.

- بس

- روح هاته.

- حاضر .. أهه.

- شاطر ... عَمَّر البندقية.

- لا بقی إنتی اتجننتی رسمي.

- إنت لسه هتتكلم؟! .. عَمَّرها.

- حاضر حاضر ...

حينها نطقت زينب بعينين دامعتين، وصوت بح من
الصدمة:

- "هتמותني يا سيدي؟"

همت بالركد خارج البيت لكن صفيناز كلبؤة أتت بها بمخالب الأثني،
حين تعاني جرح الخيانة .. وصفدتها وبقطعة قماش كتمت أنفاسها،
وحينها حاولت زينب المقاومة، لكنها وقعت فريسة لامرأة من نوع
فريد، صدمت رأسها بدولاب قديم صلد كالصخر، فخرت المسكينة
صعقاً، وهنا بدأت اللبؤة في التهام فريستها حتى آخر نفس، فانهالت
على رأسها بحديدة، دون حراك من زوجها، وبدا الدم مرضياً لدى تلك
المرأة حتى كادت تشربه حرفياً لتستشعر الانتصار ونشوته، راحت

زينب تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكن على الثور زوجها أن يقف دون
إنقاذها، لذا حان وقت المضاجعة والرقص على بحر الدم، ولتبدأ الليلة
على النحو الصحيح من وجهة نظر صفياناز .. يمكنك أن تلقي نظرة
على قبر زينب تحت شجرة الجميز إلى جوار دوار العمدة القديم، دفنت
في اليوم التالي بعد ما قضت غريماتها ليلتها.

الفصل الثالث

جزيرة المورة – إسبانيا – ١٦٢٠م

- سيدي الحاخام.. عذرًا كنت أستأذنك في الحديث معي بعد الصلاة.
- حسنًا مردخاي لهذا قد استدعيتك .. لكن البخور بدأ يتصاعد ألا ترى؟؟
- اغفر لي سيدي.
- لا عليك.

بدأ طقس الصلاة على النحو الذي يعهده مردخاي.. لا جديد في الأمر، وكأن شيئًا لم يحدث أبدًا في بلاده، ولم تُمس بسوء. أغمض عينيه، وأمسك بيد صغيره، بينما تنتظر زوجته خارج المحراب مع النساء، ولوهلة أحس بأنه لن يخرج أبدًا من بلاده، كل ذرات جسده تلح عليه أن يبقى، حتى صغيره لم يكن ليرضى حين يطلعه على الأمر، لن يترك أصدقاء عرفهم وعرفوه، ولن ينسى يومًا كونه غريبًا في بلاد جديدة يحتاج بعض الوقت كي ينطق بلسانهم، ويعرف عاداتهم ويتعرف على أصدقاء جدد، سيكون قد مضى عهد الطفولة كلها وحيدًا. كل ذلك جاب بخاطر مردخاي لوهلة أضاعت عنه صلاته، لم يكن لينطق باسم الرب معهم.. فقط كان يؤمّن على كلامهم، وهو العارف بشؤون

الكتاب ووصايا الرب، حتى انتهى الحكيم (الحاخام) من صلاته، وبارك على الخمر والخبز غير المخمر، وأخذ الحضور في الرحيل.

- أيها السادة بوركتكم.. سأذكركم قبل الرحيل مسرعين لبيوتكم .. لا تمشوا جماعة أبداً، فقط زوجين، ولا تسلكوا نفس الطريق أبداً مهما كلف الأمر، ولا تنسوا خلع ثياب الصلاة كلها واطركوها هنا .. لا أحد يبوح بمكان كنيسنا مهما كلف الأمر .. لا تخرجوا من بيوتكم سكارى كي لا يهذي أحدكم، الزموا بيوتكم، ولا تنسوا أن تذهبوا جميعاً للعمل بشكل طبيعي حتى في أيام السبت، فليحفظكم "إليهينو" (تعني إلهنا بالعبرية).

التفت إليه حينها مردخاي مذكراً الحاخام بوعده له.

- حسناً حسناً مردخاي احضر زوجتك في الغرفة الأخرى من جهة المذبح.

- حسناً سيدي.

أدخل زوجته من الناحية الأخرى من المذبح بعد ما تم رفع التوراة في صندوقها في قدس الأقداس، حيث لُفَّت جيداً في كيسها المزركش، على فواعة ألا تمر من المذبح بأي حال من الأحوال، فالنساء يدنسن المذبح ولا يمكنهن أن يطأن قدس الأقداس.

- اجلسا سيد مردخاي.
- شكرًا سيدي.
- لقد أخبرني شلومو عن رسالتك وفهمت قصدك.
- سيدي ...
- لا عليك لو كنت في مكانك لفعلت .. هذا خير لك ولولدك .. لقد قست شوكتهم علينا بعد حرب سلطان العثمانيين إبراهيم عليهم.
- لكن سيدي ...
- سيد مردخاي دعني أكمل حديثي من فضلك .. أفهم ما ستقوله ..
- لست أول مهاجر، ولست الأخير، أفهم جيدًا ستسأل عن حجّاتك ..
- بيتك وحنوتك .. أفهم هذا جيدًا .. لا داعي للاستعجال، فهذا سيلفت إليك الأنظار بالطبع .. ستدّعي أنك تحتاج لبيت أكبر من بيتك، وستسأل السماسرة، وفي الكنيسة الكاثوليكية عن بيت أوسع لأنك بحاجة له على وجه السرعة، بينما سيأتيك شأؤول بمشترٍ لبيتك، أما عن الحانوت فأعرف أن لأحدهم مطعمًا فيه منذ أمد، اخبره سرًا بينك وبينه بأنك ستبيع الحانوت، لأنك ستشترى بيتًا جديدًا، وستصنع فيه تجارتك بنفسك في حانوتك الخاص، واخبره أيضًا أنك وجدت البيت فعلاً، لكن صاحبه يحتاج النقود على وجه السرعة، أما عن بضاعتك فلن

أوصيك في الأمر، فأنت تاجر ابن تاجر، وتعرف جيداً كيف تصرف
أمرك.

- لكن سيدي أنا خائف بعض الشيء من الرحيل.

- هذا أمر واقعي الآن .. كلنا سنرحل لا ريب .. لم تعد إسبانيا أرضاً لنا.

- إلى أين؟

- اليونان.

- اليونان؟! .. ظننتك ستقول .. فرنسا .. ألمانيا .. البلجيكيك .. لم اليونان؟

- لا .. ليس والقلقل هناك .. الدولة العثمانية العلية تمثل الخطر الأكبر في

أوروبا كلها، بكل بساطة يمكنهم الوصول إليها، وهذا يجعلها أرضاً

متوترة، أعني تعرف الحرب وخرابها، على إيه حال أنت حر لقد اخترت

اليونان لأن بيننا تجارة ومراكب تجوب المتوسط، والرحلات إليها دائمة،

ولن ينتبه أحد حال خروجك من هنا على إحدى هذه المركب.

- حسناً طالما ارتأيت هذا سيدي.

- إذا ليكن يوم السبت بعد القادم ليلاً، ستكون على متن أحد تلك

القوارب الكبيرة إلى اليونان، سنكون قد تدبرنا أمرنا .. سأرسل إليك

حين أعلم أنك تدبرت أمرك لأخبرك بالتفاصيل .. حسناً بوركتكم.

همَّ حينها الحاخام بالرحيل مسرعاً، لكنه تنبه لفوعة، التي لم تكن تنطق أبداً، فقط تذرف بعض الدموع في صمت بلا صوت، وحين رأى ذلك، وأحست هي أنه علم ببكائها الصامت حاولت أن تكتمه أكثر، لا تريد أن ترى الحكيم بعض الضعف منها لواقعة قديمة حدثت في حياة أبيها الحاخام حبرون، الذي كان ذلك الحاخام إلغاز تلميذاً له قبل أن يصير حكيماً مكلفاً حتى .. كانت لا تزال صبية وقت ذلك، دخلت على أبيها في أحد دروسه فأجلسها في حجره بينما يمسك بيده صحف التوراة ويتلوها مفسراً وشارحاً بعض أمور القبالة من كتاب "الزوهار"، الذي يعد سرّاً لا يعرفه العوام من اليهود، قام حينها إلغاز مقاطعاً أستاذه الحكيم، معترضاً على وجود تلك الفتاة الصغيرة أثناء تلك الشروحات أو حتى بينهم، كان لا يزال شاباً يافعاً والحمية تغلبه أحياناً فغضب الأستاذ لذلك وطرده من درسه قائلاً إن هذه الفتاة هي أكثر منك فطنة وذكاء .. لم تنسها فوعة ما حييت، وكذلك الحاخام لكنه الآن قد كبر وصار مستناً ولم يعد ذلك الأرعن الشاب فمال عليها قليلاً سائلاً إياها:

- كيف حالك يا صغيرة؟

كانت تريد الصمود، لكن البكاء جعله يتذكر أباهما الذي كان أقرب الناس إليها، لذا خرج الرد وكأنه همهمات، لم يسمعها حتى، لكنه أسرع قائلاً:

- ليبارك الرب روح أستاذي.

- لو كان حيًا لما وافق على ذلك أبدًا.

أسرع حينها مردخاي يهدئ من هذا الهجوم الأرعن على الحاخام:
- فوعة ... فلتهدئي قليلاً.

وحينها قال الحكيم مبتسمًا:

- لكل عهد أحكامه يا صغيرة .. أليس كذلك؟ .. بوركتم ثانية يمكنك
الرحيل ولا تنسوا أن تأخذوا حذرکم.

- شكرًا سيدي الحاخام .. شكرًا لك (قال مردخاي).

هما حينها بالخروج وقبل الباب نادى الحاخام:

- فوعة .. أليس هذا اسمك؟

- نعم.

- اسم توراتي مبارك .. لو لم يأذن الرب لموسى بالرحيل من مصر لأبید
اليهود تحت أيدي فرعون .. لم يكن ليبقى واحد من شعب الرب
المختار.

لم يلمها مردخاي على ما قالت، لا لأنه يدعمها أو يوافق على ما فعلته .. بل لأن عقله لم يكن بالحالة التي تمكنه من أن يعي ما يعيشه، فقد كان يفكر طوال الطريق في هذا المجهول الذي سيذهب إليه في ذلك الحانوت الذي سيبيعه، وذلك البيت الذي قضى فيه أيام صباه وشبابه وطفولته وزيجته، وأركانته التي تفوح منها ذكرى والديه وإخوانه الذين سبقوه في قرار الهجرة ولا يعلم عنهم شيئاً، أوصلوا لبر أمان أم أن للبحر رأى آخر؟ .. ترى هل سيصل سالمًا؟ .. أي جحيم أنت فيه يا مردخاي! همهم بذلك ولم يقل شيئاً غيره طوال الطريق.

- نيقولا .. نيقولا (قال مردخاي).

- ماذا؟ (قالها بنبرة من الغضب).

- عندي لك خبر جيد.

- منذ متى يأتي منك أي شيء جيد يا مردخاي؟!

- اسمع عله يكون جيداً فعلاً.

- حسناً.. قل.

- سأبيع حانوتي.

- حقاً يا مردخاي يا صديقي؟؟!!

- الآن صرت صديقك .. لا بأس .. نعم هذا حقيقي فعلاً.
- إذن سأخبر لو كاس بالأمر، سيفرح كثيراً .. لكن اسمع يا مردخاي لا تنتهز الفرصة.
- لا يا عزيزي، فنحن جيران منذ أمد.. لن أفعل ذلك.. لن أفعل صدقني.
- ولكن ماذا عنك؟ .. أين ستبيع فراخك وبيضك؟
- ألم أقل لك؟
- لا.
- آه نعم حسناً .. سأشتري بيتاً أكبر من ذاك البيت القديم، وسيكون فيه حانوتي الجديد أكبر من ذاك الصغير، فأنا أضطر لإخراج بضاعتي في الشارع.
- آه .. حسناً .. على كل حال بكم تريد بيعه؟
- لن نختلف على الأمر.. فنحن جيران.
- هذا ليس مردخاي الذي أعرفه!!
- حسناً لن أخفيك سرًا .. صاحب البيت الجديد يريد نقوده قبل أن يبيعه
- لآخر، ولا أريد أن أضيع عليّ الفرصة.
- حسناً لنقل خمسمائة قطعة؟

- هذا قليل جدًا يا عزيزي.. لقد آثرت أن أعطيه لك دون غيرك.. فلا تكن مستغلاً، أنت تعرف قيمته.

- حسناً ستائة.

- لن أَرْضَى بأقل من ألف قطعة.

- لا .. أنت تمزح يا مردخاي إذن.

- لا يا عزيزي، ولكنني وعدت صاحب البيت بألف قطعة.

- لن أدفع أكثر من سبعمائة وخمسين .. ماذا قلت؟

- ماذا عن ثمانمائة؟

- لا هذا كثير .. سأرحل إذن.

- لا .. لا .. حسناً موافق.

- أقسم أن ثمة أمراً وراء ذلك يا مردخاي .. لست من تبيع بخساً بهذه الطريقة.

- لقد أخبرتك سرّاً يا نقولا لتكن عند حسن الظن، ولا تفصح.

مر أمامهم جورجي الجلاد ذلك المعروف "بميت القلب جورجي" جلاد بلا رحمة تُعرف عنه، يخشاه الناس خشية الأهوال، حين يمر من بينهم يتشاءمون تشاؤمهم من ملك الموت، لذا يحيا كما يشاء بمباركة الكنيسة، يأخذ ما يشاء دون مساءلة، كان جندياً جرمانياً مرتزقاً، تحول

فيما بعد لجلاد الكنيسة، في الليل يضاجع النساء في الحانات، ويتجرع بحر خمر، وفي الصباح يجلد ويصلب ويقطع الرؤوس، كأنه يحصد بعض الفاكهة، حقير حقيقي دون ادعاء، يكره اليهود كما يكره سيرهم، لكنه الآن على حال غير حاله.

- مال هذا يا نقولا؟

- ألم تعرف؟

- لا.

- منذ ثلاثة أيام كان خارجًا من الحانة كعادته في طريقه للساحة لينزل المعلقين على الصלבان، وفجأة ظل يصرخ كالمجنون ويلوح في الهواء، وكأنه يهش الذباب من حوله ويصرخ: (أبعدوا عني هذا الذباب.. اذهب عني للجحيم أيها الملعون)، ثم صرخ أكثر وأمسك بيده السيف: (لا أرى شيئًا غير الذباب.. أبعدوه عني)، وهكذا يمضي في الشوارع ويصرخ ويلوح بيده ليعبد الذباب، ولا ذباب أبدًا في المكان.

- هذا غريب حقًا.

- يقول العامة إن اليهود قد سحروه لأنه قتل منهم الكثير.

- آه .. حسنًا .. متى ستأتي بالمال؟

- امنحني يومين فقط.

- حسنًا.. ولكن لا تتأخر، سيأتي في الغد تاجر يشتري ما في الحانوت،
وسيكون فارغًا.. فلا تتأخر وإلا بحثت عن غيرك كي يشتري الحانوت.
- لا.. هذا وعد مردخاي .. هذا وعد.. ربما آتيك به قبل ذلك.
سيكون هذا أفضل.

الفصل الرابع

قرية محمود البلكي بالمنوفية ١٩٥٤م

إن كنت رجلاً سيكون أفدح الأشياء أن تقتل، فما بالك أن ثمة امرأة تقتل بدم بارد دون ذرة من الندم، هذا لا يُولد مصادفة، فلا أحد يستطيع من نومه قاتلاً بهذا الدم البارد، ثمة سر في الأمر بالنسبة لصفيناز يجعل منها ذلك المسخ القاتل، والأكثر غرابة هو ذاك الزوج الراضخ لأمر شيطانها، الحاضر الغائب، لا تقل إنه الحب، هذا أمر فادح إن اعتقدت ذلك، الحب أقوى من الحقيقة وإقامة العدل على تلك الأرض، أهو الخوف إذن؟! .. ربما، لكن الخائف ربما يفضحه خوفه فيتصلب مكانه غير قادر على السير أو المضاجعة. للأمر سر خفي وحقير جداً يجعلها على اتفاق تام، فلا يخشى أحدهما القتل، ولا يفشي سراً عن الآخر.

- هنقول إيه لو حد من البلد سألني عليها؟

- يا سلام بسيطة .. إنجوزت في مصر ومشيت من البلد.

- طب والجنّة مش ممكن تطلع ريحتها؟

- إنت حافر كتير كفاية ما تخافش .. ويا سيدي لو طلعت ريحة إبقى قول

الكلب مات ودفنته هنا.

- أيوه.. بس الكلب عايش.

ببساطة قامت من مقامها نحو الكلب النائم صباحاً تحت سور حديقة البيت، وبكل هدوء أمسكت بقطعة حديد، كانت ملقاة في الجوار وتستخدم في تهيئة النار للفرن البلدي، وقتلت بها الكلب بنفس الهدوء.

- مات الكلب إدفنه بقى جنبها .. إيه بتبص كده ليه؟ .. حنيت؟

- لا .. أبداً.

- طب ياله عشان تلحق توصلني.

- على فين؟

- طبعاً هتفتكر إزاي .. النهارده اجتمع المحفل .. وطبعاً ما يرضكش إن الرئيسة ما تحضرش.

- حاضر.

الكويت ١٩٨٨ مدرسة الجهراء الابتدائية

- أستاذ إبراهيم.

- أهلاً يا شيخ مصطفى.

- ما شوفتكش يعني النهارده الصبح؟

- معلش .. أصلي نزلت بدري شوية من السكن.

- آه.

- خير؟؟.. فيه حاجة؟
- لا أبدًا كنت ... الصراحة أنا من إمبارح عمال أفكر في الحكاية إيلي حكتها إمبارح دية.
- حكاية إيه؟
- قريبك ده إيلي كان مخاوي.
- هششش .. بلاش نتكلم في الموضوع ده هنا .. أنا غلطان إني حكيتهأصلًا.
- لا يا راجل ما تقولش كده.
- شيخ مصطفى لو سمعك حد هنا هتبقى مشكلة.
- ماشي .. بس كنت عاوز أوريك حاجة بس.
- أخرج من لفافة قماش كتابًا قديمًا كُتب بخط اليد، عرفه إبراهيم فور أن أخرجه الشيخ مصطفى، هذه نسخة من كتاب "الزواهر" أصل علوم القبالة اليهودية.
- إنت إزاي تسمح لنفسك يا شيخ مصطفى تمد إيدك على حجاتي؟؟
- إنت موصلتش هنا بدري يا إبراهيم .. إنت ما كتتش في السكن أصلًا.
- أخذ منه اللفافة بعنف، وأسرع في الانصراف، فتبعه الشيخ مصطفى إلى حيث يتوجه وهو يحدثه.

- كنت عاوزك إمبراح، ولما سألت الرُّملة قالوا لي في أوضته، خَبَطت عليك كثير مافتحتش فدخلت الأوضة ولاقيت ده.

- أرجوك ما تجبش سيرة لحد.

- على شرط.

توقف حينها إبراهيم

- إيه بقى الشرط ده؟

- عاوزك تعلمني.

- بلاش يا شيخ مصطفى.. صدقني بلاش .. الموضوع متعب جدًا.

- هستحمل.

- طب نتكلم بعدين.

- توعدي دلوقت وإلا ...

- إنت حر .. أوعدك.

حين تشاهد نظرة الانتصار في عين الشيخ مصطفى لن تخطئها، وصل لمن يمكنه أن يدلّه على طريق السعادة والحب والمال، وكل شيء يمكن أن يحصل عليه من أثر فرعوني مثلاً. أن تكون قويًّا ستزول القوة يومًا لا ريب، لكن ماذا عن قوة تمنحك الخلود، وتسخر لك الأرض كما تشاء،

تصنع أي شيء في هذا العالم كنصف إله إغريقي نسيت الأساطير بين جنات الحياة وانصرفت، هذا ما اعتقده الشيخ وليته ما فعل.

المنوفية ١٩٥٥م

فيلا قديمة على رَيَّاح شبين الكوم، بها بعض الأشجار العتيقة تتدلى لترتشف من النهر ماء الخلود، ما يعرفه سكان تلك المنطقة بشبين الكوم أنها مهجورة، لم يدخلها حي منذ أن مات صاحبها الثري، منذ أمد ولا يعرف أحد من يملكها الآن، البعض يقول إنها صارت ملكاً للدولة، والبعض الآخر يشيع أن للثرى ورثة، لكنهم رحلوا عن مصر، تاركين تركتهم وراء ظهورهم.

لمثل تلك الأماكن خلقت الأساطير لتصدق، فلا أحد يدخل تلك الفيلا في وضح النهار، فالليل ستار لكل شيء، لذا قد يرى ضوءها ليلاً يضاء وينطفئ، كأنها مسكونة، والبعض يفسر ذلك أن ثمة لصوفاً يدخلونها ليلاً، وآخرون يتجاهلون أمرها خوفاً من ذكر ذلك حتى، وآخرون دوماً ممن يصدقون في أمور الجن .. لنصدق أنفسنا دوماً، الأساطير تغلب الحقائق، ثمة شيء في عقول البشر يريد أن يصدق الأساطير، هذا يقوم ضعفنا الذي خُلِقنا به، فجعل قوتنا في العقول أمر لا تقبله العقول

الضحلة ببساطة، فيكون الأصدق عندها ما يزيل ذلك الضعف لخلق أسطورة الإنسان الذي لا يقهر، وحتى لا تتفق على أسطورة في غالب الأمر فلكل منا أسطوريته الخاصة واعتقاده الخاص عن مفهوم الإنسان الكامل أو الخارق للطبيعة البشرية.

تتكون الفيلا المهجورة من طابقين يربط بينهما سلم خشبي قديم الطراز، فُقدت بعض درجاته، وبدا السوس ناخرًا في خشبه، تتدلى من السقف نجفة نحاسية أنيقة جدًا، يتدلى منها بعض الكريستال الإيطالي المتقن الصنع، وتغطيها ملاءة بيضاء، تحوّل لونها للون التراب الأصفر الذي يغطي المكان، فلا أحد يُسمح له بالدخول هنا للتنظيف سوى امرأة واحدة تُعرف باسم "أم سامية"، وتدخل مرة واحدة في العام لتنظف هذا المكان المظلم، ولساعة واحدة فقط، وهي ليست من سكان المدينة، لذا تجهل ما تصنعه، في الركن يوضع شمعدان عبراني، وتبدو باحة الفيلا كأنها معبد، ففي آخر الباحة يوجد دولا ب موصد بأحد عشر قفلاً، وأمامه كرسي مزركش خشبي، كأنه عرش أَعَدَّ للملك، وكثير من الشمعدانات على جانبي منضدة كبيرة يتوسطها طست به دم أسود اللون، وكأنه تُرك في ذلك الطست أمداً حتى تحلل كلياً، وعلى الطرف منها بوق أَعَدَّ من قرن جاموس بري، لا أظنه صنع في مصر، وأيضاً

توجد مكتبة بها عدد من الكتب القديمة والمخطوطات التي حُفظت جيداً في لفائف خاصة، وعدد من المباخر بأحجام متفاوتة، وصورة كبيرة مرسومة لرجل غامض، تبدو قديمة جداً، أحيطت بالورود، يبدو كمقدس هنا.

في ليلة السبت الأخير من كل شهر يجتمع في ذاك المكان الموحد مائة فرد من ست عائلات مختلفة، أحدهم هو الحفيد الشرعي لصاحب تلك الفيلا المهجورة، لكن لا أحد يبوح بذلك السر، فقبل موت جده أوصى بتلك الفيلا لتكون مقرّاً لتلك الطقوس الغريبة التي تقام هنا، وحفظ ذلك الابن ثم الحفيد من بعده، لم يفرطاً في الوصية أبداً رغم أن الوصية لم تُكتب، ولم تُنتقل ملكية الفيلا لأحد غير الجد المسمى "عمر بك الكاجيكي"، الذي حفر اسمه على بوابة بيته.

في ذلك المكان لكل واحد اسم آخر غير الذي يُعرف به بين الناس، والقاعدة واحدة من يفشي أي سر لهذا الجمع فهو مقتول لا محالة، القاعدة الثانية لا يُبلَّغ أحداً من أطفاله سر تلك الطقوس سوى بعد زواجه، والتأكد من كونه مخلصاً لوالده أو والدته، ثم يُبلَّغ باسمه الحقيقي، ويتم تعميده في ذلك الجمع بعد تعليمه كل الطقوس والأعياد، ثم يُوضع تحت المراقبة حتى يثبت إخلاصه لفكرهم، القاعدة الثالثة لا

يُبْلَغُ أحد زوجة كان أو زوجته حقيقة ما يصنعه في تلك الطقوس ما لم تكن أو يكن منحدرًا من أب أو أم من هذا المحفل المقدس، القاعدة الرابعة الابن الذي يشك والده أو والدته في ميله لدين الأغيار، لا يتم إبلاغه بالسر أبدًا، ويعد مارقًا ويُحرم من الإرث لوالده أو والدته، ويعامل كأنه أمي غير متم لتلك الجماعة المقدسة، ولا يُوثق فيه أبدًا، كما يُعد أي شيء عنه سرًا لا يُباح إليه به، وفي حالة أنه عرف شيئًا من ذلك يجب قتله دون إثارة شك حول الأمر، باستخدام سم طويل الأمد مثلاً يُدس له في الطعام، دون شفقة من أحد.

ربما توجد قواعد أخرى لذلك الجمع المجهول، أو أصل لذلك الأمر لا أحد يعرفه، لكن المفاجئة دومًا حاضرة هناك، كأن يكون اسم صفيناز هو "إستير بنت عزرا" وهي رئيسة ذلك المحفل.

يدخل الجميع مرتديًا أقنعة من القماش بيضاء مزركشة باللون الأزرق، تتوسطها نجمة تشبه نجمة داوود العبرانية إلى حد ما، لولا أنه ينقصها أحد الأضلاع، تُشعل الشموع والبخور، وتجلس رئيسة المحفل المختفية الملامح تمامًا، على عرشها، وتبدأ الطقوس كصلاة توراتية كاملة الأركان، تنتهي بالمباركة على النبيذ الأحمر الفرنسي، الذي لا يُشرب بأي حال من الأحوال حتى لا يكتشف أحد الأمر، ثم تبدأ جلسة التداول في

شئون الطائفة، إن أمكننا أن نسميها كذلك، أو أعضاء المحفل إن استقام المعنى.

قام أحدهم، وهو المنوط به تسجيل الجلسة:

- اليوم هو يوم الشبات المبارك (شبات شالوم)، تبدأ جلستنا لهذا الشهر. تقوم رئيسة المحفل وتشير نحو صورة الرجل المجهول، وتقول بصوت يسمعه الجمع:

- "بوركت أيها المسيح الحقيقي يا ابن الرب الوحيد، وإليك العجالة حتى تعود فأسرع بعودتك، فنحن في انتظارك، خدامك المخلصون". ثم تجلس مرة أخرى وينادي حاجب مغطى الوجه أيضًا:

- الموضوع الأول السيدة "سارة بنت عزرا".

تقوم حينها سيدة تبدو من خطاها عجوزًا، مغطاة الملامح أيضًا كالبقية، تتكئ على كرسي، وتحني رأسها لرئيسة المحفل، ثم تبدأ بالحديث بعد أن حيَّت الحاجب أيضًا:

- خادمتكم سارة بنت عزرا تعرض مسألة زوجها المسلم الديانة، والمدعو بالحاج محمود الأمين.

يقول الحاجب حينها:

- ابدئي من آخر ما وصلنا إليه في الجلسة السابقة.

- حاضر .. كنت عرضت عليكم انضمامه طبقاً للقاعدة العاشرة.
- قامت رئيسة الجلسة وتقدمت نحو العضوة وهمست قليلاً في أذنها:
- مش هينفع جوزك راجل صوفي، ومتدين كمسلم، وطول عمره عِنْدِي .. إنتي ناسيه إن له أصل عربي؟؟
- عادت بعدها نحو العرش ثم قبل جلوسها قالت بصوت مسموع:
- زوجك أمي الأصل، وليس في عروقه دم مقدس .. انتهى.
- التفتت حينها للحاجب تمليه:
- يبقى أمي مع غلق المناقشة، حيث ثبت لديّ أنه لا يصلح للانضمام، ولا يناقش الأمر مرة أخرى.
- قاطعت حينها سارة العجوز وقالت:
- لكن يا بنتي ...
- فردت الرئيسة بتلقائية كادت تفسد الجمع:
- ماما .. قصدي سيدة سارة .. انتهى.

الفصل الخامس

جزيرة المورة – إسبانيا – صيف ١٦٢٠م

القاضي يوستافوس قاضي قضاة إسبانيا، والراعي للكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت القلق على العقيدة، أحد رجال الكنيسة المخلصين، وأكثر رجال البابا إخلاصًا في ذلك الوقت، حيث لا يتعين على أحد أن يعارض ذلك أو يخطئه، خاصة بعد ما كان يقوله على البابا، كونه رسول العناية الإلهية، ومنقذ الصليب من أيدي مغتصبه، أحد رجال فرقة من الفرسان سابقًا، شارك في حرب استرداد أرض القوات من أيدي المسلمين البرابرة، على حسب قوله، وأحد أعضاء محكمة التفتيش العليا.

اليوم هو يوم النظر في قضية أحد اليهود الخونة ليسوع، مثله مثل ذلك السامري المزيف، على القاضي أن يحكم عليه بقطع عنقه على مرأى ومسمع من العوام، كي يكون عبرة لهؤلاء الزنادقة الهراطقة مُدَنِّسِي الصليب المقدس.

على غير عادته للمرة الأولى يحس بثقل رأسه دون أن يشرب خمرًا، كأن رأسه يدور في فلك آخر غير جسده البدين، بدا غير طبيعي، ويبدو عليه الإعياء قليلًا، مع ضيق النفس الملازم له في الفترة الأخيرة، حيث بدا

عليه ذلك أثناء محاكمة المهترق اليهودي السامري المزيف الخائن للرب والصليب والعقيدة الكاثوليكية القويمة، إنه إيزاك. على الرب أن ينزل غضبه فوق رأسه كي يكون عبرة لغيره من الهراطقة، فليصلب حتى يموت:

- كما فعلوا بالمسيح يُصنع بهم.

بهذه الكلمات المثقلة بالتعب أنهى القاضي حياة ذلك اليهودي، وقام إلى بيته مسرعاً يحتاج لبعض الراحة، فالأيام الخوالي كانت مرهقة جداً، عليه أن يأخذ القارب إلى أرض إسبانيا ليربح نفسه بعد أيام قضائها في جزر المورة الشاقة تلك، لا يزال اليهود يعمرونها، وإن كانوا في الخفاء مدعين الإيمان، يا لهم من قذارة تندس بينهم ككل البرابرة، ليسوا أحسن منهم حالاً، هذا ما يظنه القاضي العادل، فهؤلاء مصيرهم الموت فوراً، فلا يبقى على أرض الرب عدو له، وستعرف الأجيال القادمة أن ثمة رجالاً لولا هم لدُنِّسَتْ عقيدتهم القويمة، ولضاعت أرضهم كما ضاعت قبل ذلك على يد بدوٍ برابرة لقرون مضت.

لوهلة تدرك النفس أنها على خطأ، لا أحد منّا ينكر ذلك، فكلنا بشر نتمتع بالصفات نفسها، وإن كنا ننكر ذلك في العلن أحياناً، المخطئ يعرف دوماً أنه مخطئ، ربما يتتابه بعض الخوف، لكن في نهاية الأمر

يستسلم لما يهديه إليه عقله، إما أن يصحو من غفلته، وإما يُكمل ما بدأه عن قناعة فلا يرجع أبداً .. كلنا ننكر الخطايا صدقني .. كلنا ننكر.

- "يا هذا .. كم تبقى لنا لنصل إلى البر؟".

سأل القاضي.

- "نصف الساعة على الأكثر أيها القاضي الجليل".

أجاب البحار بنبرة فيها بعض التعب من التجديف.

- "ما هذا الذباب؟ .. غريب جداً هل يعيش الذباب في عرض البحر؟".

قالها القاضي ملوحاً بيده يبعد الذباب عنه .. لم يكن البحار ليجيب فقد أخر جوابه قليلاً ليتدبر أمره، يخاف إن قال للقاضي إنه لا ذباب أبداً يذيقه ما يذيقه للهرطقة من ألوان العذاب .. لذا اكتفى بتصنع الابتسام للقاضي قائلاً له:

- "اقربنا يا سيدي".

فقال حينها القاضي:

- "أنت لا تهتم بنظافة قاربك أيها البحار التن، إنه يعج بالذباب .. هل تباع فيه السمك دون أن تنظفه؟ كم أنتم حقراء تسعون للمال فقط."

حينها بدا البَحَّارُ غاضبًا قليلًا من حديث القاضي، لكنه لم يجب على سخافته تلك، ببساطة كانت سلامته أبقى عنده من أن يرد على سخفه، فهو يعرف بخبرته هذا النوع من السخفاء جيدًا، فهو يلاقيهم كل يوم على الشواطئ، سواء يأخذهم لإحدى الجزر، أو يعيدهم لإسبانيا. الصمت مع هؤلاء هو الأفضل، فخبرته بالبشر تحتم عليه أن يصمت، وخبرة القاضي في الظلم تحتم عليه أن يتحدث بهذه الطريقة المستفزة جدًّا، بالرغم من أن الحديث يبدو عاديًّا جدًّا تكمن في كل منهما رغبة شديدة في قتل الآخر، فالقاضي رجل معروف عند العامة، قليلٌ من يُخطئه، فلکم استعبد الناس باسم الصليب!! وكم من فتاة فُقدت تحت أستار سريره المذنب!! وكم رجلاً قُتل شكًّا في دينه، وطعنًا في مروءته، لو حَكَمَ البَحَّارُ لما تردد لحظة في إلقاء هذا الخنزير في البحر، دون أن يدرك أحد، فيخلص منه بلاده بلا رجعة وينتقم على الأقل لجوليانا الصغيرة ابنة أخته، التي اغتصبها جنود هذا القاضي، والتي فقدت عقلها جراء تلك الواقعة، أما عن القاضي فالقتل عنده غريزة متأصلة، لولاها لما أصبح قاضيًا للبلاد كلها ولمحاكم التفتيش، ربما لم ينتبه لهوية البَحَّار ليعرف أنه واحد ممن ظلمهم فيخاف على نفسه، أو على الأقل يجد له قاربًا آخر، لكن مَنْ هذا الحقير الذي يجروُ على أن يمس قاضي

القضاة فيموت كبعوضة سقطت في يد بشري؟؟، يموت مهرطقاً خارجاً عن طاعة الكنيسة، ملعوناً للأبد، وهذا بعد رحلة من العذاب قد لا يملك القدرة على أن يتمها للنهاية.

- "أيها البحار القذر أسرع قليلاً".

بهذه الكلمات أنهى القاضي حديثه، لم يكن ليخبر البحار أنه متعب، فيستشعر البحار في القاضي شيئاً بشرياً، وأنه يصاب بالتعب مثله، فيتبين أنه ليس مباركاً كما تقول الكنيسة فيقتله، واكتفى البحار بإيلاء رأسه مع ابتسامة بلهاء تخرج منه دون أن يدركها حتى.

- انتهى كل شيء مردخاي؟

- هذا بفضلك وبركتك سيدي الحاخام.

- جيد جيد .. إذا نحن على موعدنا، بعد غد في الفجر ستبدأ في نقل

حاجاتك للمركب .. فلا أحد يلاحظ الأمر، ستنقلها كلها في قُفَف

كأنها طعام أو بضاعة، متجهاً لليونان، وبعد غد في الفجر يا مردخاي،

قبل الفجر إن أمكن، قبل أن يصحو الناس تكون في مركبك.

- - اطمئن سيدي الحاخام.

- الحاخام أدرعى .. قد أرسلت له رسالة منذ أيام أظنها ستصله قبل وصولك إليه، وكتبت له عنك وعن أسرتك القادمة، وأنا أعلم أنه رجل حكيم كفاية ليتدبر أمره، لذا ستجد من ينتظره هناك في الميناء، ولكن حاذر مردخاي، سيناديك باسمك الحركي هناك، ولكن ليس أمام العامة طبعاً.. حاذر أيضاً وأنت في الميناء، يجب ألا يلحظك أحد، ستبدأ الرحلة تقريباً في الثانية ظهراً، لذا ابق أنت وزوجتك والولد في مكانك لا تبرحه، ولا تُحدث أحداً وإن كنت تعرفه.

- حسناً.

- نبه زوجتك أيضاً، فأنت تعرف النساء ثرثرات جداً، آه .. أيضاً لا تخبر من سيشتري البيت عن القبو، دعه يكتشفه وحده، حينها لن يكون هناك فرق.

- بالطبع كنت سأفعل ذلك.

- حالما تصل لا تخرج للعامة دون أن تتعلم لغتهم، على الأقل الكلمات التي تكفي كي لا يرتاب فيك أحد.

- هذا أفضل ولكن ...

- عندك ما يكفي مردخاي .. فالحياة في اليونان أيسر من هنا.

- شكراً سيدي الحاخام.

- بوركت مردخاي، ليكن الرب معك كما يكون مع المؤمنين.

يمشي جورجي الجلاد في الشارع كمعتوه كَحَلَ عينيه السواد، لم ينم منذ أيام كثيرة، لا يفعل شيئاً سوى أنه يلوح بيده ليبعد عنه الذباب، ويقول بصوت متعب: "كف عني أيها الخبيث"، يمشي كأعمى لا يرى شيئاً، يتخبط الناس والأشياء، ويتبعه بعض الصبية يرجونه بالحجارة دون أن يأبه لهم حتى، أو للجروح التي أغرقت جسده بالدماء، ظل على حاله حتى سقط أرضاً يلوح بيده مهلوساً: "الذباب القدر"، حتى أتى أحد الصعاليك يسبه، ولكن جورجي لم ينتبه له، كأنه يُحدث شخصاً آخر.

- هاي أيها الخنزير .. قم أنا أحدثك.

- كريستيانو .. إذا انتبه لك سيكون آخر يوم في عمرك.

- ألبير أنت جبان جداً .. أتخشى هذا القدر؟

- بالطبع!!!.. هذا الجلاد!!.. أفق أنت يا هذا.

- حسناً لنتراهن إذن.

- نتراهن!

- نعم.. ولكن على أي شيء .. آه.. حسناً على أن تخلع ملابسه كلها أمامنا.

- أنت مجنون!!.

- أنت جبان أو بخيل لا تريد أن تدفع.

- حسنًا أيها الشجاع .. سأدفع لك عشر قطع.

- حسنًا هذا جيد.

اقترب المراهق كريستيانو من جورجى على مهل، كمن يقترب من وحش نائم، ثم بدأ يسبه من جديد وجورجى لا يهتم حتى سبه بأمه، فانتبه إليه حينها، وظن كريستيانو لوهلة أنه سيقتل رأسه الآن، وحينها قال:

- حسنًا يا جورجى أنا لذي طريقة لأخلصك من هذا الذباب.

- قل.

- ولكن على شرط.

- قل وإلا قتلتك.

- حسنًا .. اخلع ملابسك وانزل البحر، وحينها سيهرب الذباب، فستكون قد تخلصت من قذارتك حينها.

جرى حينها جورجى نحو البحر يخلع ملابسه حتى صار عاريًا تمامًا، ونزل البحر يضرب الماء بيديه، ثم غطس حتى اختفى في الماء، وحينها أشعل كريستيانو الشاب ملابسه التي تركها على الشاطئ، كان يوم حظه فلم يره جورجى، بل كان يقاتل ذبابه الغريب، وبعد ساعات أعياه

البحر فرجع للشاطئ ليجد أن ملابسه غير موجودة، لم يكن على الشاطئ سوى السيف الذي قتل به مئات الأنفس دون لحظة من الندم.. اجتمع العامة حوله يضحكون، بدا كأنه سيفتك بهم، لكنه وبجسد مرهق وأيد مرتعشة أمسك بسيفه وجرده فصارا شبيهين متجردين من كل شيء.. ثم زجر قليلاً كوحش البحر الأسطوري الذي يعرفه أهل الجزيرة في أساطيرهم، فهرع الناس يهربون .. لكنها لم تكن زجرة الغضب التي يعرفونها عن هذا الخنزير، بل كانت زجرتة الأخيرة، أمسك بنصل السيف، حاول أن يراه ويتأمله، ثم رفعه قليلاً في ضوء الشمس الذي أوشك أن يختفي، ثم أحكم قبضتي يده على سيفه ووجه نصله نحو عنقه، وأنفذه في جسده. مات جورجى ميتة الكلاب عارياً بعد أن هزأ منه الجميع .. لكن لم يهزأ منه أحد بقدر القدر، فجعله ضحيته الأخيرة.. "كما تكيلوا يُكال لكم".

ظل جورجى جثة ملقاة على الشاطئ، نتن الرائحة ثلاثة أيام لا أحد يقترب منه خوفاً، فالناس كانوا يحسبونه لا يموت، ربما هو نائم فقط، وهذه الدماء مجرد جروح ستلتئم، حتى عرف البابا في الجزيرة بأمره، فأمر أن تدفن جثته دون صلاة جنازة، لم يكن ليذهب أحد إلى تلك الجنازة، فلا صلاة تصلح على خنزير ميت، لم يكن يحمله سوى سبعة

رجال أشداء، أشعلوا البخور حولهم كي تهدئ من نتن رائحة جسده ..
حين يمتد الظلم يظن البعض أنه لا ينتهي، لكن صدق ذلك يا صديقي
كل شيء ينتهي، حتى جورجي الخنزير انتهى .. صار ذلك مثلاً في البلاد
يلوكة العامة.

- الفجر أستر يا فوعة
- هذا لا يعني ألا أحد سينتبه لنا.
- بالطبع لا.. ولكن حين نخرج في ستر الليل سيكون الأمر على ما يرام.
- بدأت حينها بالبكاء كطفلة ستسافر بعيداً عن أمها، للنساء القدرة
الأكبر على التذكر، لذا لها النصيب الأكبر من الألم، بعكس الرجل الذي
يملك القدر الأكبر من الجَلَدِ والنسيان، طبائع الرجال تختلف، فالرجل
يحمل قدرًا ضئيلاً من الذاكرة إذا ما قُورِنَ بالنساء، لذا فهو الأسرع في
اعتياد الحديد، أكثر غباء حين تتعلق الأمور بالتفاصيل، أقل فهماً
وانتباهاً للألوان مثلاً، بينما النساء لا، لذا دوماً ما تنبت الخلافات
الزوجية من هنا .. لكن حين يتعلق الأمر بالرحيل عن بلادك مرغماً
سيكون الألم وحده كافياً بأن يسلبك عقلك، ذكراً كنت أم أنثى .. الأمر
أشبه بفقدك لكل من تعرفهم في نفس اليوم لتصير وحيداً تماماً ..

كوحشة القبر وأنت حي تلتهمك قطعة قطعة، بينما أنت واعٍ لألم
الالتهام .. والغربة هنا لا تعني شيئاً، والموت هنا لا يعني شيئاً ربما أقل
ألمًا، حين يموت أحدهم ترتدي السواد، ولكن حين تهاجر لن يعني
السواد شيئاً.

- هوني عليك يا فوعة.

- ما الذي جعل الحياة بهذا التعقيد؟

- بلهاء كل عصر .. على كل حال الأمر ليس بيدنا.

- نعم، هو كذلك دومًا.

الفصل السادس

الكويت ١٩٨٨م - سكن المدرسين العزاب - الجهراء

مرت أشهر عدة والشيخ مصطفى يلزم الأستاذ إبراهيم في غرفته، وعلى سطح السكن الخاص بهما في نقرة شمس الظهيرة، يتبعه أينما ذهب، حتى بدا له أنه تعلم كل شيء خفي في هذا الفن الغريب والعجيب، لكنه كان حريصاً في كل مرة على ألا يخبر الأستاذ إبراهيم عن سر هذا الإصرار في تعلّم هذا الشيء رغم تحذير الأستاذ إبراهيم إياه من تعلمه، فهو يودي بصاحبه لجحيم من نوع غريب بعض الشيء، يجعل منه جندياً منصاعاً، لأوامر بعض الكتب الخرفّة، في حين أنه يتعلم ذلك ليكون مطاعاً، ليمنح نفسه بعض شيء من قداسة ذاك الطريق، واحد وهمه أيضاً واحد وقديم لم يتغير منذ عهد الإنسان الأول، الذي أراد أن يسخر الطبيعة الأم فاخترع الموسيقى متوهماً أنها فن يسخر تلك الطبيعة بشيء من السخافة والسذاجة .. فلنسأل الإنسان الأول: هل سخرت الطبيعة بالموسيقى؟ هل منعت قوى الشر الخفي؟ هل أطال ذلك من عمرك مثلاً؟، ماله لا يجيب ذاك المخلوق الأبله، ربما مات مثلاً!! عجيب!!، وما السر الذي طاق إليه الشيخ العارف بأمور الكتاب ومدرس اللغة العربية ليجعل من نفسه عبداً للوهم الحقيقي عنده؟؟، علّه أحب يوماً وخاب أمله، أو

كان يريد المال وخاب أمله، أو كان يريد الحب وخاب أمله، أم كان يريد السلطة وخاب أمله، لا يُسَلِّمُكَ للوهم سوى خيبة الأمل، وخبية الأمل تسلمك لليأس، واليأس يا صديقي يسلم نفسه لأي خرافة، والخرافة تصنع منه مسخًا، ثم أضحوكة أو منتصرًا مهزومًا بالحياة، ومن تهزمه الحياة لن يعد موجودًا فيها، وإن كانت أنفاسه تبدو لك موجودة في الأرض.

صديقي لا تسرع في اتهامك، الرجل ليس بقاصر العقل أو جاهل أو غافل، الأمر بكل بساطة هو رجل خائب الأمل كمعظمنا، لذا يطوق لمعجزة تنقذه من تلك الخيبة. هل تعرف قصة الفيل صاحب القرد؟ سأرويها لك، في غابات الهند ثمة فيل صغير السن ضاع عن قطيعه منذ أمد، فتكفل به قرد فكان يطعمه كقرد، ثم بدأ يعلمه كيف يتسلق الأشجار، بدا الفيل متحمسًا جدًّا للفكرة فأخذ القرد يتسلق الشجرة تلو الأخرى أمام الفيل ليجعل من الفيل قردًا مثله ويربح نفسه عنت توريته عن الأسود في كل مرة تحييء فيها لتصيد الفرائس، بدأت الحماسة تأخذ الفيل أكثر فأكثر، شرع يرفع خرطومه لأغصان الأشجار، ويحاول التشبث بها، فيسقط الغصن تلو الآخر حتى بدت منطقة القرد في الغابة صلعاء من الشجر، شعر حينها الفيل بخبية الأمل، وظن في نفسه أنه لن

يصير قردًا أبدًا، وهنا أحس باليأس في نفسه، فأخذ الغضب يسيطر عليه فاقتلع الأشجار واحدة واحدة، وحينها اشتتم الأسد الجائع رائحة الفيل الغاضب فبدأ يرقبه، والقرد يصرخ قافزًا من شجرة لأخرى، محاولاً أن ينبه الفيل لوجود الأسد المتربص به، لكن الغضب أعمى الفيل عن الحقيقة، وحين أنهك الفيل، وقف خائر القوى، خائب الظن بين الأشجار المقتلعة، والأغصان الملقاة في كل مكان، وحينها تصيد الأسد الفرصة فمات الفيل بين أنياب الأسد، دون أن يقاوم ولو بضربة خرطوم واحدة كانت قد تنقذه، الحياة كهذا الأسد، والشيخ مصطفى هو ذاك الفيل يا صديقي سيخسر كل شيء لأنه اختار الطريق الخاطئ، لو كان أذكى قليلاً لرضي بما قُسم له، وعلم أن الفيل لا يتسلق الأشجار.

ألا تحب هو مرض، وأن تحب هو أمر طبيعي، وأن تحب دون الوصال هو خلل في بعض الوظائف الطبيعية للحياة أنت على أثره شخص غير متزن أو غير مبال، وفي الحالتين تحتاج لترتيب عقلك من جديد، فأنت لا محالة مصاب بنوع من الخلل العقلي دون إساءة، الذي جرب الحب يعرف ذلك كما تعرف أنت أنك تقرأ الآن رواية لو لم تنل من عقلك شيئاً من الرضا ستطرحها أرضاً وهذا حال صاحبنا الذي دوّمًا ما يواربه عن معلمه الأستاذ إبراهيم المشعوذ الأعظم في تلك الحقبة، والمدرّك

لحقيقة هذا الفن، ومؤمن به، وإلا ما احتاج لتلميذ مثله، يستعمله أحياناً وسيطاً روحياً يُمكنه من الاتصال بالعالم الآخر رغم خيبة أمله في ذلك أيضاً.

في ليلة من ليالي الشتاء جلس إبراهيم على شاطئ بحر دمياط كما يسمونه، بين قارين، حيث ينتظر حب حياته كي تلوح له من بعيد دون اقتراب، فيعرف أن مواعدهما بحسب إشارتها سيكون عند مكان لهما جُعلَ سرّياً حتى لا يعرفه أحد غيرهما، عند إحدى قوارب الصيد الغارقة، على شاطئ البحر، وبالرغم من أن هذا القارب تمت إزالته فلا يزالان يعرفان المكان بنفس القارب، دوماً لقاء الحبيين يبدأ بسؤال من الحبيبة بنكهة الأمومة التي تلازم روحها: "نمت جيداً؟"، فيكون الجواب: "أحبك"، "أكلت جيداً؟"، فيكون الجواب: "أحبك"، "هل تناولت وجبة الفطور في الصباح؟"، فيكون الجواب: "أحبك أيضاً"، "هل تحبني؟"، "نعم تناولت الفطور جيداً"، هي طبائع الرجال، الاعتراف بالحب خطيئة حين يكون السؤال صريحاً، فقط كطفل يأبى أن يعترف بأنه كسر دميته، بدت الحياة مشرقة إلى حين

طويل قصير، فحبيبة إبراهيم ماتت في إحدى محاولات الإنجاب، فقلبها الكبير المتضخم الضعيف لم يحتمل حبًا ولا فرحًا.

أما عن شيخنا الفاضل فقصته تعرف طريقها نحو المستحيل الذي تصنعه تراكيب الحياة، حين يولى أمر التدبير لها بعض السفهاء فيكون لزامًا على أصحاب العقول والمواهب أن يموتوا كمدًا كي لا ينازعوا أصحاب الخبل أمر خبلهم، ففي قريتهم الأرض تُورَثُ كاللغة، فحبيبة قلبه وريثة لأبيها في أرض، وعمها عمدة قريتهم يعرف أن زواجها من غير ولده الذي يصغرها بخمس سنوات سيضع الأرض في يد رجل غريب، لذا كان الأمر منطقيًا للمحافظة على الأرض، وليمت الحب، ولتمت كل القلوب العاشقة مع تحياتي فأنا أحدثكم من القرن العشرين.

المنوفية – قرية بجوارشين الكوم ١٩٥٥م

الموت أقرب من أي شيء، وشجرة الجميز تشهد، هذا ما يردده محمود البلكي بين جنبات نفسه، ستقتلني يومًا ما، أعرف ذلك جيدًا، فالنساء في بلدتنا هذه يقتلن الرجال بالسم، أما هذه فالدم بالنسبة لها شراب مقدس، تحب التوضؤ به إن أمكنها كل يوم، مسكينة يا زينب يا قتيلة العشق المحرم، ماذا تبقى من هذا الجسد يا تُرى؟

أن تحب الحياة هو حق شرعي، ولكن أن تحب الموت فهو شيء مكروه، لكنه أيضًا حق لك، ولكن لا تمت وحدك دون من يحبك، فماذا لو كره من تحب الموت، وأثر عليك الحياة؟؟ أليست تلك أنانية لا تصلح للحب؟؟، هذا الخبل كان منطق البلكي للتخلص من هذا الهاجس، فأصبح يلوم زينب بدلاً من أن يشعر بالذنب نحوها، وراء كل جريمة منطق خبل يحكم قبضته على عقل القاتل كثعبان كبرى يحتضنه حتى الموت، فالأحضان أيضًا تقتل، والقُبُل أحيانًا تقتل، ألا تُرسل الأفعى السم بالقبول؟؟ منطق عجيب هو ألا تخاف الموت، بل تخاف أن تموت.

الكويت – الجھراء ١٩٨٨م

- العلم ده ملوش كبير يا شيخ مصطفى، بالنسبة لي كده أنا قولت لك كل إلی أقدر أقوله وإنت عليك إنك تكمل.
- إبراهيم أنا مش عارف أشكرک إزاي.
- المفروض ما تشكرنيش.. بكره هتعرف إنك غلط في حق نفسك.
- نسيب بكره لبكره أحسن.

بعض البشر يردد تلك الكلمات دومًا، ملأت الروايات والأفلام والمسلسلات "أدفع نص عمري ويرجع ثاني"، سواء كان المقصود

عزيرًا حيًّا أم ميتًا رغم أن عهد الحياة هو ألا تعود، ونحن دومًا نطوق للمستحيل، ونؤمن بالحيل والمعجزات والسحر أحيانًا لننال المستحيل رغم ألا أحد نال المستحيل منذ خلقنا على هذه الأرض .. لا أحد ولازلنا نؤمن أن أحدنا سيفعل يومًا ما قرب هذا اليوم أو بعد سنتنظر.

الشيخ مصطفى الأربعيني الذي لم يتزوج حتى ذاك اليوم، كل ما يسعى إليه هو التغلب على كل من أفسد عليه حياته، زوج حبيته المنتظرة .. أبوها .. بلدته .. صباحه المنسي منذ أمد .. وربما أشياء أخرى مخفية، فشمسه لم تشرق منذ أمد، فلشروق الشمس علامات التي يؤمن بها، وحدها تثبت شروق الشمس، كأن يراها تبتسم بين الخضرة كبدر ضل طريقه في النهار، أو ربما تجلس تحت إحدى شجيراتها تطعم بعض القطط، فيتبادلان الابتسام وكلمة صباح الخير بلا صوت، فقط تحريك الشفاة، تعبيرًا عن ذلك الحب الأخرس في بلد عمياء، متى تبللت الأرض بالمطر يذكر يوم الطين حين وجدها بين أشجار الأرض وقد غرست قدميها في طينها، كأنها زرعت في المكان وردة في أرض قاحلة، وتأبى الأرض أن تنزعها، يومها نزل في بركة الماء تلك، ينتزعها بكل قوته إلى حيث يمكنها أن تعود بشرية من جديد لا شجرة.

بعد زواجها رآها مرة تهرب كفرسة تأبى الضرب في حظيرة، كانت كذلك فعلاً تهرول حيث اللامكان، فقط تعود إلى حيث اعتادت أن تعود بين زروعها تتنفس الصعداء بخدين متورمتين، وبعض الكدمات، وللحظة بدت حرة حتى لحق بها زوجها ليقادها نحو المجهول المظلم من جديد، فعادت كمن تُسَلَّم نفسها للموت، وبالرغم من ذلك لم تنس الابتسام للشيخ وهي عائدة للبيت، بدت له كشبح، كأن وهج النور في وجهها القمري قد انطفأ، وبدا الشقاء مكتوباً بين جنبات جبهتها، وعيناها المتورمتان كأنهما سجين لم ير النور منذ أمد بعيد .. ضحكت ضحكة السجناء، وانسلت من بين يدي القدر كفراشة حلت على زهرات الربيع، وقطفت بعض أزهار الياسمين تقربها لأنفها، تشتم عطرها، وبدت كحرة للحظة أخرى، لم يفرق بينها وبين الياسمين سوى صفة نزلت على رأسها، فأغشى عليها لتُحْمَلَ للقفص من جديد.

- ألا قوللي يا إبراهيم بالحق.. إنت صحيح إتعلمت الكبالا دية ليه؟

- ما قولنا يا شيخ مصطفى ده سر مقدرش أبوح بيه.

- بس إنت قولت كل حاجة.

- إمتى؟

- وإنت نايم.

- بجد فعلاً؟! -

- آه .. نفسك تشوفها تاني .. بس يا ترى مين بقى؟ -

- لا .. دية حكاية طويلة .. وإنت بقى؟ -

- تقريباً نفس الشيء .. هو نفس الشيء ..

الفصل السابع

إسبانيا ١٦٢٠م

بدا القاضي كريستيانو يوستافوس اليوناني الأصل قلقًا جدًّا، فالذباب يتبعه في كل مكان، فقد غادر القارب القدر إلى الشاطئ والشوارع النظيفة جدًّا، بدت إسبانيا كلها عروسًا متزينة، جبالها الخضراء خاوية من كل شيء قدر، فلا شيء سبب يتبعه الذباب القدر، يبدو كأنه يزداد عددًا.. لم يكن الأمر حينًا بالنسبة للقاضي المصاب بهوس النظافة، دومًا ما يغلبه وسواسه وهوسه بالنظافة، فوسواسه لا ينتهي أبدًا ولا يغادر عقله الباطن لحظة واحدة، ربما أعدم أحدهم لأنه لامس يده بيدين متسختين مستسمحًا إياه ليكون حكمه عادلاً فقط، لا يمشي بين الناس دون قفازيه، ولا يقترب منه أحد من العامة حتى يضع منديلًا على أنفه وفمه، من ذاك النوع الذي قد يقتله الخوف من الموت، لا الموت ذاته، وقد يمرضه الخوف من المرض، لا المرض ذاته، لذا يحيا حياته بغية رضا الكنيسة لا الرب.

الأضداد لا تصنع من أحدهم شخصًا عظيمًا، ربما الحظ فقط قد يصنع من شخص جُبِلَ على الأضداد في حياته، فللقاضي يوستافوس قصص كثيرة ذكرها وحده قد يقتله، ففي شبابه ذاق الخيانة من حبه الأول،

كانت ابنة الدوق الإنجليزي جلبرت أورنولد، حيث كان مستشارًا للكنيسة بأمر ملكي من صاحب التاج البريطاني لشأن ما قد ألم بإسبانيا إثر حروب الكنيسة.

الخيانة إحدى صفعات الحياة المؤلمة، قد تقتل فيك شيئًا لا يفسر باللسان، لكنه يملأك سخطًا على الحب، ويجعل منك خائنًا منتقمًا، وهذا هو الضد الرئيس، فذاك المصاب بهوس النظافة كان يميل لنساء العامة، خاصة القدرات منهن، خاصة إن كن يقدمن بعض الرشاوى والهدايا من النوع الذي يحب.

لم يعرف أحد يومًا عنه شيئًا، حياته مقفلة بقفل لا يملك أحد مفتاحه، ودومًا ما ينسج العامة قصصًا عنه، حيث يظهر من اسمه، كونه يوناني الأصل، فما الذي جاء به إلى هنا وجعله قاضيًا للكنيسة؟، يقول البعض إن والده الشرعي يوناني، لكنه لم يعترف به، فجاءت به أمه إلى هنا وتزوجت من إسباني، ويقول البعض إنه حضر ضمن الحملات التي كانت تُجلب من العالم المسيحي لنصرة الكنيسة في بقاع الأرض، وينطق البعض بأشياء أخرى مروعة، كأن يكون من أصل مسلم مثلاً، واختار ذاك الاسم ليبعد عنه القيل والقال، كذلك هو دومًا منطلق العامة قد لا يعد منطقًا أحيانًا، ولا يخلوا من الخرافات، لكنه في حقيقة الأمر يعبر عن

بعض البواطن مما يضمرة الناس في نفوسهم إزاء شخص القاضي يوستافوس أو غيره.

للحظات فقط ينام القاضي الذي بدا منهكًا من أيامه الأخيرة، أو صد كل أبواب الغرفة جيدًا بعدما بخرها ببخور يقتل الذباب، كان في سابق عهده بالحياة يكره رائحته، وربما صفع خادمه المخلص الوحيد أرخميد لأجل رائحته، أما الآن فهو مضطر للنوم بين دخانه، لا شيء في هذا العالم قد يذل بشريًا أكثر من ذبابة أو بعوضة، أي تافه هذا المخلوق!، بالطبع أقصد البشري الأحمق، بالأمس هذا الخنزير النائم قتل أرواح بكلمة واحدة، والآن يقتله ذباب غير حقيقي، مجرد محض خيال عنده فقط، في الحلم رأى صباه، حين كانت تأتي أمه إليه ببعض عصيدة الدجاج التي يعشقها، يلتهم منها دون توقف، ثم سريعًا بدأ الذباب يطن حول العصيدة، فقام من نومه فزعًا ينادي أرخميد المسكين، كان قبلاً مسلمًا يسكن الأندلس، ثم بدل دينه في العلن فقط كي لا تقتله الكنيسة كفارًا في مصيدة، أو تسلخ جلده كأخيه يبقي أمره سرًا، وحين يستره الليل يصلي في قبوه الذي يسكنه بيت القاضي. رآه القاضي مرة يصلي، وحين أحس به قطع صلاته وأظهر أنه يبحث عن شيء سقط منه في الأرض، فقال له القاضي حينها: "كبرت يا أرخميد حتى صرت تنسى

أنك صرت كاثوليكيًا، ونحن أحيانًا لاسمك القديم... ألم يكن أحمد؟"،
وقف حينها يتصنع العجز أكثر مما يظنه القاضي قائلاً له: "كبرت يا
سيدي وضعف نظري، سقطت مني إبرة، فكنت أبحث عنها"، علم
القاضي بفطنته أنه كاذب لكن أرخيد كان بالنسبة له أكثر من خادم،
فهو كاتم سره الوحيد، والوحيد الذي يثق فيه بين الناس جميعًا.

- أرخيد .. أيها الحقير أرخيد.

- نعم يا سيدي.

- الذباب أيها القذر لا يكف عني .. بخورك لا يصنع شيئًا.

- سأطفئه يا سيدي.

- أيها الغبي لا تطفئه .. فقط أحضر لي ... أحضر

- أحضر ماذا يا سيدي؟

- سأموت يا أرخيد من قلة النوم.

- سيدي وجهك ...

- ماذا بوجهي؟

- يبدو متورمًا سيدي.

- المرأة .. هات المرأة.

أمسك المرأة ينظر وجهه، وإذا به قد تبدل، فاللون الأحمر يملأه، وثمة أثر لكدمات لا تعد، كأن أحدًا ما قد أشبعه ضربًا كما يفعل بالمسلمين واليهود، وبدا له الذباب من حوله في المرأة، فأخذ يصفع نفسه أكثر ليقتله.

- سيدي.

- ماذا؟

- البابا أرسل في طلبك .. قال إنه لم يرك منذ عشرة أيام مضت.

- اللعنة على البابا لص الإله .. كيف ألاقيه بوجهي هذا؟ .. لو كان بمقدوري لقتلته الآن .. (قال ذلك ضاحكًا وشاركه في الضحك أرخميد).

- تعرف يا أرخميد .. أنا أحبك .. حقًا أحبك أنت رجل صادق، لم تحاول قتلي أبدًا رغم أنك تعلم أنني قتلت الكثير من بني جلدتك.

- أنا كاثوليكي يا سيدي.

- هراء .. أعلم أنك مسلم.

- سيدي .. تبدو مرهقًا.

- لا يا أرخميد أنا أعرف كل شيء .. لطالما عرفت الحقيقة، وكنت أضلها
قصداً لأرضي البابا رغم أنني أعرف أنه محض لص (سكت قليلاً) .. يبدو
أنك بالنسبة لي أقرب من البابا، فأنا أعترف لك الآن.

- سيدي أنت متعب فقط .. حاول أن تنام.

- هات لي الشراب والكأس.

- سيدي هذا سيء بالنسبة لك، أنت لم تفعل شيئاً منذ أيام سوى الشرب.

- تعلم يا أرخميد أكون صادقاً فقط وأنا سكران ...

أحضر أرخميد الكأس وأعطاه للقاضي، لكن القاضي لا يمكنه حمل
الكأس، فأمسك أرخميد بيده ليضع الكأس فيها وهم بالانصراف.

- أرخميد.

- نعم سيدي.

- أنا أعمى.

- ماذا؟!

- لم أعد أرى شيئاً سوى الذباب يطير في بياض كبير ممتد للأبد.

- هل أحضر لك الطبيب يا سيدي؟

- تقصد اليهودي شمعون .. مات .. قتلته ونسيت أنه طبيبي الخاص.

- إذا فطبيب الكنيسة يا سيدي.

- أحضر من شئت .. فعيناي مفتوحتان ولكنهما لا تريان.
- أجهش حينها بالبكاء، لكن البكاء يبدو ثقيلاً ومجهداً فلا تخرج الدموع من هاتين العينين الحمرأوين من قلة النوم، أسرع أرخميد لطبيب الكنيسة يستدعيه، وحينها علم البابا بمرض القاضي بالطبع، وعلم أن خادمه أرخميد بالكنيسة، فناداه يسأله عن القاضي، فكذب عليه أرخميد وأخبره أن عينيه رمدت وهو يحتاج للراحة فقط.
- حين وصل أرخميد مع الطبيب إلى غرفة القاضي، كان القاضي على وشك أن يقتل نفسه، أخذ سكيناً من طبق التفاح وكان على وشك أن يغرسه في عنقه.
- سيدي مهلاً .. مهلاً.
- أرخميد الطيب .. دعني أموت.
- أحضرت الطبيب يا سيدي .. ها هو.
- مرحباً سيدي القاضي .. (قال الطبيب).
- أيها الطبيب أخبر البابا أن القاضي أصبح أعمى لا يرى شيئاً سوى الذباب يطير في بياض متسع للأبد، وأخبره كذلك أنه هو أيضاً سيموت أعمى لا يبصر شيئاً غير الذباب .. كلكم ستموتون الميتة نفسها .. كلكم .. كلكم.

- سيدي القاضي هلا استرحت قليلاً لأنظر عينيك.. (قال الطبيب).
- أسترح؟! .. جئت تسخر مني أيها الطبيب؟
- سيدي أرجوك هذا لأجلك أنت.. (قال أرخميد).
- حسنًا يا أرخميد الطيب تعال أيها الطبيب.
- حين اقترب الطبيب من القاضي وأبصر وجهه أكثر، بدا مرعوبًا قليلاً، فوجهه كوجه معذب لا قاضٍ، حلق الطبيب كثيرًا في عينيه، وأخرج منظارًا حديدياً طويلاً ينظر منه في عين القاضي، بدا متوترًا كثيرًا، ثم كان بين الحين والآخر يفرك عينيه ويعود ينظر مرة أخرى في عينيه.
- هذا غريب جدًا.. لم تنم منذ متى أيها القاضي؟
- عشرة أيام.. (قال أرخميد).
- عيناك سليمة.. لا شيء فيها أبدًا فقط تحتاج للنوم.
- النوم؟! (قال القاضي ضاحكًا).
- نعم سيدي النوم.. (رد الطبيب).
- أيها الطبيب أنا لا أستطيع النوم.. لا يتركني الذباب.
- أي ذباب؟
- ذاك الذي لا أرى غيره.. ذباب كثير أمام عيني فقط، وطنينه في أذني لا يكف أبدًا.

- أنت مرهق فقط .. تحتاج بعض النوم والراحة.
- لا تقل نوم ثانية وإلا قتلتك.
- لا سيدي لا داعي لذلك .. سأعطيك بعض الدواء يعينك على النوم،
و حين تصحو سيكون كل شيء على ما يرام.
- حسنًا أعطني الكثير منه إذن.
- الكثير منه قد يقتلك.
- فليفعل إذن مباركًا من الرب.

قال ذلك قبل أن يغفو كنار تحبو لكن لهيبه كان يسطع، فقد حلم بالجحيم يراه بأَم عينيه، سأل نفسه: هل أعيد له البصر مرة أخرى أم أنه يحلم؟؟، خاف أن يظن أنه يحلم فيقوم من نومه، فأثر أن يحتمل النار من حوله على ألا يصحو من نومه، فقد علم في قرارة نفسه أن الذباب لا يعيش في الجحيم وإلا سيحترق، فالجحيم بالنسبة للقاضي بدا هادئًا- رغم صراخ المعذنين- عن طنين الذباب بكثير جدًا، كأنه وجد مستقرًا له، يألفه كأنه ينتمي إليه دون أن يعرف، يألف حره ورائحته التتنة دون تأفف يصيبه، بدا النوم للحظات هادئًا حتى ظهر الذباب من جديد يطن أكثر من ذي قبل يطارده في أحلامه، حتى قام حينها من نومه فرعًا، وأخذ يمد يده نحو المنضدة يبحث عن سكين التفاح الذي كان في يده

وانتزعه أرخميد منه قبل أن يقتل نفسه، أخذ يلوح بيديه ويتحسس بهما الأشياء من حوله، فوجد زجاجة الخمر بين يديه فأخذها وضرب بها المنضدة ليكسرهما فبدت أجزاؤها المتبقية في يده أكثر قتلاً من المقصلة، فضرب بها عنقه ولم ينتبه أرخميد له سوى في اليوم التالي، حيث وجد القاضي منتحراً في غرفته.

الفصل الثامن

الكويت ١٩٨٨م

في الضفة الأخرى من النفس البشرية يقبع عدوه الأول، ذاك الذي يحوّر من أشكاله وأطراف ظهوره.. بعض الأحيان يرتدي وجه الشيطان، وأحياناً أخرى يكون بلا وجه، محض شر غير معرف الملامح، وأحياناً قليلة يكون في صورة البشري ذاته، فيطلق عليها النفس أو الشر أو أي اسم قد ينال من عقله فيحبه ويجده شاعة جميلة المنظر يعلق عليها أخطائه أو فشله، ربما لن تتفق معي بأن البشري ذاته يخادع نفسه طوال الوقت، ويخترع ما يبرر شره وغباوته كمن يستكثر من الحب فيهم به، وحين يبدل الحبيب يشيطنه، وربما يرجه كأحد أركان عبادته لذاته، فيخدعها دوماً كحال عربي كفر بصنمه فهشمه "الشر لم يصبني، لست شريراً بالقدر الذي أنا عليه....".

ربما أصيب بذلك صاحبنا إبراهيم حين علم صاحبه الشيخ مصطفى تعويذة عين صاحب، تلك التي كان يريه من خلالها الحبيبة، فيراها أمامه كأنها جاءت تزوره فيحدثها وتحديثه، كأنها معه في ذاك الحلم الذي قضى سنوات ليتعلمه، كل ما أراده إبراهيم يوماً هو أن يرى زوجته ثانية، كأنها معه من جديد، أما عن الشيخ مصطفى فقد قضى وطره من

تعليم السحر الذي أراده، فصار يلجم أفكاره ويحاول أن يقنع قليلاً بتلك الدقائق التي يراها، بدا مسحوراً حقاً بما يرى، كان ينظر عينيها دون أن ينطق بشيء أو تنطق بشيء، لكنه لم يعرفه أن نهاية تلك التعاويذ قد تودي به إلى حيث لا يريد.

وهنا نبت الحقد في إبراهيم، كم سنة وهو يحاول أن يصنع ذلك فيرى زوجته الميتة!! كم مرة أشعل البخور ليرى حتى صورتها حية أمامه من جديد!! كم أجلس الشيخ مصطفى واستخدم جسده كوسيط روحاني ليحاول أن يتصل بحبيته دون فائدة!! كل ما يريده هو أن يسألها إذا ما كانت تسامحه أو ربما يسألها كسابق عهده: هل لا تزال تحبه، أرجوك لا تتهمه بالسذاجة، فالسذاجة أمر أصيل عند الإنسان خاصة حين يكون جريح القلب، أو يؤلمه الفقد، فالعقل حينها مصاب بداء الاشتياق والمشتاق أعمى رغم إبصاره بالأشياء والنور.

عين الحصان لها سحر خاص، لم أعرف إن كنت قد جربته يوماً، لكن ثمة حديثاً لا يقال في عين الحصان، تلك الحدقة الواسعة، والأجفان المكسوة بلون شعره، بنيًا كان أم أسود أو أبيض أو غير ذلك، لديّ قناعة حقيقية بأن الحصان كان طائرًا، كان ذلك في طفولتي هاجس يرقى للحقيقة، لماذا لا يطير الحصان كبقية الطيور؟ أرى ذلك حقاً أصيلاً

للحصان، ستقنع بما تقول حين تستشعر أنفاسه وتسمعها، حيث لا صخب، حيث خلق للمرة الأولى ليزين هذا العالم، كذلك هو اعتقاد الشيخ مصطفى في حبيبته، أحياناً تبدو الأشياء متقاربة متباعدة في الوقت نفسه، لا يدرك اتصالها إلا من أدرك شيئاً في نفسه يعده سرّاً لا يخبر به أحداً كالشيخ مصطفى، والذي كان يحتفظ بلهجته الأصيلة فتخرج منه بتلقائية شديدة، فحين ينتهي لقائهما يغمض عينيه ويغط في نوم عميق، وحين يستيقظ يقول مندهشاً: "يا لهو بالي هي راحت فين؟" فيضحك منه إبراهيم، فيبادله الشيخ الضحك، يتكثمانه لئلا يعرف أحد من زملاء السكن سرهما، بالطبع تساءل البعض عن البخور والأنوار التي تشع أحياناً من الغرفة حين يختليان، لكن دوماً ما يكون الجواب على صور مربية كرائحة البطاطس المقلية المؤذية التي توجب عليهم إشعال البخور، وأشياء من هذا القبيل من حجب واهية، لكن لا بأس فالكل هنا يبحث عن شيء واحد وهو المال، ولا أحد يهتم بما يصنعه الآخرون، فليذهب الجميع للجحيم إذا ما لم يؤذني فيما جئت إليه للغربة.. المال ثم المال ثم المال، للشيخ مصطفى صوت شجي يتغنى به حين يكون سعيداً، في يوم رؤيتها الأول بدا كصبي وجد لعبته الضائعة،

فخرج إلى حيث زملائه ليجد أحدهم يعد نقودًا ليرسلها في الغد لأبنائه
فتغنى حينها.

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده المال ومن لا يملك المال فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده الذهب ومن لا يملك الذهب فعنه الناس قد ذهبوا
فألحن أحدهم يقول على وزنه: "وكان يأكل الكشري المصري".

رأيت الناس قد شطوا إلى من عنده الشط ومن لا يملك الشط فعنه الناس قد شطوا
رأيت الناس قد دقوا باب من عنده الدق ومن لا يملك الدق فعنه الناس قد دقوا.
ثم ألحق بها فقال "إتفضل كشري يا شيخ معانا" .. فضحك الجميع
وجلجل الضحك في ذلك اليوم، أما عن إبراهيم فكان في غرفته وحيدًا
يحاول أن يجد تعويذة تعيد الموتى أو تعيد ما ضاع منه، لكن لا فائدة
فأخذ يقول: "من يذهب لا يعود .. من يذهب لا يعود".

المنوفية ٢٢ مارس ١٩٥٦م

على ضفتي رَيَّاح شيين الكوم في الساعة السادسة صباحًا أو ساعة
شروق الشمس تقف جماعة الفيلا المهجورة السرية غريبة الأطوار في
مكان يجرى فيه الماء بشكل عكسي عن التيار يعرفونه ويعلمونه فيما
بينهم، ومع أول ضوء للشمس تبدأ صلاتهم السرية، فيهمهم كل واحد

في سره تلك الجملة: "شبتاي تسيفي نحن بانتظارك"، ثم ينصرفون لأعمالهم دونما أن يشعر بهم أحد. يمكن أن ترى النساء في ذلك اليوم يرتدين أحذية صفراء اللون، والرجال محلقين رؤوسهم تاركين لحاهم .. اليوم بالنسبة لجماعتهم هو يوم مقدس، فهو "يوم الخروف" أول أيام السنة العبرية، والتي تعد توقيتهم الحقيقي، وهي سنة قمرية الأشهر، شمسية الأعوام، لذا في بعض الأحيان تكون ثلاثة عشر شهرًا، وفي أحيان أخرى تكون اثني عشر شهرًا، في كل يوم ٢٢ آزار (مارس) يحتفون بذلك العيد مع يهود العالم، ففي ذلك اليوم يعتقد اليهود أن إسحق الذبيح فداه الرب بخروف من السماء، لذا فهو "يوم الخروف"، حيث يؤكل لحم الخروف للمرة الأولى في العام الجديد، وفي الليل تجمعهم طقوس أخرى.

تجلس صفياناز أمام المرأة تضفر شعرها لجداول رفيعة جدًا بحسب ما يعتقدونه في جماعتهم، حين ارتأت فيه بعض الشعر الأبيض كادت أن تخلعه لولا أنها شاهدت زوجها محمود البلكي في المرأة وهو يتسمم، فالיום هو عيد ينتظره كل عام ففي الليل طقس إطفاء الشموع، وحين أخبرك به ستعلم سر فرحه.

- طبعًا إنت فرحان جدًا.

- أنا .. أبداً.
- ليه فاكرني مش واخدة بالي.
- واخدة بالك من إيه؟
- جدعون.
- هششش .. صوتك حد يسمعك.
- إيه إيلي بينك وبين مارسيل مرات إيزاك؟
- أبداً .. زي إيلي بينك وبين إيزاك نفسه.
- آه .. عموماً إنت حر.
- من حسن حظي إن إيلي بيحضر بليل لازم يكون متجوز، ويحيب مراته وإلا كنت هلاقي باروخ هناك.
- وإنت مالك بباروخ؟
- مش باروخ ده برده يبقى حسنين صدقي زميلك في الشغل.
- بقولك إيه .. أنا مش ناقصة قلبة دماغ.
- لن يحضر اليوم سوى قلة فقط هم وحدهم المتزوجون من نفس الجماعة، فهذا أمر نادر جداً، أربعة عشر زوجاً فقط من كل مصر، يحضر كل زوجين في زينتهم الكاملة، ترتدي النساء أحذية صفراء ويجدln شعورهن لجداول رفيعة جداً، ولا صلوات سوى صلاة الطعام على

الخروف، يأكل الجمع، ثم يبارك على الخمر ويشربونه غير مبالين بشيء ثم تطفأ الشموع، فتتبادل كل امرأة ورجل الحب، وكل من ينجب من تلك الليلة هو رجل مبارك. لا يحل هذا الطقس للعزاب أو لأي امرأة أو زوج متزوج من غير الجماعة، ولا يعرف أحد عن ذلك الطقس شيئاً غير الأربعة عشر زوجاً وزوجة، هذا الطقس هو السر الأكثر قداسة لدى تلك الجماعة، فمن يفشي منه شيئاً يقتل، ومن يتغيب عنه هو ملعون.

أعلم أنني أجرح بعض خيالك بتلك القصة، لكن لا شيء دوماً أبشع من الحقيقة، أيضاً حقيقة خبل العقل البشري الذي يجب أن يؤمن بالوهم وأحياناً يقدسه، وربما تعبد به لحجر يدرك تماماً أنه لا ينطق، لا أدعوك لتقبل أي شيء، إن هذا وبال عليك إن تقبلته، فأني عار يلحق بمن يرتضيه!! أي مرض عقلي قد يلتهم ذرات عقلك ليجعلك سعيداً بهذا النوع من الطقوس، هو ذاك.. من هم مثل جدعون أقصد البلكي وعلى شاكلته، فصاحب الاسمين يرتضى الازدواج في كل شيء، ويراه متناغماً جداً في كونه ديوناً مولع بالنساء على أية حال، ولو كان الثمن حتى زوجته، أقسم أنني أكاد أتقيأ من ذلك.

الكويت ١٩٨٩م

الحقد .. الحسد .. الكذب .. وغيرها كثير مجرد أعراض جانبية للحرمان، الشخص المحروم يحمل في طياته مرضاً حقيقياً، لم يسع الطب الحديث ولو لمرة واحدة لأن يشخصه أو يعرف أسبابه، ربما يرجع ذلك لكونه مرضاً غير قاتل أو غير معد لكنه كذلك بالفعل، لا ينكر أحد كونه قاتلاً، ربما أول مرض أصيب به البشر على الأرض، وأدى لحادثة القتل الأولى على الأرض، ومن قال إنه غير معد أيضاً، هو كذلك معد جداً فحين يرى الطفل أباه وأمه كاذبين لن يكون صادقاً، وإن رآهما حسودين لن يكف أذاه عن البشر، هو ذاك ببساطة مفتاح ما حدث حين رأى إبراهيم حبيبين، أصيب بالحسد، فكّر كل الأحباء، وتنى لو يفرق بين الحبيين كما جمعها ولو كان ذلك مجرد أحلام يراها صديقه، ببساطة يمكنه أن يفسد أمرهما بكوب من الماء يلقيه في "منقذ" البخور فتموت الحبيبة، كتب ذلك في متن أحد الكتب القديمة، فالتقاء الروح إن انقطع فجأة لا تعود روح المستدعى مرة أخرى لجسده، وبالرغم من أني أعلم أن ذلك خبل محض، غير أن الإيمان به أحدث جريمة حقيقية.

في يوم الخميس ثمة لقاء للحبيين سيعد له الشيخ مصطفى أنفاسه لا الساعات، سيتصنع إبراهيم أن كوب الماء سقط في "المنقذ" دون أن

يقصد وينتهي الأمر، يعلم بالسر ذاته الشيخ مصطفى فقد قرآه سويًا:
"إذا انطفأت النار أثناء التقاء الروح تنطفئ الروح فورًا، ولا تعود مرة
أخرى للجسد إن كان حيًا".

أتى يوم الخميس مبكرًا جدًّا، ونفس إبراهيم تلح عليه في شرها، لم ينم
البارحة، ظل يفكر فيما يدبره، كذلك الشيخ مصطفى لم ينم، ينتظر
اللقاء كمن ينتظر يوم خروجه من السجن، ثم يتذكر أي سجن قد أهم
الحبيبة التي بدت في لقاءهم الأخير وكأنها فقدت عقلها، صار يبكي
ويضحك، لا حزنًا ولا فرحًا، تساوى الضدان معًا، فصارا يتقاسماه
كعقابين يتقاسمان فريسة، وكان الشيخ مصطفى الفريسة، فيوم الخميس
طال انتظاره، حيث اكتمال القمر كما كان اللقاء السابق، لم يكن ليعلم
فيم يفكر إبراهيم.

في الساعة الثانية عشرة مساء بالضبط بدا القمر مكتملاً في أوج ظهوره،
وبدا الاشتياق مرًا هذه المرة، في الثانية عشرة وخمس دقائق ظهرت
الحبيبة، رآها الشيخ مصطفى مد يده نحوها، ومدت هي يدها في الثانية
عشرة وست دقائق، قال لها: "أشتاق إليك كثيرًا"، وقالت له: "أشتاق
إليك كثيرًا"، في الثانية عشرة وعشر دقائق قال لها: "أحبك"، وقالت
له: "أحبك"، في الثانية عشرة والربع سقط كوب الماء في "منقذ"

البخور واختفت الحبيبة.. قام الشيخ فزعًا، ونظر "للمنقد" فإذا به منطفئًا، وإبراهيم ينظر إليه مستشعرًا الندم على ما فعل يحاول أن ينطق: "وقعت غضب عني"، علم حينها أن حبيبته لن تعود أبدًا، وأن روحها قد فارقتة للأبد، كان يلتقط أنفاسه كمن يحاول أن يجهش بالبكاء، ثم قام مسرعًا من سريره فخاف إبراهيم أن يؤذيه، لكنه لم يفعل، بل فتح الشرفة وقفز منها، في لحظة لم يعد لها إبراهيم حسابًا، انتحر العاشق دون أن يتأكد حتى من موت حبيبته، لكن فكرة ألا يراها ثانية قتلتها، بل كانت أسرع في قتله من أي شيء.

الفصل التاسع

اليونان - جزيرة رودس ١٦٢١م

- وصل الحظ عنان السماء .. نجونا يا فوعة.

بهذه الكلمات سيبدأ مردخاي حياة جديدة، تَوًّا بدأ عام يهودي جديد، حيث وصل إلى أرض يأمل أن يعيش فيها كما يشاء، فالكنيسة اليونانية ليست كتلك الإسبانية، هناك حيث يموت الناس مجانًا، هذا هو تعبير اليهود حين يقتلون في أرض غريبة، لا ينم هذا التعبير سوى عن كونهم تجارًا قبل كل شيء.

السفينة القادمة من إسبانيا راسية بعد أيام طويلة قضتها في عرض البحر، صعد أحد البحّارة على الصاري يصرخ بأعلى صوته: "أفرغوا الأشياء والبضاعة، فقد قرب وقت الرحيل من رودس"، (رودس هي الجزيرة اليونانية التي رست السفينة في مينائها، وهي الأقرب لتركيا، حيث جزيرة أزمير، كان مردخاي لا زال يجهل ذلك كمحدث في بلد غريبة)، تعجب مردخاي جدًّا، تَوًّا وصلوا إلى الأرض، فإذ بهم يعودون مرة أخرى كأن بينهم وبين اليابسة عداوة قديمة، لم يطل الاندهاش كثيرًا فقد سمع عند مروره أحد البحّارة يحدث صديقه قائلاً: "إنما نبحر يا صديقي لنكون أحرارًا، فالحر يكره أن يسجن على اليابسة"،

وكان حديث الرجل مس مردخاي في جنباته فملاً صدره بالهواء حتى
كاد ينفجر، كانت أنفاس الحرية تختلف عن تلك التي ملأت بالموت في
إسبانيا، أما عن فوعة فبدت مهمومة جداً، تجر طفلها وتمشي خلف
زوجها، تحاول ألا تسبقه إلى حيث يمكنها رؤية رسول الحاخام الذي
سيساعدهم في ترتيب حياتهم الجديدة، سمع مردخاي صوتاً ينادي بكل
عزمه: "يا مفتش الأسود"، لوهلة خشي مردخاي أن يرد على نداء ذلك
الرجل، فقد صار الخوف يلزمه، لكن فوعة نبهته بأن الرجل ينادي
عليه، فرفع يده على خوف، وصار ينظر حوله كمن يخشى شيئاً وتعجب
كثيراً حين لم ينتبه إليه أحد، اقترب الرسول نحوه قائلاً:

- شكراً للرب على سلامتك يا مردخاي .. اسمي آريوس كوهين،
أرسلني الحاخام إليك.

- أهلاً سيد كوهين.

- هل نسيت شيئاً في السفينة؟

- لا .. هذا كل شيء فقط.

- لا عليك .. مرحباً بك .. تفضل.

- إلى أين؟

- لا تخف .. سنذهب لكنيسنا فالحاخام أدرعى ينتظرك.

- هاه .. حسنًا هيا يا فوعة .. ذاك الحوراني ينتظرنا .. هات حقيبتك تلك .

- لا .. لا .. لا عليك شكرًا .

عند حافة أحد الجبال يدخل الحوراني نحو اليمين في شارع ضيق بعض الشيء، ثم أمام مسكن يبدو عليه القدم والأصالة يوقف عربته، ويقول كوهين بصوت قلق: "قد وصلنا تقريبًا، علينا أن نترجل قليلاً إلى الكنيس"، يمشي مردخاي حاملاً حقيبته وخلفه زوجته وولده الصغير، حقًا كان الطريق المتبقي قصيرًا جدًا، مجرد مائة خطوة ويصل إلى الكنيس، لكن ذاك الطريق على قصره بدا أميالاً بحرية بالنسبة لمردخاي، فقد بدا على وجهه القلق، كان يتفقد البيوت والجدران والمارة كمحدث على هذا العالم، بالنسبة لمردخاي تلك هي غربته الأولى، والغربة هي صديق صعب الألفة، حاد الطباع، لا يُؤمّن أبدًا، وإن صادفته من جرب الغربة سينتفهم ذلك جيدًا، لكن من يألف الغربة سيكون هذا الحديث بالنسبة له مضحكًا، أرى وجهه المتبسم الآن، والمكتوب عليه كلمة غريب يجلس في غرفته وحيدًا كعادته، متشككًا فيه كعادة الغرباء الشك عندهم لازمة، في أثناء تلك الخطوات التفت كوهين لمردخاي وأشار نحو حارة جانبية صغيرة: "هنا الجتو"، يقصد تجمع اليهود أو حارة اليهود، وعلى اليمين منها الكنيس اليهودي. أسرع كوهين نحو الكنيس

كمن يعتاد تلك الخطوات فتطوى الأرض طياً تحت قدميه، أما مردخاي فلا يزال مرتاباً بينه وبين نفسه، فيبطئ من خطواته، متفقداً المكان، أما فوعة فكانت منشغلة بطفلها الذي قتله الجوع، محاولة أن تُصَبِّره إلى أن يتبين مردخاي لأي قدر قد ساقهم.

بدا الكنيس مظلمًا بعض الشيء، لكنه طيب الريح، تعلوا فيه أصوات الصلوات دون خوف، وللمرة الأولى يُحسُّ مردخاي الطمأنينة، فسرعان ما أَلَفَ المكان، بضع لحظات فقط بدت كافية لذلك، أما عن فوعة فبدت تعرف مجلسها من الكنيس، فاتخذت مكانها دون أن يشار إليها، بينما يتبع مردخاي كوهين نحو المذبح، أما عن الطفل فكان الجوع والنوم يتكاتلان عليه، ولقلة حيلته في أن يُطْعَم استسلم للنوم بمجرد وصوله للكنيس، فافترش إحدى الأرائك، ووضع رأسه على فخذ أمه.

نحو المذبح خطوات مردخاي ثقيلة فهو يسمع صوتاً مسناً جداً يأتي من خلف مسند التوراة، يقرأ فيه رجل منحنى الظهر جداً، ويركن عصاه إلى أحد أركان المسند، يرتدي شاله الأبيض المجدول الأطراف، وكان على وشك أن يقيم الصلاة الوسطى، لكنه أحس بخطوات كوهين خلفه، فالتفت إليه بعد أن أنهى قراءته، فأسر له كوهين، فقام من مكانه مثقلاً بمائة واثنين عامًا ينظر نحو مردخاي، وحينها بدا مردخاي كمن وجد

ضالته، فذلك هو الحاخام أدرعى، يبدو عليه الصلاح، قد أوكله إليه
القدر فأحسن إليه، همَ مردخاي بأن يخفض رأسه للحاخام الأكبر، ثم
يقبل يديه تبرُّكًا حين أسر له كوهين: "ذاك هو الحاخام أدرعى المبارك،
تحدث معه بالعبرية فهو لا يعرف الإسبانية"، بيد مرتعشة جدًّا تكاد لا
تقوى على الإمساك بشيء مسح الحاخام على رأس مردخاي وباركه، ثم
أشار لكوهين ليأخذه نحو مجلسه، فأسرع كوهين لذلك، وحاول أن
يساعده مردخاي، لكن كوهين كان أسرع وأكثر فهُمًّا لفعل الأمر،
وبصوت يكاد لا يسمع قال الحاخام:

- كيف حال أبناء يعقوب في بلدك؟

- سيدي الحاخام يعلم أن الأحوال هناك ليست على ما يرام.

- ليكن رب موسى معهم .. هل أحضرت الرسالة معك؟

- نعم سيدي الحاخام.

- حسنًا.

أشار لكوهين فأخرج مردخاي الرسالة من ملبسه كأنه خبأها بين
أضلعه وأعطاهما لكوهين، فأخذها على عجل وخبأها أسفل غطاء
التوراة.

- سيأخذك الآن كوهين إلى بيت يملكه، ستمكث هناك إلى أن تندبر أمرك .. وسيقوم بتعليمك اللغة لتكون قادرًا على العيش هنا.

- شكرًا سيدي.

- لا تشكرني .. اشكر الحظ .. لولا أنك موفور الحظ لكان مصيرك على حافة الهاوية هناك.

وجد مردخاي بعض الالتباس في فهم حديث الحاخام، فأشار لكوهين فترجم له ما استعصى عليه من كلمات.

- تحتاج لفهم لغة التوراة أكثر .. (علق الحاخام).

- نعم سيدي قليلاً.

أشار حينها الحاخام لكوهين مرة أخرى، وقال له باليونانية: "أعدني لصلواتي"، فقام كوهين يسنده حتى أقامه بين يدي توراته، وانصرف لمردخاي ثانية، وأخبره بينما يخرجان من الكنيس أن ذلك البيت الذي سيقم فيه هو بيت لزوج أخته كان لأبويه قبل أن يموتا لكنه بحال جيد على أي حال، وهو لن يطالبه بإيجاره حتى تستقيم أموره هنا، ونصحه بعض النصائح بأن يلزم البيت حتى يعرف لغة اليونان فيستطيع أن يتعامل معهم، ونبهه بأن الناس في تلك البلدة فضوليون بعض الشيء، لذا لا يجب أبدًا أن يثير انتباههم له، وإلا لن يسلم من حديثهم وسؤالهم

عن تاريخ حياته، ونصححه بأن يقول إنه قريب لكوهين وأنه كان يسكن أزمير (جزيرة تركية قريبة جدًا من رودس)، وقدم إلى اليونان خوفًا من بطش المسلمين، وقال: "هذا الحديث يطيب للناس هنا .. ادفع كراحتهم لنا بكرامة أكبر، فحينها تصير صديقًا، فعدو صديق خير من صديق عدو".

بدأت فوعة متعبة، طوال الطريق للبيت لم تكن لتتنبه لشيء غير طفلها الذي يموت جوعًا، ويمشي متثاقلاً نحو البيت، تجره جرًا يكاد يسقط أكثر من مرة، ذلك ما يجعلها تغفل عن كل شيء، حتى عن جوعها هي، أو عن الطريق المؤدى للبيت، حاولت أن تشير لزوجها أكثر من مرة لكن دون فائدة، كان مسترسلًا في الحديث مع كوهين، وحين وصلوا للبيت، وقبل دخوله أشارت لمردخاي نحو فمها، ثم أشارت للطفل لفتنه كوهين لذلك، فقال: "أتمنى أن يعجبكم طعام زوجتي فهي تتقن طهي السمك"، حينها تهلت أسارير فوعة حين سمعت ذلك، وأفاق الطفل للحظة من تثاقله، وكاد يرقص فرحًا، فتح كوهين الباب الخشبي للبيت القديم بعد أن ضم السبابة والوسطى، وقبلهما ثم وضعهما على قطعة خشبية صغيرة بجانب الباب مكتوب عليها بالعبرية، بدا كل شيء مثاليًا حتى الآن، لا بأس بقدم البيت كل

شيء يهون، يحتاج بعض الكماليات فقط، ولا يحتوي على قبو، بدا ذلك غريباً على مردخاي وزوجته أن يعتادا العيش كبقية البشر في العلن، وبلا قبو أو خفاء أدرك ذلك مردخاي أكثر حين شاهد على الحائط صورة مرسومة لموسى النبي ممسكاً بالألواح الحجرية، مشيراً بإصبعه لأعلى كمن يعظ.

أما فوعة فكانت تتبع رائحة السمك، وكذلك الصبي، وكامرأة تتقن فن الطهي علمت مكان المطبخ وحدها، تخلفت عن زوجها وصاحبه إليه، ومعها الصبي، بدا ذلك محرّجاً جداً بالنسبة لمردخاي، ولذا أسرع كوهين في الانصراف قائلاً: "في الغد سأتيك لأعرفك على البلدة سيد مردخاي"، بدا محرّجاً جداً وهو يقول ذلك حتى أنه نسي أن يسلم مردخاي مفتاح البيت وانصرف به.

- ما الذي دهاك يا فوعة؟

أسرع إلى المطبخ ينادي في غضب، ثم نظر إليها فوجدها قد ملأت فمها وفم الطفل بالطعام، وكأنهما قدما من مجاعة حقيقية، وحين تنبّهت لغضب زوجها أجابت والطعام في فمها:

- الصبي جائع.

- وماذا عنك ألم تحملي حتى ينصرف الرجل؟

- بدا أنه لن يرحل أبداً .. أنا أيضاً جائعة .. لم أكل شيئاً من البارحة.
غاضباً انصرف نحو غرفة النوم، يحتاج للنوم أكثر من أي شيء، وحين
انصرف لحقت به فوعة تقول له:

- "أظن أنني حبلى بمردخاي".

تجمد لحظة في مكانه، ثم تحالطت في وجهه الفرحة بالغضب، ثم قال:
- "أحتاج للنوم .. سأنام وفي الغد لنا حديث .. اطعمي الصبي ونامي
بالتأكيد تحتاجين للراحة".

فسألته:

- "ألن تأكل؟"

فأجابها:

- "لا".

في الصباح كانت رودس مرحبة بمردخاي، بالرغم من أن أحد المارة
بصق في وجهه ووجه كوهين حين كانا ذاهبين للسوق، أما عن كوهين
فقد أخرج منديلته ومسح البصقة وأكمل حديثه الذي كان مسترسلاً فيه
مع مردخاي، أما مردخاي نفسه فلم ينتبه للأمر أصلاً كأن البصاق على
شيء آخر غيره، كيف تصل إلى هذا الحد من اللامبالاة؟ هذا سؤال يبدو
ساذجاً بالنسبة لمردخاي، ماذا تعني البصقة إذا ما قورنت بالمقصلة أو

الموت على الصليب؟ لا شيء البتة كأنك تخير أحدًا ما بين أن يموت قتيلاً، أو أن تسبه كل يوم بأمه، والناس في ذلك صنفان: مرفوع الهامة الذي يفضل الموت، وذاك الذي يعتاد المهانة حتى يألفها فتناديه يا ابن كذا أو ابن كذا، كأنك تناديه باسمه أو علّه يعتاد نعته بالسباب، أو يتأفف أول الأمر، ثم يعتاده ثم يألفه ويعدّه نوعًا من المديح، تكمن حقارة الإنسان في أنه يعتاد كل شيء، وذاك الصنف الذي يألف الأشياء يعيش طويلاً، بينما صاحب الهمة مات قتيلاً، يحب الناس أن يلوّك قصته ثم ينسوها، فعهد الناس بالقصص النسيان، لذا ستبقى رودس مرحلة رغم البصقة.

بدا السوق فارغاً، بالنسبة لمردخاي فالمعروض فيه لا يمثل عُشر ما كان في سوق المورة، وأجابه كوهين عن ذلك بأن السوق يعتمد على البضاعة الواصلة من إزمير، حيث مركز التجارة العثماني، والذي يحتكر توزيع البضائع على المنطقة بأسرها، لذا فلا يصل سوى اليسير من البضائع، خاصة أن عدد سكان رودس أيضاً قليل بالنسبة للمورة، وحين وجد من مردخاي بعض القلق ذكره بأن قليلاً دائماً خير من كثير زائل، لكن مردخاي بالرغم من ذلك القول فهو غير راضٍ عن السوق، لكنه كان مستسلماً لكل شيء، وفي ثنايا حديثهما سأل كوهين عن رأس مال

مردخاي، وعن تجارته فأخبره عن التجارة، وكذب بشأن رأس المال،
حاله حال كل تاجر، فعرض عليه كوهين أن يستثمر في تجارة الذهب
ومشغولات الفضة، وعرض عليه كذلك مشاركته في الأمر، فهي مهنته
التي ورثها عن أبيه، فشكره مردخاي على استحياء منه، وقال إنه يفضل
أن يعمل في تجارة الدواجن والبيض، فهي صناعته التي يتقنها أيضًا:

- بالحق يا كوهين .. أين تعلمت الإسبانية؟

- هذه قصة طويلة يا مردخاي.

- أجز منها.

- حسنًا .. في الحقيقة تبدو حكايتي مشابهة لحكايتك، لكن أبي كان يسكن
الحمراء في الأندلس، وكان طبيبًا ويعمل بتجارة الذهب مع الأسبان.

- تستخدم لفظة أندلس .. هذا غريب.

- هكذا كان يسميها والدي فيغيظ الأسبان .. هاه ذكرتني بوالدي بارك
الرب روحه.

- آمين .. هو من علمك إذن؟

- نعم.

- ثم؟

- آه .. وجدنا منهم ما وجدته، فجاء والدي إلى هنا .. كنت لا أزال صبيًا حينها في عمر ولدك.

- تشابه قصصنا كلها هنا إذن؟

- تقريبًا.

- بالحق تشكر زوجتي جدًا على السمك .. وتدعوك وزوجتك على العشاء غدًا.

- هذا لطف منها .. عليّ الآن أن أعود للحاخام، فقد تأخرت عليه، أنت الآن تعرف الجزيرة كلها تقريبًا.

- شكرًا لك كوهين .. كنت لطيفًا جدًا معي.

- هذا واجبي مردخاي .. فقد أمر بذلك الحاخام .. وأتمنى أن أكون عند حسن الظن.

الفصل العاشر

المنوفية ١٩٥٨م

تبدأ الحاجة خديجة في الوضوء، تفتح صنبور المياه وتقول في سرها: "يا ابن الرب الوحيد شبتاي تسيفي إحنا على العهد"، تتوضأ وضوء المسلمين كأن لا شيء قيل، الوجه والكفين: "يا سيدنا نحن بانتظارك"، اليدين حتى المرفقين: "يا سيدنا نحن بانتظارك"، تمسح الرأس: "يا رب العجل في رجوع سيدنا"، ثم القدمين، وتكرر ذلك خمس مرات كل يوم.

تجلس على كرسي متجه للقبلة، تتمثل الصلاة تمثلاً، قياماً لا يتجاوز الخمس ثوان فقط، يلحقه الركوع السريع جداً، والذي يشبه السجود في الجلوس على الكرسي كأنها تمرن ظهرها فقط، وكذلك كل ركعة حتى تسلم يميناً ويساراً كمن يرقب من حوله سريعاً، وينتهي الأمر، غير عابئة بحجاب حقيقي أو إذا ما كانت تستر جسدها بشكل كامل، ذلك يا صديقي ما نسميه عبادة موظفي الحكومة غير المؤمنين بمبادئ العمل، يكرسون حياتهم لأجل الحضور والانصراف فقط، فعلية يجزون أجورهم ورواتبهم، أما عن الإنتاج فليذهب للجحيم وليذهب كل شيء للجحيم طالما المرتب يُصرف.

- حرماً يا حاجة.
- جمعاً يا حاج ممدوح.
- ألا صفيناز مجتش؟؟
- لأ.
- البت دية وجوزها بيرو حوافين؟
- أنا عارفه!
- البت آية واقفة في البلكونة تكلم ابن حسن الكهربائي وتهزر معاه ولا خشى ولا حيا!!
- حاضر هقوم أفهمها بالراحة .. السن ده محتاج تحتويه يا حاج ما يجيش بالعصبية دية.
- ما هو لو كان ليها أب كان زمانه شكمها .. لكن أقول إيه.
- خلاص بقى.
- إنت باردة كدة ليه؟
- ولا باردة ولا مش باردة .. أنا قايمة من هنا.
- أهه ده إيلي إنت فالحة فيه.

الكويت ١٩٨٩م

سرعان ما حضرت الشرطة والتف الناس حول الجثة التي تلاشت ملامحها وغطت بقماش أبيض لطخ بالدم طبعاً، أما عن إبراهيم فبدأ مذهولاً جداً، واقفاً حيث كان، لا يحرك ساكناً، تمثال من الشمع يردد كلمات غير واضحة: "الدبان ملى المكان"، وعيناه تتبعان شيئاً كأنه يرقب ذبابة في الغرفة. دخل الضابط الكويتي محمد الصباح بعد أن كسر زملاء السكن باب الغرفة الموصد ليجد إبراهيم على حالة غريبة، واقفاً:

- إنت إلی وجعته؟

لا جواب يردد فقط: "الدبان ملى المكان" .. أشار الضابط لشرطي إلى جواره:

- الإسعاف إجت للجثة؟

- إيه حضرة الضابط.

- زين .. سوو كردون للمكان .. هاتو ها الريال للمغفر .. وارفعوا البصمة من الغرفة هادي.

بدأ إبراهيم مستسلماً جداً أو عله مشغول بشيء أكثر أهمية من اتهامه بجريمة قتل، مشغول بذبابة في خياله تسبح في سحاب أبيض ممتد، وطنينها لا يكف، وما إن وصل الجميع لقسم الشرطة بدأ التحقيق فوراً:

- شو اسمك؟
- إبراهيم.
- إيش بتشتغل؟
- مدرس ألعاب بمدرسة ابتدائية بالجهرة.
- ليش جتلت زميلك الشيخ مصطفى؟
- مقتلتوش.
- عل إيش بتبص إنت خليك ويأي هنا (بدا الضابط مستاء جداً) .. كيف يعني ما جتلته؟ يا أخي احترم عجلي يا أخي.
- مقتلتوش.
- بتسوي لي فيها مجنون .. آه بنشوف .. بنشوف .. إيش كنت بتسوي جبل الحادث؟
- مقتلتوش.
- إيش يا أخي إيلي عليك اسمه مقتلتوش!! .. عجيب والله!! .. وإيش الكتب والباخور إيلي كانت عندكم في الغرفة؟
- مقتلتوش.
- آه .. يصير خير .. يا شاوإش (دخل الشاوإش فأشار له الضابط ليأخذه إلى زنزانة منفردة).

أقام الشاويش إبراهيم من مقامه يحره لزنزانتة فأوقع أحد مكونات
مكتب الضابط، فاستشاط غضباً وأخذ في لعن إبراهيم، فأجاب على
ثورته بكلمة واحدة:

- أنا أعمى.

- كيف أعمى؟

- مش شايف حاجة غير سحاب أبيض ودبان إسود.

- خذه .. وخلي طبيب السجن يكشف عليه .. وبنشوف آخرته.

المنوفية ١٩٥٨م

على أحد المقاهي القابعة أمام محكمة شين الكوم يجلس الحاج ممدوح
عزت مع أصحابه ممسكاً بزهر الطاولة يقرعها في صندوقها الخشبي، بدا
منتصراً في أول الأمر حتى تطرق الحديث مع الحاج حسن مصيلحي
صديقه ورفيق عمله القديم، والذي يسكن في المقابل من الجهة الأخرى
للفيلا المهجورة على شاطئ رياح شين الكوم:

- ألا قوللي يا حاج ممدوح.. هي بنتك وجوزها بيروحوا يعملوا إيه في
الفيلا المهجورة إالي على البحر؟؟

- بنتي أنا؟؟

- آه بنتك .. أنا يعني هتوه عنها.
- والله البت دية أنا معرفش عنها حاجة من يوم ما اتجوزت الباب جوزها ده غصب عني.
- غصب عنك!!
- آه.
- إزاي الكلام ده؟!
- أمها يا سيدي .. وإنت عارف بقى لما الست تحط حاجة في دماغها.
- أنا يا أخويه بشوفها في أيام معينة كده بتروح هي وجوزها وشوية ناس كده معاهم الفيلا المهجورة دية .. بيدخلوا حتى من الباب الجانبي مش من الرئيسي المردوم ده .
- قلقطني بكلامك ده يا حاج .. البت دية لازم أعرف بتنيل إيه بالضبط.
- أنا مش قصدي أراقبها يعني ولا حاجة بس إنت عارف إن العمارة الجديدة إالي سكنتها دية البلكونة بتطل على الفيلا دية على طول، فبشوفهم يروحوا أيام كده.. بس دايمًا يروحوا السبت معرفش ليه؟! ..
- ده حتى بشوف الحاجة يعني معاها أحيانًا.
- إنت بتقول إيه يا حاج حسن؟؟

- يا سيدي .. ومن غير حلفان تعالى لي يوم السبت الجاي الساعة عشرة
بلليل كده نشرب الشاي وأوريهم لك بعينك.

قام حينها الحاج ممدوح إلى بيته الذي يجاور المحكمة بشارع أو اثنين
يمشي مطأطئ الرأس كأنه صفع بالقلم على الملاء، يتذكر كلمات صديقه،
ناداه أحدهم فلم يسمعه، وانصرف نحو البيت مثقلاً بالهموم
والخطوات، يحدث نفسه دون صوت: "همك ثقيل يا ممدوح.. لأي
مصيبة تسوقك زوجتك وابنتك تلك؟؟ وماذا عن تلك الحفيدة؟ تراها
تنحل أمام عينيك دون حراك، فحديثك لا يسمع، ولم يعد بمقدورك أن
تلجم جموح أحدهن، الكل يخذعك كأنك قد وقعت في فخ لا تعرفه،
وحدها خديجة تعرفه وابنتها وذاك الوغد الذي حل عليك من اللامكان
لا تعرف عنه شيئاً وكأن الدنيا قد أحاطت بك وأوقعتك في براثن
وحوش لبست ظل البشر".

انتظر الحاج ممدوح يوم السبت وجهز نفسه للسهر على خلاف عادته،
ولم يشرب يومها كوب الينسون الذي تعده زوجته وتَصْنَعُ النوم، وحين
أحس بأن زوجته تسللت إلى خارج البيت تبعها من بعيد، كم سنة وهي
تخذعك؟؟ كم سنة؟، وبالفعل وجدها تتجه نحو الفيلا المهجورة، ثم
تبعها ابنتها ثم زوجها، كل يأتي منفرداً فاق القادمون المائة، يتسللون إلى

حديقة الفيلا التي تظهر بالكاد في الظلام، لا صوت في المكان يعلو على صوت صرصور الحقل.

سجن الجهراء – الكويت ١٩٨٩م

- أهلاً وسهلاً يا أستاذ إبراهيم .. أنا مديح عطوة دكتور السجن.
- عميت يا دكتور.
- طب يا راجل مش ترحب بيا، دا حتى إحنا مصريين زي بعض.
- أخرج كشافاً وبعض العدسات المكبرة للكشف على قاع العين وغيره من الأدوات المبدئية للكشف.
- تعالى نظمن على صحتك.
- دقق النظر طويلاً في عين إبراهيم لكن لا شيء .. العين سليمة تماماً، لا شيء يعيقها عن الإبصار:
- مفيش حاجة.
- إزاي يا دكتور أنا مش شايف حاجة غير دبان وسحابة بيضة قدامي.
- أنا بقولك مفيش حاجة .. عموماً هنعمل فحص وتحاليل وأشعة وكل حاجة.. بس اسمع لو طلعت بتكذب هيبقى ده دليل إدانة ضدك.
- أرجوك حاول تساعدني.

- هحاول طبعًا .. بس إنت حاول تساعد نفسك الأول.

وسريعًا انصرف الطبيب وبقي إبراهيم وحيدًا في زنزانه لا يعرفها، غريبة عنه تمامًا، تائهاً في غرفة صغيرة جدًّا، تكاد تسعه فقط، خلف قضبان من حديد لن تعني له الكثير، فعماه يجعله في زنزانه أكبر، وحده مع ذباب يكثر عدده، وعيناه تتبعان الذباب فيبدو مبصرًا، بدأ شيء ما آخر يلتهمه، نوع من الضيق والاكتئاب الشديد ذاك الذي يجبره إجبارًا على الانتحار، بدت الفكرة خاطرة غريبة أول الأمر، ثم كنبته متسارعة النمو بدت ترسخ بجذور ممتدة في عقله، وكلما نضجت النبتة زادت جذورها تأصلاً وتشعبًا، وصوت طنين أجنحة الذباب يعلو والذباب يكثر، بدا متأففًا من المشهد، ثم انتابه القرف وتبعه الغثيان كمن يشتم رائحة مرحاض عمومي، يتقيأ وكأنه يريد أن يتقيأ أحشاه، يستصرخ الحارث طلبًا النجدة، كلما أراد أن يقول "النجدة" يقول "الذباب"، كأنه يتصدع من الداخل، يضرب معدته بيده، وباليد الأخرى يبعد الذباب، كانت نفسه تضيق كما يضيق القبر على المنافقين، وفكرة الانتحار بدت هي الحل الوحيد، لكن لا شيء يمكن أن يقتله هنا في تلك الغرفة.. حب الحياة والتعلق بها هراء حتى حبيبته بدت محض مراهقة، كأنه يؤكل من داخله، ويترصد له الموت باختياره، يتحسس أي شيء بيديه كأنها قرون

استشعار له، وحين يأس تماماً أن يجد شيئاً يعينه ليقتل نفسه التجأ
للجدار في أحد أركان الغرفة، كوحيد قرن بدا متأهباً للقتل والثأر لذاته،
جرى نحو الجدار المقابل وارطم به فانفجرت رأسه وانتهى.

المنوفية ١٩٥٨م

في ظلام دامس مكث الحاج ممدوح في صالة البيت منتظراً عودة زوجته
ليواجهها بسؤال عن حقيقة ما تفعله، بينما تنام حفيدته في الغرفة المجاورة
له. في الساعة الواحدة تقريباً عادت الزوجة تتحسس باب الشقة كي لا
تصدر صوتاً فيحس زوجها بعودتها، وحين رآته جالساً أمامها في الظلام
انتفضت وشحب لونها، وبدأ لسانها يتلجلج:

- ممدوح؟! إيه إيلي مصحيك دلوقت؟
- إيه إيلي مصحيني؟! .. كنتي فين؟
- إسكت لا قيت بنتك وجوزها جايين لي بعد ما نمت قال إيه متخانقين
و...
- ما تكديش.
- إخص عليك يا ممدوح بقى بعد العمر ده كله تقول كده.

- بعد العمر ده كله يا هانم اكتشفت إنني خرونج .. ومين إلی خلاني كده إنت.

- يوه شوف الرجل إنت بتغير عليا لسه يا ممدوح زي زمان.
أخرج شريط أقراص مخدرة من جيبه مفرغًا من بعض الحبوب:
- إيه ده؟

- ده .. ده .. دوا بتاعي.

- ده منوم حضرتك بتحطيه ليا في الينسون كل يوم سبت وللبت إلی جوه دية، بدليل إنها لا يمكن تصحي في الوقت ده مهما حاولتي تصحيحها زي ما حاولت من شوية.

- أناااا .. آه فعلا ده منوم جبته أصلي بقيت معرفش أنام طبيعي.

- بتروحي مع بتك تعملي إيه في الفيلا المهجورة بتاعة اليهودي يا خديجة ..

- دية كانت عزماني على...

- ما تكديش يا ست يا كبيرة .. عزماني في فيلا مهجورة محدش داخلها من خمسين سنة وأكثر.

خديجة مرتبكة جدًا وكأن شيئًا ما ارتطم برأسها، كل تلك الأعوام كان زوجها منشغلًا بعمله، لم يكن ليلتفت لسرّها أبدًا، خاصة أن حبتها

القديمة بوالدها قد انتهت، مات منذ أشهر قليلة عن عمر جاوز المائة
بعشر سنوات، ذاك الذي أورث حفيدته كرسي الطائفة من بعده،
فتبدلت إلى حالها ذاك، لا شيء لتقوله سارة (خديجة) كل شيء قد
تكشف لزوجها، فطنت ألا شيء ينجيها سوى البكاء، هذا السلاح
الفتاك لا يُغلب أبداً، يقلب السحر على الساحر في لحظة واحدة، وتبدو
المهزومة منتصرة به على طول الطريق:

- بقى كده يا ممدوح .. طب والله ما أنا قاعدة في البيت ده لحظة تانية.

همت بالرحيل فأوقفها قائلاً:

- خدي البت إلي جوهِ دية معاكي وقولي لأمها ملكيش أب لحد ما أعرف
بتعملوا إيه بالضبط .

أسرعت سارة بنت عزرا إلى حيث إستير ابنتها تسكن، لم تنتبه لليل بقدر
ما كانت تخشى من زوجها أن يفضح ذلك السر فتضيع جماعتها التي
أورثها أبوها لابنتها .. وحين وصلت التقطت أنفاسها، وأخبرتها بكل
ما حدث، لم تبد إستير (صفيناز بنت ممدوح) أي نوع من الاستياء لما
قالته أمها، قالت فقط: "بكره هيكون كل شيء انتهى"، بينما سارة قلقة
جداً كأنها تخشى من ابنتها على زوجها، شيء ما إنساني يجعلها خائفة
عليه، ربما عشرة السنوات الطويلة والفتها.

في اليوم التالي أعلن المسجد المجاور وفاة الحاج ممدوح عزت الأمين والبقاء لله، بدت الحاجة خديجة زوجته منهاره جدًا، في العزاء وحين انفض العزاء انفردت بابتها تجادلها في زوجها، ولم ينتبها أن ثمة من يسمعها من خلف الباب.

- بالسم يا ماما .. قتلته بالسم .. كنتي عاوزاه يفضحنا كلنا ويدمر إلي
جدي أفنى حياته فيه .. شوفتي عددنا وصل لكام .. مهمته انتهت وكان
لازم يموت.

الفصل الحادي عشر

جزيرة رودس - اليونان ١٦٢٣م

اليونان كلها غريبة بالنسبة لمردخاي، فقد قضى ما مضى يبحث فيها عن أرض خصبة لحياة جديدة، لكن لا جدوى من ذلك، تبدو بلاد عديمة الفائدة بالنسبة لتجارته حتى بعد ما جابها، حتى أثينا التي لم تكن مرحبة باليهود على إيه حال، بالطبع تنسم الحياة من جديد، بدا حراً أكثر وطائفته بدت تحيا حياة عادية، لكن تجارته المحدودة لا ترضى طموحه، تذكر قول أبيه والذي أعده حكمة قال له: "الدجاجة التي لا تبيض لا تترك أبداً لتأكل دون فائدة، لا بد من ذبحها فذلك أنفع"، بالطبع تردد ذلك القول في أذن مردخاي أكثر من مرة قبل أن يفكر في خطوة جديدة لحياته، خاصة أن فوعة مرتاحة جداً للحياة في رودس، فثمة صديقات كثر فيها وحياة الاختباء أضحت بعيدة جداً عنها، والنساء أميل للاستقرار من الرجال، لم تكن لترضى الزوجة برحيل آخر، لذا كان عليه أن يدبر أمره من جديد.

انطلق نحو الميناء يبحث فيه عن شيء جديد أو سبيل لتجارته المحتومة المصير، لكنه وقبل أن يصل لسفن التجارة أطلق خياله للبحر لوهلة بدا "زرد" البحر يلمع، والشمس أضفت عليه لوناً ملكياً، وأحس بين

جنباة كأن البحر ینادی، وللمرة الأولى أحس بما يحسه البحّارة، بدت لنفسه لحظة أنه یكره الأرض، أدرك حکمة أبیه أكثر حين تأججت فكرة الرحیل، وسمع بعض البحّارة یقولون إن السفینة الآتیة محملة بالبضائع من إزمیر، بدت حينها إزمیر أقرب إلیه من أي أرض، وسرعان ما هاجت مخاوفه، أرض الدولة العثمانیة.. هل یدعه المسلمون حرّاً فی أرضهم كما هو فی الیونان؟؟ ثم رجع لنفسه فقد عاش أجداده عمرّاً فی الأندلس، وكان منهم وزراء وتجار أقرب للحکام من المسلمین ذاتهم، فأی شیء یخافه؟، نسی ما أتى لأجله هذه الساعة، ورجع من فوره لزوجته:

- علینا أن نترك رودس.

- لأي شیء؟

- لا أظن أن تجارتي هنا لها مستقبل.

أطرت فوعة قلیلاً فیما تفعله من طعام، فطفلاها جائعان، تفكر فی حدیث زوجها كأنه ثقل جدید، لم یمر وقت طویل علی وجودهم فی "رودس"، توّا تعلمت اللغة، وتوّا بدت "رودس" كأرض المعاد تجوب طرقها، وتعرف بعض الصدیقات والأولاد یلعبون فی شوارعها دون خوف، أضحى مردخای ذاته حملاً ثقیلاً فی طیات نفسها، وتذكرت

ببعض المراتة كلمات أببها الحاخام حين أخبرها أن الزوجة التي لا تطيع زوجها تصحبها اللعنة من الرب أبداً، منطق البشر أحياناً يبدو سخيّاً لكنه منطقيّ، فوعة كانت تدرك أن زوجها قادر على فهم أمور التجارة أكثر، وبالتأكيد تحسست ضيق الرزق الذي ألمّ بهم:

- إلى أين؟

- جزيرة إزمير.

- أهى قريبة من هنا؟؟

- نعم ..

- حسناً .. عليك أولاً أن تمهد لنا فيها ثم ننتقل إليها حين تصنع ذلك.

- ماذا تعنى؟

- أعنى أن تسافر وحدك أولاً.

سكتت هنية وسكت هو أيضاً يحاول أن يفهم ما تقول، ثم سأله:

- أفيها كنيس لنا؟

- لا أعرف .. لكن بالتأكيد ثمة يهود فيها.

- أليست من جزر اليونان؟

- لا .. هى للدولة العثمانية.

- عفواً مردخاي .. هل تدرك ما تقوله؟

- نعم أدركه جيداً .. قضيت أياماً أفكر في الأمر .. إزمير هي مركز تجارة المنطقة، وفيها يمكنني أن أحقق ربحاً وفيراً.
- لا أعرف ما الذي تحبّاه لنا الأيام .. فليبارك الرب .. فليبارك.

جزيرة إزمير - تركيا - خريف ١٦٢٥م

من رحيل إلى رحيل، هكذا بدأت الرحلة لإزمير، هذا ما كان يردده مردخاي دوّمًا، تبدو كمطلع قصيدة طويلة، وهذا ما قاله للسيد ويل طومبسون وكيل "الشركة الإنجليزية المتحدة للدواجن والبيض ويل وشركاه"، فالיום سيوكل مردخاي ليكون الوكيل للشركة في إزمير، سيجعل ذلك مردخاي في خطواته الأولى يكوّن ثروة طائلة، فقد كانت نبوءته صحيحة عن إزمير، تلك الجزيرة التي حملت له خيرًا لم يكن بوسعه أن يتخيله يومًا، فأضحى مؤمنًا بمقولة "إن من عتمة الظلمة يأتي النور"، أما عن فوعة فقد بدت مرتاحة في إزمير أكثر من رودس، حيث نساء اليهود فيها أكثر، والحياة فيها أكثر هدوءًا حتى مردخاي نسي بصاق الناس عليه في رودس، وأضحى متعاشيًا جدًّا مع كونه صاحب كرامة بين البشر، وإن كان يهوديًا بوسعه أن يلبس زي صلاته في شوارع إزمير، ويزور الكنيس متى شاء:

- مرحباً بك سيد طومبسون .. تبدو الرحلة شاقة.
- كانت كذلك فعلاً.
- أرجو أن تقبل دعوتي على العشاء الليلة في منزلي المتواضع.
- أحياناً أشك يا مردخاي في كونك يهودياً.
- هذا ما أسمعه دوماً.
- أضحكت الدعابة طومبسون جداً، وطمأنت مردخاي على فرصته ليكون وكيلاً للشركة، أخرج طومبسون "غليون" وبدأ بإعداده بينما يتحدث مردخاي عن بنود العقد بينهما:
- أما بالنسبة للبند الثاني عشر يا سيدي فلا يبدو مريحاً بالنسبة لي.
- نحن شركاء مردخاي في الربح والخسارة هذا شرط أساسي.
- لا أنفعل بكلمة الخسارة سيد طومبسون.
- بالطبع لا أحد يحبها .. لكنك أبعد ما تكون عنها .. أنت موهوب في عدم الخسارة.
- هذا إطرأ يستحق الشكر.
- حقاً مردخاي أنت معجزة .. صرت من كبار التجار في إزمير في أقل من عامين فقط.
- شكراً للمرة الثانية.

أخرج طومبسون مندلياً من جيبه ليجفف عرقه، واحتسى بعض الماء،
لوهلة تردد بين طيات نفسه في توقيع العقد مع مردخاي، لكن سرعة
بديهية مردخاي أدركت ذلك فأسرع بسؤاله عن رحلته القادمة:

- إسطنبول.

- هذا رائع جداً.. تبدو متعباً سيد طومبسون.. ما بالك لو ترتاح قليلاً.

- هذا أفضل.

- لكن ليس قبل أن نحتسي بعض النبيذ الهولندي.. أهداني إياه صديق
مقرب، على صلة بقصر أمير أورانيا شخصياً.

- هل يطلب الكثير من البضائع؟

- بالطبع.

- حسناً مردخاي لنوقع العقد الآن.

الحاج عبد العزيز الطحان، والذي يمثل القوة الاقتصادية الكبرى
بالجزيرة والمحترق الأول لتجارة الأقمشة والملابس والخردوات، يعد
إحدى العقبات أمام مردخاي وغيره من اليهود، حيث لا يسمح أبداً
بتوسع تجارة أحدهم عن حد ما معين، لذا على مردخاي أن يصنع تجارته
السوداء ليحبي منها المال بما لا يخالف شريعة التوراة، أو يُغضب منه

الحخاميون، ودومًا تكون الإجابة بالنسبة لأي يهودي هي الربا " المال
يجلب المال"، حكمة اليهود الأبدية لتجارة لن تبور أبدًا، في ذلك السر
تكن قوة مردخاي، الكل يحتاج للمال والتجار أحوج للمال من غيرهم
والدين ذلة البشر، وللحاج عبد العزيز الطحان نقاط ضعف، إحداها
الجواري واللائي لا ينتظرن أبدًا المال حتى يحضر، فالنحاس يأتي بهن
ويرحل عن الجزيرة لبلاد أخرى.

- خمسمائة قطعة ذهبية يا حاج هذا كثير.

- عزيزي مردخاي هذا لأيام فقط .. بضاعتي آتية قريبًا من الهند، ربما
أسبوعين على الأكثر.

- ولأي شيء تحتاج ذلك المال؟؟ الأولى أن تنتظر.

- مردخاي أيها الطبيب .. طرأ شيء لا ينتظر.

- آه .. تقصد النحاس الذي قدم أمس للسوق؟؟

- تعرف كل شيء .. معه جارتان (لوى شفتيه بما يفيد أنه مفتون بهما) ..
ولا يرضيك أن تضيعا.

- وكم ستضاعف المبلغ يا حاج؟

- مردخاي .. قلت لك أيام فقط .. لا تكن يهوديًا.

- أنا يهودي فعلاً.

- كم تريد؟
 - ضعف المبلغ.
 - لا لا.. هذا كثير .. آخذ خمسمائة أعيدها ألفاً؟؟!!
 - هذا ما لدي .. وإلا انتظر بضاعتك.
 - سبعمائة وخمسون؟؟
 - ألف.
 - ثمانمائة؟؟
 - ألف يا حاج .. لا تحاول أن تنقص منها.
 - أنت يهودي جداً .. حسناً هات المبلغ، ولكن على شرط .. هذا سر بيننا لا أحد يعرف شيئاً عن ذلك.
 - حسناً.
 - مردخاي .. لا أحد.
 - حسناً.
- انصرف الحاج إلى نخّاسه مهرولاً، ولم يكن ليعلم أن بضاعته المنتظرة قد ابتلعت في البحر. وصل الخبر للجزيرة بعد أيام خمسة، لم يكن مردخاي ليفرح لأكثر من ذلك الخبر، فهذا سيجعله ينال حظاً من رباه أوفر من الألف قطعة، فالحاج عبد العزيز الذي لا يملك في خزانته خمسمائة قطعة

ليس أمامه سوى أن يفرط في أحد حوانيته وهذه فرصة مردخاي لا شك:

- مرحبًا مردخاي.
- أهلاً يا فوعة .. كيف حال الأولاد؟
- يلعبان في الباحة .. ما تلك البشاشة على وجهك تبدو سعيدًا جدًا.
- نعم .. أنا سعيد جدًا.
- وما السبب يا تُرى؟
- ها ها ها .. لا تخافي لن أتزوج مرة ثانية.
- كف عن هرائك.
- ها ها ها .. بضائع الحاج عبد العزيز غرقت في البحر.
- حقًا .. وكيف سيعيد المال إذن؟
- لا تخافي .. هذا خبر سار .. هذه فرصتي يا فوعة .. فرصتي ساقها إليّ الرب.
- أهكذا يضيع مالنا؟
- عقول النساء .. أقول لك فرصتي .. وتقولين يضيع المال!!
- حسنًا .. طالما هذا يسعدك .. لدى خبر آخر قد يسعدك.
- ماذا؟

- أنا حبلى .
- هذا المولود مبارك .. هذا المولود سيكون حسن الحظ جدًا .
- هل أنت سعيد؟
- طبعًا .
- ظننت ذلك الخبر سيحزنك .
- كيف يحزنني؟! .. إنها هدية من الرب .. الحياة تبتسم في وجهنا يا فوعة .

الفصل الثاني عشر

إزمير - سنة ١٦٢٦م

- مرحبًا بك مردخاي العزيز.
- أهلاً سيدي الحخام إسحاق .. مبارك ذلك اليوم لأراك في صباحه الباكر.
- مبارك أنت مردخاي .. لقد أتيت اليوم أحدثك في أمر مهم جدًا .. ليتنا نكون وحدنا.
- تفضل إذن من هنا .. هذا المخزن معزول تمامًا.
- أليس هذا حانوت ذلك الطحان تاجر الأقمشة؟
- نعم كان كذلك.
- مبارك عليك.
- ما ذاك السر سيدي؟
- المدرسة اليهودية مردخاي .. ساء حالها جدًا .. لا أحد يهتم لأمرها، وبدأ اليهود ينفرون منها ويدخلون أولادهم مدارس المسلمين، أنت تعرف أي أخشى على ديننا، فلولا تلك المدرسة ما تعلم أحد من اليهود.
- آه .. بالطبع .. وماذا ترى سيدي الحخام؟ وما سبب ذلك؟

- السبب في ذلك التدهور بعض المتشددین، وعدم الاهتمام بمرافق المدرسة والطلاب، ألم يشتك أولادك من ذلك؟
- في الحقيقة نعم .. لكن تعودنا أن نكتم أمرنا، وكنت على وشك أن أحدثك في الأمر.
- لن يكون ذلك دون مساعدة من أغنياء اليهود، فذلك يحتاج للمال الكثير.
- أنا لم أتأخر يوماً.
- بوركت مردخاي بوركت.

١ أغسطس ١٦٢٦م

مردخاي قلقاً يكاد قلبه ينتزع من ضلوعه، فاليوم يوم ولادة فوعة، بدت ضعيفة جداً في أيام الحبل الأخيرة، وأوصاها الطبيب بأن تلزم الفراش طيلة تلك الأيام قبل الولادة، البيت أضحى خراباً، والأولاد مهملون، وحالة فوعة الصحية ليست بخير ولولا صلوات الحاخام جوزيف إسكابا، الذي كان يزوره كل يوم وزيارة زوجته المباركة لما مرت تلك الأيام الأخرى، لم يعد بال مردخاي مشغولاً بشيء سوى ولادة زوجته، حتى أن بعض المدينين له طلبوا تأجيل رد الدين فوافق دون زيادة على

المبلغ عند الرد، ولم يدرك سوء ما فعله إلا بعد ذلك بساعات، طال الانتظار، ولم يأت خبر ولادة زوجته، بدا الليل قريباً جداً، ولم يسمع بشيء بعد، يخشى على زوجته كما يخشى على الطفل، وبحلول عتمة يوم السبت ١ أغسطس، حضر المولود المنتظر، ورغم تعب فوعة التي كادت تموت، فرح مردخاي بصبيه، ولم يكن ليفكر باسم له فقد جرت العادة بأن يسمى وليد يوم السبت شبثاي، أمسك صبيه الذي نجا ونجت أمه من ولادة متعسرة، ورفع أمام نسخة من التوراة، وباركه ونادى باسمه أمام الشمعدان المشتعل: "شبثاي بن مردخاي تسيفي".

سرعان ما حضر الحاخام جوزيف إسكابا لبيت مردخاي في اليوم التالي يهنئه على مولوده، ويخبره بأن ولده هذا مبارك جداً، وأنه سيعرف أن لولده هذا مقاماً عالياً عند الرب، وأوفى مردخاي يومها بوعده للحاخام، فقد أخبره بأنه سيهب المدرسة اليهودية ألف قطعة فضة يوم مولد صبيه، ففعل فأخبره الحاخام أن عليه أن يهتم لأمر مولوده هذا:

- لقد شاهدت رؤيا يا مردخاي.. لولدك هذا مقام رفيع بين أبناء أمتنا.. عليك أن تعده ليصبح حاخاماً.

تهللت أسارير مردخاي لسماعه ذلك، وكأنه قد قابل حديث الحاخام بصدق نية لديه، فقد عهدت فوعة بأن تجعل من وليدها حاخاماً يخدم

شعب الرب المختار، ويرفع راية التوراة في أمته، فذلك وعد وعده أباهما
الحاخام قبل وفاته، ليكمل وليدها من بعده مسيرة جده الحاخام.
فرحت فوعة حين قص زوجها عليها ما قاله الحاخام إسكابا، ضمت
طفلها لصدرها طويلاً، وحاك في نفسها شيء ما، وشردت بعقلها قليلاً
في صورة موسى النبي المعلقة على الحائط، وقالت بصوت غير مسموع:
"عله هو"، وزرفت بعض دمعات ثم غلبها النوم.

قبل عشرين عاماً

حضر الحاخام حبرون إلى منزله مبكراً جداً عن مواعده، لم يبدو عليه
التعب، لكن ثمة شيئاً ما غامضاً أعاده للبيت، بدا سعيداً بعض الشيء،
متخوفاً بعض الشيء، مرتاباً جداً، جلس على الكرسي الأقرب لباب
بيته، كأنه بحاجة لالتقاط أنفاسه، ينظر لسقف بيته، ويرفع رأسه
كمريض ربو يتلقف أنفاسه بصعوبة، نظر لبعض آيات التوراة المعلقة
على الجدار كلوحة بالعبيرية مزركشة، وتبسم أكثر حين لحظته زوجته
فأقام نفسه متثاقلاً من كرسيه، وأخذها من يديها للغرفة، قلقت لذلك
فليس هذا بعهد زوجها الحاخام، ثمة شيء ما مريب جداً، كانت تنساق

خلفه بينما يقبض على يدها بشدة، أغلق باب الغرفة، وتأكد ألا أحد من أطفاله بالخارج:

- ما بالك حبرون؟

- اسمعي سأخبرك سرًا.

- أكل ذلك من أجل سر؟! .. لا لا .. دعني أعد الطعام للبنات أولاً.

- انتظري فقط .. رأيت أمس رؤيا .. كنت متخوفاً منها فهرولت باكراً للحاخام كوهين فأخبرني ببشرة خير .. قال إن "الماشيح" المنتظر سيخرج من نسلي.

- حبرون .. لم تنجب سوى بنات فقط!!

- صدقيني .. لقد أوشك أن يطير فرحاً وهو يفسر لي حلمي.

- وما كان ذلك الحلم؟

- قال عليّ ألا أخبر أحداً به .. هذا سر الرب وأنا أحفظه.

ظل سر حبرون سرًا حتى قصه لابنته فوعة قبل زواجها بساعة واحدة، وظل آملاً في تحقيق تلك الرؤيا حتى مات، وتابعت من بعده ابنته الانتظار، ولكنها كتمت أمرها حتى عن زوجها، وقد أصرَّ أبوها على ألا تتزوج إلا من نسل من تنطبق عليه صفة "الماشيح" التوراتي .. فكان مردخاي تسيقي.

مارس ١٦٣٢م

- أهلاً شبتاي الصغير .. كيف حالك بني؟
- يمد الطفل يده مخرجاً لسانه كما يصنع الأطفال خجلاً، يسلم على الحاخام جوزيف إسكابا، تلك هي الزيارة الأولى للمدرسة اليهودية لشبتاي، لا يزال خائفاً من المكان ممسكاً بيد أبيه، فيومه الأول ليس هيناً كأى يوم أول بالنسبة لطفل في المدرسة.
- هذا باكراً جداً يا مردخاي.
- هذا رأي زوجتي فوعة .. عليه أن يبدأ الآن التعلم.. ترى أن ست سنوات كافية.
- لزوجتك رأي حصيف .. حسناً ليكن ذلك .. سأוכלه لعزرا معلم جيد جداً يعلمه العبرية وبعض الأشياء الصغيرة.
- شكراً لك سيدي الحاخام.
- مردخاي .. نحن لا ننسى أبداً سعيك لمساعدتنا لتعلم أبناء اليهود.
- هذا واجبي.
- ليجزيك الرب على صنيعك.

جامعة القاهرة – فبراير ١٩٩٨م

تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها جامعة القاهرة، آسف لأنني لن أرى أركانها كبقية طلبة العلم، لن أجرب فيها روح طلاب الجامعة، لم أعرف تلك الروح يومًا، فقط الانضباط واختلاس النظر والضحك هو ما أعرفه، طوابير الصباح و"ميز" الأكل وطاعة الأوامر، كم فقدت من لذة الحياة!! ذهب ربيع العمر سدى بين "صفا وانتباه" والآن أتחסس طريقي نحو الجامعة، تقودني عصا أتחסس بها الطريق:

- لو سمحت مدرج ستة ألف فين؟

- في قسم الدراسات العبرية؟

- آه.

- آخر الكوريدور يمين.

- شكرًا.

- مش عاوز مساعدة؟

- شكرًا.. مفيش داعي.

لألعب لعبتي المفضلة صاحبة ذلك الصوت العذب تُرى كم عمرها؟؟

لنقل أربعة وعشرون، مشدودة الخصر، تميل للامتلاء.. هل ترتدي

نظارة؟ لا أظن.. ربما.. هل ترتدي حجابًا أم لا؟ أظنها كذلك نبرة

صوتها الهادئة تقول ذلك، انتهى "الكوريدور" أين باب المدرج؟، لا أحد لأسأله.. قالت على اليمين هذا هو المقبض.

- بتدور على حاجة يا أستاذ؟

- آه.. عاوز أدخل المدرج.

- ستة ألف؟؟

- آه.

- تعال من هنا مش من عندك.

فُتح باب المدرج، وبدأ صوت الطلاب يظهر، يتهايمسون فيصبح صوتهم كالذباب الذي أعرفه جيداً، تأخر الدكتور مجدي عن محاضرتة هذا واضح بالطبع، بالكاد وجدت طريقي للمدرج، وبالكاد سمحت إحدى الأنسات لي بالجلوس، طلبت منها أن أجلس في آخر المدرج كي لا يلحظني أحد، لا أعرف لم يلازميني هذا الشعور بالخجل الدائم من عملي أشعر أنني أمشي عارياً بين الناس، أحاول أن أداري سوائي فلا يراها أحد، فما بالك إن كانت تلك السوءة هي عياني، أخفيهما بنظارة شمس من نوع ممتاز، رغم أن الجميع يقول إن عينيّ تبدوان سليميتين، أو كأنهما كذلك، لكن ذلك لا يرقى أبداً لقناعتي، صمت الهمس، وظهر صوت حذاء يدق أرض منصة الشرح، وصل الدكتور مجدي أحمد كامل

أستاذ الدراسات اليهودية، والذي قصدت عمداً حضور محاضراته.. هذا سيخدمني كثيراً في فهم الأمور بشكل أوضح، ظهر صوت غريب كأنه يخرج شيئاً من حقيقته.. أوراق كثيرة أظنها كذلك مع بعض الأقلام.

- أهلاً بكم يا أساتذة معلى إناخرت عليكم شوية .. أصل كان عندي محاضرة قبلكم عشان كده معلى سمحوني صوتي مرهق شوية .. غريبة فيه وشوش جديدة معانا هنا .. ما شاء الله المدرج ملىان، طيب هتحاول نعلي الصوت، كنا هنتكلم عن إيه النهارده؟ آه .. حد فاكرو؟
ظهر صوت غريب بين الحضور قال: "المسيح" .. انتبه له الدكتور مجدي جداً لكنه لم يلحظ من قال تلك الكلمة، ولم ينتظر حتى يعرف القائل تحديداً.

- لا .. إالى محضرش المرة إالى فاتت ما يفتيش، إحنا فرقنا كويس ما بين السيد المسيح والماشيح التوراتي .. فاكرين؟ .. الأستاذ إالى لابس نظارة هناك ياريت تقلعها أظن الشمس مش قوية فى المدرج ولا إيه؟؟
ضحك بعض الحضور لسخريته، لكن البعض كان يعرف سر النظارة دون أن أبوح به لهم، لا أعرف لم ارتسمت على جبينى ابتسامة بلهاء، لم أعد ألحظ وجهي منذ أصبت بالعمى، بدوت على خلاف مع وجهي،

- ثمة طلاق بيني وبين عضلاته، فلا أستطيع أن أرسم الابتسامة أو
العبوس متى شئت، ثمة شيطان آخر قد سكنه:
- من فضلك اقلع النضارة أو اخرج من المحاضرة.
 - من فضلك يا دكتور.
 - محبش حد يتكلم وأنا بتكلم.
 - عاوز أفسر لحضرتك أنا لابس ليه النضارة.
 - من فضلك إنت.
 - .. أنا أعمى.

صمت المدرج حين نطقت بذلك كأنني صفعت من ضحك منذ قليل
دون أن ألمسه أو أقوم من مكاني، يبدو كانتصار، لكنه انتصار خائب،
بعض المعارك خسرتها يتساوى مع الانتصار، هذا ما تعلمته في كلية
الشرطة.

أسف .. أنا أول مرة أشوفك معنا هنا .. من فضلك تعالى لي بعد
المحاضرة.. في مكتب العميد ولو متعرفش الطريق خللي حد يدلك.

الفصل الثالث عشر

فبراير ١٦٤٠م

- لا يتزوج الكاهن العادي من العاقر إلا إذا كانت له زوجة وأبناء، يقول رابى يهودا: بأنه وإن كان متزوجاً وله أبناء لا يتزوجها، لأنها الزانية الواردة في التوراة (المشنا سفر نشايم "التلمود البابلي أحكام النساء") .. في أي سفر هل تذكر يا شبتاي؟

- نعم سيدي الحاخام اللاويين (٢١: ٧) .. لكن سيدي أريد أن أقول بأن وصفها بالزانية فيه بعض التجني أليس كذلك؟

- شبتاي أتعبتني، تسأل أكثر من أن تسمع، هي زانية قطعاً إن كانت متهودة (تحولت للديانة اليهودية) أو محررة أو زانية بالفعل.

- سيدي هل كل متهودة زانية؟

- الجدل يا شبتاي .. هذا كاف لليوم .. اكتفيت.

همّ الحاخام بالخروج من مجلسه، ثم وقف قليلاً قبل خروجه، والتفت نحو تلميذه النابغ وقال:

- أسمع عن الحاخام إسحاق دالبا؟

- نعم .. السيد الحاخام له دروس وتعاليم يحضرها كبار الحاخامات.

- حسناً .. سأحدثه بشأنك.

- حقًا.

- أنت تستحق أن تنضم لدروسه .. تبدو مستعدًا لذلك.

- هذا يسعدني كثيرًا .. شكرًا سيدي.

تهللت أسارير شبتاي.. بدا مقتربًا من السماء، فرحًا بذلك، فمجلس
الحاخام لا يحضره سوى من عمدوا حاخامات فعلاً، وحضوره بينهم
شرف حلم به كثيرًا، بدا الطريق لإعلانه حاخامًا قريبًا جدًا، فأخواه
للذان عملا بالتجارة مع والده قد ساعده على أن يتفرغ للدراسة
والتعلم ليصبح حاخامًا ذا شأن.

بدا اليوم التالي لشبتاي كحياة جديدة يخطو خطواته الأولى ليكون بين
الكبار، بالأمس أجلسه الحاخام جوزيف إسكابا مع الحاخام إسحاق
دالبا رغم خلاف مدرسة دالبا عن مدرسة الحاخامين التي ينتمي لها
الحاخام إسكابا، بدأت نقلته النوعية تغير أشياء فيه دون أن يدرك ذلك
الصبي صاحب الخمسة عشر عامًا، الذي في طريقه القريب ليكون
حاخامًا يفتي الناس في حياتهم، وتطأ له الرؤوس، منتظرة البركة،
ويؤم الناس في الصلاة، ومن حقه أن ينطق اسم الرب الأعظم (يهوه) في
أيامه المقدسة، أن تكون مهمًا في قوم، هذا عبء نفسي لا يطاق يغير من
نفسية البالغين والشيخوخ.. فما بالك بنفسية صبي؟!، لا أتحدث عن الكبر

الذي قد ينخر في نفسه، بل اعتقاده الذاتي بالقداسة والتوحد مع تلك
الفكرة خاصة حين يؤكدها المحيطون به، ولو بشكل غير مباشر، علاوة
على الشعور الذاتي بالقداسة، الذي يُصاب به رجال الدين، فيُصَيَّرُونَ
من أنفسهم بشرًا فوق العادة، عن تجربة أقول لك لا تقع في ذلك الفخ
أبدًا، لا تصنع من نفسك قدسًا، ولا سلطة، كل ذلك يؤدي لطريق
واحد.. فقط العمى.

جامعة القاهرة – فبراير ١٩٩٨م

- الصوت لو سمحتم.. عيب يعني أقول كده .. طيب نكمل بقى .. قولنا
في المحاضرة السابقة إن المسيح أو "المسايا" هي كلمة عبرية تعني
المخلص .. وطبعا إحنا عارفين إن الشريعة اليهودية نزلت على جزئين:
الأول كان مكتوب، وده كان الأسفار الخمسة الكبار، أو أسفار موسى
النبي واللي هم التكوين والخروج واللاويين والعدد والثنية، وشريعة
ثانية شفوية، وحرمت كتابتها طبقًا لما ورد في التلمود سفر "جنقطين"،
والذي يعنى الطلاق "إن الذي يلقي إليك مشافهة ليس من حَقك أن
تكتبه"، وظلت لا تكتب إلى عهد يهودا هناسي الذي كتب المشنا أو
التلمود وصارت مكتوبة، في الشريعة الشفهية دية اليهود بيؤمنوا إن فيه

مسيحيين وليس واحد هياتي، واحد مبشر ومهد للثاني، وهيخلص اليهود ويرجعوا لأورشليم، ويبنى الهيكل من جديد ويسيدهم على الأمم، في حين إن فيه رأي ثاني يقول إن المسيح المخلص واحد فقط، وده رأى إلی آمنوا بيسوع المسيح (عيسى النبي) طبقاً للمعتقد بتاع الأناجيل المعتمدة، كده هنبتي نتلخبط صح كده .. تعالوا نقسمها نقاط بشكل علمي عشان نعرف إيه سبب الحركة دية كلها:

- أولاً: هامش التوراتي اثنان وليس واحدًا، هياتي مسيح يبشر بآخر الأول من قبيلة إفرایم بن يوسف النبي ويبشر بآخر وهو من نسل داوود الملك.. لما قدم يسوع المسيح آمن به بعض اليهود وتأمر عليه آخرون وأنكروا نبوته.. بالتالي اليهود لحد النهارده منتظرين "الماشیح" وفيه صفات لیه متمسكين بیها.. فيه ناس بتقول إنه هياتي بتوراة ثانية غير إلی معاهم وشريعة ثانية.

نرجع لموضوعنا تعالوا بقى نحكي قصة كام واحد ادعى إنه "الماشیح" أو المهد للماشیح خلال سنوات ما بعد عصر السيد المسيح عيسى عليه السلام وده طبقاً لدائرة المعارف اليهودية.

- سنة ٤٤م يعني بعد المسيح بحوالي خمس سنوات أو ست سنوات جه واحد اسمه ثيوداس في الأردن وادعى إنه نبي، وآمن به بعض اليهود،

ودعاهم إنهم يتبعوه لنهر الأردن ليشقه كما فعل موسى بالبحر، لكن مع
الأسف الحاكم الروماني بعث جنوده قتلوه وقتلوا إلي معاه وأسروا
الباقى، وكانت مذبحة يعنى .. عيب محدش يضحك.

أزمير ١٦٤٠م

- أليشع .. أليشع.

- ماذا؟

- انظر أخاك شبتاي قادم.

- يبدو وسيما في زي الحاخام، وجدائله تزين وجهه.

- لم أره أبداً ينظر للنساء.. ألم يبلغ السادسة عشر؟

- أنت أبله يا يوسف .. دراسة التوراة تشغله، وبالطبع ترقى من خلقه.

- ترقى من خلقه! .. هو آت ليطلب المال على كل حال.

- أهلاً أهلاً سيدي الحاخام (قال يوسف).

- أهلاً أخي يوسف .. كيف الحال؟

- بخير طبعاً .. طالما بركتك تحل علينا وصلواتك.

- كيف حالك أخي أليشع؟

- بخير شبتاي .. بخير.

- تبدو حزينًا.
- ابنتي هليل مريضة .. ليتك تباركها.
- بالطبع .. أين أبي؟
- ذهب للميناء، ثمة شيء ذهب لأجله لم يخبرني، سره دومًا مع أليشع .. يا للنساء في هذا السوق. انظر يا شبتاي لتلك التي تتمايل هناك.
- (لم يلق بالآ لحديث أخيه اكتفى بالابتسام وتوجه بالحديث لأليشع):
- أليشع .. أحتاج لبعض الكتب.
- بالطبع .. اكتب لي أسماءها وسأطلبها لك من إسطنبول كالعادة.
- لا لا .. أريد المال لها فقط لا حاجة لطلبها.
- حسنًا .. ولكن انتظر حتى يرجع أبوك.
- (أتى زبون لحق به أليشع وترك شبتاي مع أخيه يوسف مهلاً به .. كان يقول أهلاً حاج علي).
- رأيت بالأمس تمار .. كانت تسأل عنك كثيرًا.
- من تمار؟
- بنت زكار.
- أنت تهتم كثيرًا بتلك الأمور.
- وأنا أراك لا تهتم بأي شيء من تلك الأمور .. أبك شيء؟

- أخى يوسف .. سأرحل وحين يأتي أبى أخبره بطلبي.
(أسرع شبتاي بالرحيل، وبينما يقول يوسف له: "كما تشاء"، ثم أتبعها
بهمس قال فيه: "هذا الفتى به شيء"، يقصد مرض يمنعه الاجتذاب
للجنس الآخر).

فى الكنيس اليهودى اقرب الحاخام إسحق دالبأ من تلميذه الواعد
شبتاي قائلاً:
- القباله.
- ماذا؟
- القباله شبتاي .. هذا ما تبحث عنه فى ذلك العلم ستجد إجاباتك كلها.
- سيدى الحاخام إسحاق .. أليست من العلوم المحرمة؟
- هذا ما يقوله بعض الحاخامين فقط .. الأمر يرجع لك.
- دعنى أفكر فى الأمر سيدى.
- ستندم على تفكيرك بالأمر فيما بعد.
- حسناً سيدى .. طالما ترى ذلك .. لطالما تطلعت إلى دراستها.

جامعة القاهرة ١٩٩٨

أنا بقول ليه بلاش نضحك .. في كل عصر وفي كل وقت وفي كل الأديان بيخرج المهاويس بفكرة النبوة .. يعني مثلاً كام واحد ادعى إنه المهدي المنتظر، وكام واحد ادعى إنه نبي، وكام واحد ادعى إنه صاحب كرامات .. حتى في الأديان غير الأديان الكتابية أو الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام كام واحد مثلاً قال إنه بوذا، فيه كام بوذا في البوذية، طول ما فيه مهاويس هيظهر الناس دية، وحالات البارانونيا إيلي بتزيد دايمًا خصوصًا في المجتمعات إيلي على درجة ضئيلة من الوعي، وأحيانًا في المجتمعات المتقدمة، يمكن ده إيلي دفع واحد زي المتنبي لادعاء النبوة مثلاً رغم إنه أشهر شعراء عصره ... عاوز أقول بالمختصر إن طول ما الناس منتظرة المخلص والمهدي والفارس إيلي هيقتل الشيطان، والقائد الأسطوري هيفضل عندهم القابلية لتصديق أي حد يدعي إنه واحد من المنتظرين دول، زي الناس إيلي بتروح للدجالين، رايحين عندهم الاستعداد الكامل لتصديق الدجال وساعتها بيتساوى المتعلم وغير المتعلم، العقل المحتاج هيخضع لأي خداع لدرجة إن يوم ما بيجي أنبياء صادقين بيتصدم الناس إنهم أشخاص عاديين فيكذبوهم تخيلوا، يعني مثلاً كم نبي إتقتل؟ حد يعرف هنا؟ ..

ولا حد يقدر يقول ومين فيهم الصادق أو الكاذب الموضوع مشكلة
حقيقية ... للمرة الثانية الأستاذ أبو نضارة من فضلك خليك معنا هنا،
وبلاش تقعد تهش دبان بإيدك مفيش دبان في القاعة.
- آسف يا دكتور بس دية لازمة عندي .. بدون قصد.

الفصل الرابع عشر

أزمير - ١٦٤٤م

- اليوم شبتاي لا شيء يسع فرحتي .. حتى قلبي الضعيف يكاد يتمزق فرحًا.

- لا تقولي ذلك يا أمي .. هذا يفطر قلبي.

- بارك الرب في قلبك يا بني .. أقصد سيدي الحاخام.

- بارك الرب فيك يا أمي.

- اليوم شبتاي سيسعد جدك كثيرًا .. لقد صدقت نبوءته وصار أحد أحفاده حاخامًا في سن باكر .. حاخامًا مؤهلاً، ومعرّف له بالأستاذية أيضًا.

- هذا ببركتك أمي.

- شبتاي .. جاء الوقت لأخبرك بسر حفظته ليومنا هذا.

- ما هو؟

- في صغري رأى أبي رؤيا .. قال تفسيرها إن "الماشيح" سيكون من نسله .. ليس لي إخوة وأنت شبتاي .. أمني أن تكون أنت هو .. قضيت حياتي كلها أحلم بذلك اليوم لأخبرك بهذا السر .. لا أحد يعلمه حتى

أبوك فاحفظه لنفسك حتى يظهر لك ذلك الأمر .. ولا تنساني يا بني
ببركتك إن كنت بقيت على قيد الحياة أم لا.

- لا تكرر ذلك يا أمي رجاء .. قولك هذا يؤلمني كثيرًا.

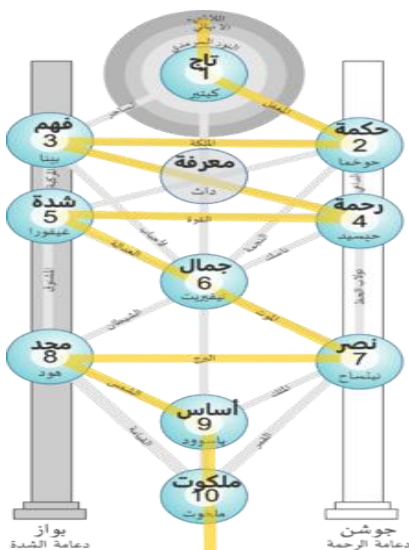
- يا بني الإنسان مهما بلغ من عمر سيموت يومًا .. أما أنت فحي في قلوب
اليهود جميعًا ينتظرونك منذ آلاف السنين .. منذ انقطاع النبوة أيها المبارك.
مضى شبتاي بعد كلمات أمه تلك يفكر في شيء واحد: هل ما تقوله أمه
صديق أم أن هلاوس مرضها المشتد يجعلها تقول ذلك دون أن تعي؟؟
.. الأيام تهلك الكثير من البشر .. كم عانت تلك المرأة في حياتها!! أي ألم
من هذا العالم الخبيث يجعلها تئن طوال الليل!! .. إن هذا العالم شرير ..
قاسٍ لا قلب له ليرحم الضعفاء أبدًا أو يستشعر نبض الorphans!! ..
ماذا كانت ستفعل الملائكة إن أقاموا تلك الحياة بدلًا منا ويعرفون كم
هي مؤلمة؟؟ .. كل يوم تقتل شيئًا فينا وتتصنع البراءة كأنها لم تفعل شيئًا
.. هل سيقون على حبهام لها أم سيلعنونها كما نفعل؟ .. فليأت
"الماشيح" في أقرب وقت.. إذن من سيخلص اليهود من برائن اللعنة
فليسرع في القدوم.. كفى ما انتظرناه من آلاف الأعوام فليأت المخلص
.. فليأت قبل أن تموت تلك المسكينة في فراشها من ملل الانتظار.

جامعة القاهرة - ١٩٩٨م

أيضاً اليهود لجئوا لبعض الحيل عشان يسرعوا من ظهور "الماشيح" أو حتى المبشر به، لدرجة إنهم لجئوا للقبالة أو الكبالا كما تنطق بالعبرية، والقبالة هي شروحات فلسفية وروحانية، وهي أحد علوم الخاصة اليهود، واللي فضلت سر كبير لحد النهارده، لأن ليها ممارسات غريبة اليهود أنفسهم قالوا عنها إنها شر وكفر .. الكلمة ترجع للفظة (قَبْل) وتعني الاستلام أو التلقي، ومن دلالة الكلمة إنها أمور أيضاً شفوية تعلمها اليهود ولم تكتب إلا في كتاب اسمه (الزوهار) .. وده منسوب لخاص اسم شيمون بن يوشع، وهو مش كتاب بالمعنى الصحيح يعني مفهوش وحدة للموضوع يعني تجد فيه بعض التفسيرات للتوراة وبعض الأمثال والقصص وبعض الطقوس الغريبة واللي بتنسب إنها أعمال سحر حقيقي والغرض منها إحداث تغيير في العالم، وبعض المؤرخين العرب يقولوا إن ده أصله سحر هاروت وماروت الوارد ذكرهم عندنا في القرآن لكن اليهود يقسموها لدرجات:

- أولاً القبالة النظرية .. ودية بتهمم بالتعريف للرب وشرح ماهيته.

- والقبالة التطبيقية.. ودية الغرض منها الوصول للرب والاتحاد به ..
ودية ليها طقوس توبة غريبة شوية ممكن يعوروا أنفسهم أو يجلدوا
نفسهم أو أي شيء ليعبروا عن التوبة.
- وأخيرا القبالة السحرواتية.. ودية باينه من اسمها إنها متعلقة بالسحر
وزي ما قولنا بتحدث تغيرات في الملكوت المادي والروحي.
- بعد بن يوشع جه الحاخام لوريا وبدأ يدي تفسيرات للكونيات وسمها
الفيوض أو (السيفروت)، وده تفسير لطرق الاتحاد بالإله وصفاته إلی
هي منافية لصفات الإله طبعًا عندنا في الإسلام.. لذلك ده شرك بيّن
بالنسبة لنا عشان كده مش هنخوض فيها، لكن عمومًا هو قسمها
لشكل كده هتلاقوه في الكتاب (الشكل التالي):



أزمير - ١٦٤٦م

انطلق الحاخام شبتاي تسيغي في حقول أزمير كعادته مع طلابه يناقشون بعض الأمور، بينما يتنزهون في الحدائق أو ربما ذهبوا للبحر جميعاً للاغتسال كعادتهم مرة أو مرتين بالأسبوع.. تأثر كثيراً بفكر فلاسفة اليونان في تعليم تلاميذهم، وكالعادة أيضاً كان "الماشيح" دائماً حاضراً على رأس قائمة نقاشاتهم وبالرياضيات الروحية كما يطلق عليها كان دوماً يشير شبتاي بقرب ظهور "الماشيح" المخلص، وينصح طلابه

بالصيام والصلاة والنسك لأجل ظهوره، هو ذاته شبتاي يحرص على ذلك ويلزم نفسه على هذا أيام طوال، أما بالنسبة للنساء فبدا زاهدًا تمامًا كلما عرضت عليه فكرة الزواج من أمه أو من أبيه أو إخوته.

- يوشع .. ألم يبدو لك الحاخام في حال غريب حين يحضر عزرا؟؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد هذا الوقت الطويل الذي يقضونه سويًا.

- تبدو في عينك خبث بقولك يا شيمون .. هذا أستاذك لا تنسى.

- أستاذك منحرف قليلًا.

- اخفض صوتك .. سيسمعك.

- فليسمع .. إن كنت تثق في الحاخام فأنا متأكد من انحراف عزرا.

١٩٩٨م - بيت الضابط أحمد - القاهرة

ليس بوسعي أن أحدثك عن عمالي، الأمر أعقد من أن يشرح بالكلمات، لكن للمرة الأولى أحس بفراغة نفسي يوم وقع ذلك المرض بعيني، علمت حينها أنني قضيت حياتي كفخارة فارغة من كل شيء، لذا لم أكن أسمع صوتًا لذاتي، كنت أظن أنها ممتلئة على حافتها فلا تصدر صوتًا، لكني الآن أراها فارغة تمامًا، مرت ستة أشهر على ذلك المرض، للمرة

الأولى أبدي انتباهي لابنتي الوحيدة رونده، للمرة الأولى اسمع كلمة بابا بتلك النبرة الرقيقة مصحوبة بضحكها التي تقتلني، للمرة الأولى أعطيتها المشط لتسرح لي شعري، وتمنيت أن أراها وهي تمثل دور مصففة الشعر، لطالما حلمت بذلك قبلاً ولم تجد مني غير الزجر، الآن تطبع قبلتها على خدي لأعرف أنها انتهت من تصفيفها الذي يمتد ساعات، بعد حياة عشتها غير عابئ بشيء غير متبته حتى لحب حياتي، والتي صارت زوجتي مصادفة من قدر لم أتنبه له أيضاً، حين تطويك الحياة لتجعل منك صورة مقيدة في برواز اعلم أنك أسير لها، لست حرّاً ولو ادعيت ذلك، كما لا يمكنني أن أدعي أنني أعمى الآن، فأنا أرى أشياء من حولي للمرة الأولى، وأندهش ما الذي كان يعميني أن أراها قبلاً!! وأتعجب من نفسي الفارغة ومدى هشاشتي!! من أي بئر كذب أتيت بتلك القوة المزعومة قبلاً؟؟، ربما من شاربي العريض مثلاً، كم خبأ شاربي ضعفاً!.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

من الغريب إن هنلاقي ثيوداس وغيره مذكورين في العهد الجديد في أعمال الرسل مثلاً، "لأنه قبل هذه الأيام قام ثيوداس وقال عن نفسه إنه

شيء وقد التصق به نحو أربعمائة من الرجال، وقد قتل وجميع الذين انتقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء".

بين بقى العام ٥٢ و ٥٤ من الميلاد خرج رجل يهودي من مصر وادعى إنه نبي، يظهر ما كانش عنده الجرأة إنه يدعي إنه "الماشيح" أو يمكن فعلاً كان نبي، المهم إنه أذاع بين اليهود إنه هيخلصهم من بطش الرومان فقدر يجمع ثلاثين ألف رجل، جيش كامل قادهم لجبل الزيتون في فلسطين وقاهم إنهم هيدخلوا الحصون ويهزموا الرومان لكن حاكم المدينة، والي كان اسمه فليكس تصدى له وقتل عدد كبير من الجيش، وأسر منهم كثير وهو هرب مع عدد من أتباعه، وواضح إنه فضل حي لفترة بعد العركة دية، بدليل إن بولس في أعمال الرسل أيضاً (العهد الجديد) اتهم بإنه هذا المصري من قبل الحاكم الروماني.

إزمير - ١٦٤٧م

- رأيت صاحبك الحاخام يبدو منتشياً من الشرب يا عزيزي حتى في أثناء درسه.. قام يغني ويرقص ويتمايل وفي يده زجاجة نبيذ.. إن أمثاله من الأغنياء لا يقدر شيئاً حتى درس هو أستاذه.
- أنت تتجنى عليه شاؤول.. مثلك مثل شيمون هو أيضاً اتهمه قبل ذلك.

- ألم تلاحظ أنه على تلك الحالة منذ أن انتحر عزرا؟
- في قولك اتهام خطير لعزرا .. هو ميت الآن.
- هذا ليس اتهامًا إن أخاه هو من أخبرني .. قال إنه أصيب بنوع من العمى جعله يرى ذبابًا طوال الوقت، ووجدوه منتحرًا في غرفته، شنق نفسه .. لم يتحمل خطيئته، كهذا المختل الذي يرقص في درس لتعاليم المشنا هو أستاذه .. يتغنى بالمزامير كأنها أغاني في حانة للعاهرات.
- كف عن هذا؟
- أنت دومًا في كنفه .. حبك له يعميك عن الحقيقة.
- بل إن الغل الذي في قلبك هو ما يعميك .. لا تستطيع أن تنسى أنك في مثل عمره ولم تبلغ مكانته بعد.
- على كل حال أنا ذاهب من هنا سأدعك وصديقك.
- شاؤول .. تمهل .. هذا علم لا يمكنك أن تعرفه الآن، ما به الحاخام حالة من الاستنارة.
- الاستنارة؟!
- نعم هو الآن متحد مع روح هذا الكون فيبدو كالمختل أحيانًا.
- انظر يا عريض القفا .. إنه في حالة سكر.
- اذهب شاؤول .. اذهب.

الفصل الخامس عشر

أحمد:

أوشكت المسألة أن تنجلي بعض الشيء، أودت بنا الحياة لهذا المنعطف،
أحيانًا تأتي العواصف أقوى من الأشجار، أقوى من الأسمنت الذي
يقبع صامدًا أمام الزمان، أحيانًا تكون العواصف أقوى من الزمان، ذاك
القاتل الذي لا يقهره شيء، لو كان بوسعنا أن نبطئه قليلًا لكانت الحياة
أجمل، سيكون لدينا الوقت للفهم، ربما تكون لدينا سعة في صدورنا
أكثر للانتظار، فلا نمل كما نمل، سيكون لدينا حينها الفهم للنبوة
والوقت للتوبة، وإدراكنا لأنفسنا سيكون أقرب للحقيقة بدلاً من
الخيلاء الكاذبة التي نتمتع بها، لذا لا تحتقر الذبابة أبدًا لو كان بوسعي
لجعلتها حكمة في كتاب الأمثال ليفهم القاضي والداني أن الذبابة كائن
أكثر تطورًا لنفسه من الإنسان بأضعاف قد تصل لأكثر من سبعة
أضعاف، فعلى سبيل المثال إدراكها للزمان أبطأ منا بسبعة أضعاف، لذا
تملك ردة فعل أسرع من الإنسان بسبعة أضعاف، كانت لي هواية قبل أن
أصاب بالعمى، ألا وهي صيد الذباب كنت أعدها تمرينًا لزيادة سرعة
ردة الفعل، أستمتع بقتل هذا الكائن المعجزة، أما الآن أتمنى أن أستطيع

فهم لغة الذباب لأبلغه اعتذارى الحقيقي، وأسفي النابع من أعماقي التي واجهتها للمرة الأولى لأعرف أنني كنت محض حقير جدًا طوال حياتي.

- طلاق.

- أيوة.. أنا لا يمكن أخليكي أسيرة مع واحد أعمى.

- اطلع من المطبخ ورايا طبيخ، وبلاش الأفكار إيلي بتيجي في دماغك دية.

- فكري في الموضوع.

- روح اقعد مع البنت أحسن ولا اسمع فيروز.

ذاك المشهد الكلاسيكي من السينما القديمة يقبع أمام عيني طوال الوقت، وللمرة الأولى أجد فيه المنطقية الكاملة التي يتقبلها عقلي أعلم أن (مُنَى) زوجتي، الآن تهمهم بتلك العبارات "البية عاوز يطلقني بعد عشرة السنين"، ربما زادت عليه بعض الشك "والله عال يا سي أحمد يا عادل بعد كل إيلي استحملته معاك عاوز تطلقني"، ستكسر شيئاً حينها في المطبخ مدعية أنه سقط من يدها سهوًا، دومًا ما تفعل ذلك وأعرف أنها تتعمده، ودومًا لا يكون لدي أي ردة فعل، هاك قد فعلت كسرت شيء في المطبخ، ستحضر الآن ذاك الكرسي الخشبي، وتغلق الباب لتبكي قليلًا، للمرة الأولى سأشاركها البكاء، لكن وحدي في الصالة، لم

أكن أعرف أن رونده ستكون حاضرة في المشهد تمسح دموعي وتحكي لي قصة لأشخاص كرتونية لتسرّي عني، لم تعرف بعد معنى كوني أعمى، فتحضر كتابًا مرسومًا وتجلس القرفصاء إلى جوارِي، وتضع فوق حجري الكتاب وتقلب صفحاته، وربما تسألني عن كلمة أو لون أو شيء من تلك التفاصيل، فأعجز عن الرد إلا بعد توضيح منها عدة مرات للأمر دون أن تمل كما كنت أفعل أنا معها قبلاً، لا أعرف لم اتابنتي رغبة في السؤال لرونده عن اسمها، ولا أعرف أي سعادة قبعت في طيات نفسي حين قالت "رونده أحمد عادل".

إزمير ١٦٤٧م

- أين كنت سيدي الحاخام طوال تلك الأيام؟
- أحارب الشيطان وقوى الشر .. لماذا لم تجتمعوا حتى هذه الساعة للدرس؟؟
- كنا نظن أنك لن تأتي كأيامك السابقة، وستمكث في عزلتك أيامًا أطول.
- اجتمعوا الآن فالأمر مهم جدًّا.

اجتمع تلامذة الحاخام ليخبرهم بشيء مهم، وأراد أن يكون ذلك في حديقة بعيدة على أطراف الحي كي لا يسمع إليهم أحد، خطب فيهم وقال:

" أيها اليهود الكرام لقد شاهدت رؤيا في أول أمس بعد أن عكفت أيامًا على الصلاة والصيام، وأقحمت في نسك طويل بأمر من إلهي، وحين غلبني النوم من التعب نمت في ثياب الصلاة، وبين يدي التوراة المقدسة سمعت صوتًا غريبًا يقول لي بأن "الماشيح" على وشك الظهور، فأعدوا الأرض لذلك وصوموا وصلوا، وذكرني بأن "الماشيح" لن يأتي إلا في حال أن كل الناس في طاعة الإله، أو كلهم في معصية وغفلة .. لذا نحن مأمورون من اليوم وحتى يأتينا المخلص يقودنا إلى أورشليم سنعكف على الطاعة والنسك والصيام بشكل غير منقطع، هذا الصوت الذي حدثني هو الروح القدس، أعرف ذلك الصوت، أقسم بالهيكل أنني صادق، وعليكم أن تطيعوا أمري كي لا يأتي الماسايا يلعننا على عدم الالتزام بالعهد، وأؤكد لكم يا سادة أن الماسايا قريب جدًا، وهذا حسب حساباتنا بالرياضيات الروحية، وكذلك أكد سيدنا الحاخام دالبا... ".

أطال ذلك الحوار والتأكيدات والقسمات والعهد الذي لا بد أن يوثق مع اليهود في ربوع الأرض، وبعد ما أنهى حديثه سكت قليلاً، وسكن إلى

نفسه كأنه ذهب بعيدًا في عالمه الخاص كدرويش يتوه، ثم قام يغني ويرقص بالمزمور الخامس كمجنون.

جامعة القاهرة - ١٩٩٨م

ما بين سنة (١٣٢ - ١٣٥ م) فيه واحد ظهر أنا بعتره مظلوم الحقيقة في التاريخ اليهودي عمومًا، هو باركوخبا أو باركوخفا بعض اليهود بيعتبروه بطل من أبطال اليهود حتى اليوم، ويقيموا احتفالات بسبب ذكرى إعلان تمرده على الدولة الرومانية، ويشعلوا نار عالية جدًا على غرار ما أمرهم به لإعلان التمرد بإشعال النار فوق الجبال، لكن الراجل مظلوم فعلاً، لأنه لم يدّعي لا نبوة ولا بأنه "الماشيح" ولا المخلص ولا حاجة أبداً، واحد ابن حلال من الحاخامات اسمه عقيبا طلع عليه إنه "الماشيح" بناء على تفسيره لآية توراتية من سفر العدد "بأن كوكبًا سيخرج من يعقوب"، وكوكب تنطق في العبرية "كوخب"، وهو قريب من اسمه باركوخبا.. المهم بقى الحاخام عقيبا يلف على قرى اليهود يدعو لباركوخبا بأنه المسيح المخلص ولازم الكل يتبعه ويؤمن بيه، وكل ما يشوفه يشاور عليه ويقول هذا هو "الماشيح" الملك، المهم الراجل كبرت في دماغه وكبرت في دماغ اليهود وجمعوا جيش وقالوا

هنحارب الرومان، وهنخش أورشليم ويحكمنا "الماشيح" .. يشاء
السميع العليم يا مؤمن تقوم المعركة ويموت حسب الإحصاءات بتاعة
الموسوعة اليهودية ٥٨٠ ألف يهودي والباقي طبعًا هرب أكيد طبعًا،
لأنه كان جيش غير مدرب ومعهوش سلاح بيواجه أكبر قوة عسكرية
في العالم في زمانه، المهم إن عم عقيبا ده بعد المعركة سمى باركوخبا
"باركوزبا" وتعني الكداب .. طب ما إنت إيلي طلعتها في دماغه من
الأول أهه شغل عوج وخلص.

إزمير ١٦٤٨م

- لم؟ .. ألا تعجبك تمار بنت زكار تاجر البن؟؟
- لا يا أمي .. الأمر ليس هكذا.
- اسمع شبتاي أتممت الثانية والعشرين.. ليس بوسعي أن أؤخر زواجك
أكثر.
- لا أريد أن أتزوج حقًا يا أمي.
- وما ظنك؟ هل ستقضى حياتك وحيدًا؟! .. أم تفعل مثل أتباع يسوع؟!
- أمي ...

- انتهى الأمر شبتاي .. أنا على وشك أن أموت، ولن أعيش للأبد على إيه حال، وأريد أن أقبر وأنت متزوج .. أبوك نفسه لن يرضى بذلك .. لقد فاتح الرجل بالأمر والجميع سعيد بزواجك إلا أنت.
- حسناً يا أمي حسناً .. ليكن.
- الزواج سيكون قريب .. قريب جداً قبل أن تغير رأيك ثانية.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

آه .. كان فيه برضه سنة (٤٤٨ م) واحد في جزيرة كريت ادعى بأنه موسى النبي نفسه، وجاء من أجل أن يخلص اليهود ويرجعهم لأورشليم، وده طبقاً لحسابات كانت بتقول بأن المسيح سيظهر قبل سنة (٤٧٠ م)، وده ليه بقى قالك عشان الشتات بتاع اليهود مش هيستمر أكثر من ٤٠٠ سنة، ودية فترة العبودية إيلي كانت في مصر، وده غير صحيح حسابياً بالمرة، يعني ولو كانوا قعدوا ٤٠٠ سنة في مصر على الأقل كان هيبقى ليهم أثر على الفترة دية .. لكن أهه ما علينا مش موضوعنا دلوقت .. المهم إن الراجل بتاع كريت ده كان له تأثير غريب على اليهود، لدرجة إنهم سابوا أعمالهم ووزعوا أموالهم، لأنه قالهم إنه هياخذهم ويفلق البحر زي موسى النبي عليه السلام، واداهم معاد فعلاً

وراحوا البحر فعلاً، وطلب منهم ينطوا في البحر فنطوا فعلاً، فلاقوا إن البحر منشقش ولا حاجة وغرق منهم ناس كتير وبقى الصيادين يلحقوا إالي يقدروا عليه من الغرق وخلاص، واختفى الراجل إالي ادعى إنه موسى، ولا حد عرف عنه حاجة .. وكثير جدًّا من المؤرخين لما علقوا على القصة دية قالوا إن إالي نجى ومغرقش اعتنق المسيحية، وخرج من العقيدة اليهودية وأنكرها.. الصوت يا شباب ليه الضحك .. أنا مش عاوز أصدكم وأقولكم إن فيه في عصرنا الحالي ناس زي دية كتير جدًّا، في الهند مثلاً هتلاقي بلاوي، حتى هنا في مصر فيه هطل كتير بيمشوا ورا أي حد يدعى كلام فارغ .. والدليل على ده كمية الأضرحة مثلاً إالي موجودة دية بتاعة شيوخ ولا حد سمع عنهم قبل كده.

في عام (٦٤٧م) تقريباً فيه يهودي من مدينة فومبيداتا في العراق ادعى بإن المسيح ظهر، وجمع حوالية كتير من اليهود حوالي ٤٠٠ يهودي، وقاموا حرقوا الأديرة المسيحية والكنائس وقتلوا أحد القساوسة الكبار، وعاثوا فساداً في الأرض، المهم في الآخر اتقبض عليه، واتصلب واتقبض على أتباعه وزوجاتهم وأولادهم واتعدموا.

إزمير ١٦٤٨م

- بالطبع سعيد جداً أليست ليلة عرس سيدنا الحاخام شبتاي!!
- هل شربت خمرًا؟
- نعم القليل.
- اللعنة .. ألم يخبرنا سيدنا بأن نتعهد النسك والصوم.
- ولكن اليوم هو عرس .. وأي عرس...
- أيها الضعيف إن الحاخام ذاته صائم اليوم.
- ماذا؟ صائم! .. وكيف....؟
- بتأي .. اسكت.
- حسنًا إلغاز .. ولكن فعلاً ماذا سيفعل اليوم ذلك الحاخام المسكين في ليلة عرسه إن كان صائمًا! حسنًا حسنًا .. هذا أمر لا يعنيني أقصد ماذا عن...؟ تعرف ما أقصده؟؟
- بتأي أنت تثرثر كثيرًا .. وواضح أنك لم تشرب القليل.
- هكذا أنت دومًا إلغاز .. تحب أن تفسد الفرحة.
- كوهين .. كوهين .. تعال.
- ماذا؟

- عندي لك سر سأخبرك به، ولكن أوصاني سيدنا الحاخام ألا أخبر إلا القليل منا فقط.

- وما ذاك؟

- ليلة أول أمس أخبرني سيدنا أنه حين كان يمشي في الطريق على بعد ساعتين من المدينة، هبط عليه الروح القدس وسمع أدوناي يخبره بأنه المسيح بن داوود المخلص شعب إسرائيل، والذي سيجمعهم من أركان الأرض الأربعة في أورشاليم.

- هل أنت صادق فيما تقول حقًا؟

- بالطبع كان لدي الشك قبلاً في أنه هو .. ألا تذكر ما قاله الحاخام دالبا قبلاً عن حساباته؟!

- هذا أمر يحتاج التحقق أولاً .. لكن إن كان حقاً هو سنكون الأكثر حظاً في هذا العالم.

- لكن على كل حال لا تخبر أحداً بذلك .. لم يأمرنا سيدنا بنشر ذلك الخبر بعد.

- حسناً .. حسناً.

بدا ما قاله إلغاز وجيهاً بعض الشيء بالنسبة لكوهين، لكن من طبيعة كوهين هو التأكد من الأشياء أولاً، فهو من ذاك النوع الذي يعمل

العقل أحياناً فيجد بعض الأشياء مقبولة وأخرى لا ترقى لأن تقبل، لذا
وجد أن من واجبه أن يخبر أستاذ شبتاي بإدعائه ليرى إن كان صادقاً أم
كاذباً.

الفصل السادس عشر

منزل لضابط ١٩٩٨م

مُنَى امرأة في آخر عقدھا الثالث، متعبة الوجه، ترتدي تنورة المطبخ من ذلك النوع البلاستيكي المانع لنفاذ الماء، تجذب كرسياً خشبياً هو الوحيد في المطبخ الذي يعد مملكتھا الهشة الأركان، تمسك ملعقة في يدها، وفي اليد الأخرى قطعة خزفية من طبق مكسور متناثرة بقية أجزائه على الأرض، لا تملك أي شجاعة لتمسح دموعھا، تتركھا كما تنسى أحياناً صنبور المياه مفتوحاً، أنا تلك المرأة بعينھا "مُنَى محمود واصف" زوجة رائد متقاعد أحمد عادل، ذلك الأعمى الجالس في الصالة الآن، والذي عرض عليّ الانفصال لتوه بعد عشر سنوات طوال قضيتها معه في تلك الشقة محدودة الأركان، وبعد أعوام طويلة في الانتظار تزوجنا يوم عيد ميلادي الثلاثين، أمضيت أعوامي السابقة لهذا في الانتظار، لا .. لا تقولھا .. لا تصفني بالبلهاء لن أتقبلھا منك، ولا من أحد على هذا الكوكب البائس بحياتنا، فقد جنيت ثمرة هذا الانتظار (الحب) .. الحب فقط مع مزيد من سنوات الانتظار، ثلاث سنوات في انتظار مولودتي الوحيدة، قالت أمي بعض الناس حظھا من الحياة قليل، وأنا أعد نفسي واحدة منهم، لكنني راضية تماماً بذلك الحظ القليل، لولا أراذل الناس

لرضيت أكثر، لولا أمه لكانت لدي فرصة أخرى للإنجاب ولولا غباوات مجتمعنا الشرقي المستمسك بعادات عبودها أكثر من أي إله عبوده على مر العصور لكان حالنا أفضل، لا ألوم أحداً، ولا حتى نفسي فأنا أؤمن أن اختياراتنا في الحياة محدودة جداً، لكننا بلهاء نعتقد أننا أحرار، ونوهم أنفسنا بذلك طوال الوقت، ولا نعلم أننا نضيع الوقت فقط، لأن اختياراتنا محدودة وأعمالنا محدودة وإن طالت، هذه حقيقة أؤمن بها حتى شعيراتي الدموية، ولأني أملك ذلك العقل لا أحب مخالطة النساء.. لا أحب ثرثرتهن، لذا توصفني أُمي بالبرّاوية.. لا بأس هذا الوصف ألطف كثيراً من سماع ثرثرة إحداهن طوال الوقت، أما عن هذا الزوج جاف المشاعر فلديه الإعاقة في التعبير عن حبه، أفهم ذلك جيداً، ولولا تلك الإعاقة لما قال ما قاله منذ قليل.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

في سنة (٧٢٠م) ظهر واحد يهودي في سوريا، كان أصلاً مهاجراً من بيزنطة، اسمه سيرنيوس، وقال إنه النبي المبشر بالمسيح، وبدأ يشتم في الحاخامين ودول ناس متشددة، كان معظم اليهود اتخنقوا منهم، فذاع صيته بشكل عجيب في أنحاء العالم كله، حتى في فرنسا وإسبانيا، وكان

له أتباع كثير جدًا مش يهود بس، لا مسيحين كمان، متعرفش
إزاي؟؟!! بس أهه.. وبدأ يجمع منهم فلوس وتبرعات، وقلهم إنه
هيخلصهم من المسلمين ويطردهم من فلسطين، وبدأ يلغي أحكام من
التلمود نفسه، والتلمود عند الحاخامين يجي في نفس مقام التوراة نفسها،
ده حتى غَيَّرَ في أحكام الكشروت (هي أحكام صلاحية الأشياء من
حيث الحل والتحريم)، المهم بعد حوالي أربع سنين من بداية حركته دية
اتقبض عليه من الدولة الأموية في عصر هشام بن الحكم، وودوه لهشام
وجاب علماء وحاخامات، وسأله عن سبب إيلي بيعمله ده، فقال له إنه
كان بيعمل كده عشان يسخر من اليهود، ويضللهم، ويتريق عليهم،
فهشام سابه للحاخامات تعمل فيه إيلي تشوفه عمل بالمثل الشعبي
"إردب مالك فيه لا تحضر كيلاه تتعفر دقنك وتتعب في شيله"... قتلوه
وأتباعه، باقى الحاخامات أجازت عودتهم تاني لدينهم بعد التوبة،
وطبعًا لو تفتكروا إن التوبة ليها شروط وطقوس.

إزمير ١٦٤٩م

- ما سبب الطلاق يا زكار؟

- ستة أشهر سيدي الحاخام ولم يمسه.

- أهذا صحيح شبتاي؟
- لم يستطع أن يجيب بشيء الحاخام الشاب، ربما شكر حماه في طيات نفسه كونه لم يبح أن لديه عُنَّةٌ منعه أن يمس أجمل بنات اليهود في إزمير.
- تعرف بالطبع ما سيتم شبتاي؟؟
- نعم سيدي الحاخام إسحاق أعلم.
- ابنتك حرة زكار.
- بوركت سيدي الحاخام.
- انصرف زكار بعد أن شذر شبتاي بنظره .. بدا متصراً، لكن في بواطنه يخفي حرقه الحسرة على ابنته .. بعض المعارك للانتصار فيها ألم يساوي ألم الهزيمة، وهذا من بين أعاجيب حياتنا.
- لا تنصرف شبتاي .. أريد أن أحدثك في أمر.
- نعم سيدي.
- أخبرني أحدهم بأنك قلت أن روح القدس قد ظهر لك في ليلة وأخبرك أنك المسيح بن داوود.
- هههههه .. أهذه دعابة؟!
- منذ متى وأنا أمزح في تلك الأشياء؟؟
- سيدي بعض الناس يملأ قلوبهم الحقد لا تصدق القيل والقال.

- أنا متأكد أنك قلت هذا شبتي .. كما أنني متأكد أنك لست هو .

- هههههه .. هذا أمر هزل صدقني .

- سنرى شبتي .. سنرى .

منى :

هو أعمى منذ ستة أشهر أَتَفَهَّمُ ذلك جيداً، لكنني لم أتوقف لحظة واحدة عند ذلك، وأقسم على هذا، أذكر ذلك اليوم .. يوم الحادث وجدته نائماً في السرير بوضع عرضي وملابسه متسخة بالدم كمن غمس في برميل من الدماء، أيقظته رغم أنني أعرف أنه لم ينم منذ أيام، ولم ألمه على اتساخ الملاءة، ولم أسأله عن سبب تأخره، ولم أفعل لليوم، بدّل ملابسه سريعاً وغط في نوم عميق، وذهبت أنقياً في المرحاض، كان حاله بشعاً وبوجهه الكثير من الجروح، في اليوم التالي جلس في سريره لا يتحرك ينظر حوله كأنه يرقب ذبابة في الغرفة، وحين سألتته عمّ حدث البارحة قال جملة واحدة: "أنا أعمى"، تعودّ دوماً أن يجب بجمل قصيرة على أي سؤال له .. أعلم أنها بداية ما للخرس الزوجي، لذا لم آخذ ما قاله على محمل الجد، فعيناه مفتوحتان كأنه يرى كل شيء بشكل طبيعي، لذا أكملت حديثي بسؤال آخر: "مش عاوز تفطر؟"، لم يجب على سؤالي، وأنا

أعتاد ذلك أيضًا منه، لا يجب على أي سؤال مباشرة، لذا استأذنته في القيام لأجل أن أغرّ الملاء التي اتسخت بالأمس، وحين همّ بالوقوف بدا نائها حقًا، لا يعرف في أي اتجاه يمشي، وحين شرع في المشي تعثر في خطواته وكاد يسقط فلحقت به سريعًا قبل السقوط، حينها تأكدت من أنه لا يمزح أبدًا .. زوجي صار أعمى.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

في عهد مروان الحمار بتشديد الميم آخر من حكم من بني أمية ادعى أبو عيسى عوبدايا الأصفهاني وطبعًا واضح هو منين من الاسم .. الراجل ده كان خياطًا وأميًا، لا يعرف لا يقرأ ولا يكتب، وده اخترع اختراع جديد خالص ادعى بأنه نبي مبشر بالمسيح، وإن المسيح له خمس رسل هبشروا بيه، من بينهم سيدنا عيسى المسيح عليه السلام، وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، شوفتوا هنا إلي هو فيه! .. يعني نظام موسى نبي، عيسى نبي، محمد نبي وكل من له نبي يصل على .. خلاص بقى كفاية ضحك .. خيلنا في المهم الراجل ده ادعى بإن الله كلمه، وأمره بتخليص بنى إسرائيل من الأمم العاصية الظالمة، وإن المسيح بتاعه هو سيد الخلق وأحسنهم ومقامه أعلى من كل الرسل .. مش بس كده،

وغيرَ في أحكام الشريعة اليهودية وأمرهم يصلوا سبع مرات، بدل من ثلاث مرات، وده طبقا للمزمور ١١٩/١٦٤ "أجبدك سبع مرات في اليوم لحكمك العادل"، مش بس كده وألغى الطلاق حتى في حالة الزنا، وألغى الأضحيات العبادية وحرّم الخمر .. تفتكروا تبعوه كتير؟ .. الحقيقة آه الراجل جمع عشر آلاف مقاتل وقرر إنه هيحارب المسلمين عشان يدخل فلسطين وفي منطقة الرّي سنة (٧٥٥ م) قامت معركة بالفعل كان نتيجتها إنه إنتقل ومات كتير من أتباعه .. لكن قصته ما انتهت فضل أتباعه موجودين لمدة ثلاث قرون، مؤمنين إنه لم يقتل أبا عيسى إنما دخل في كهف في الجبل وسيعود مرة ثانية، ونسبوا له أعمال خارقه بقى، منها إنه ألف عدة كتب مثلاً رغم إنه أُمي.

وبعد زمن طلع أحد أتباع أبو عيسى اسمه يهودا ادعى إنه المسيح نفسه، وحرّم الخمر وأكل اللحم وشرع صلوات جديدة، وأحل السبت وحرّم الأعياد، وقال إن كلها بطلت بهدم الهيكل، وكان بيدعوهم للزهد ومات وفضل أتباعه منتظرين ظهوره مرة ثانية حتى عام (٩٣٨ م) برده. شكلنا كده مش هنلحق نخلص النهارده المحاضرة دية .. تصدقوا لسه فيه كثير! .. طيب خلينا نشوف إلی بعده..

سنة (١١٢٧ م) قام أحد الأحبار (علماء اليهود) وهو موسى الدرعى من درعا وادعى بأنه المسيح المخلص، وأنه هيققق معجزته في الليلة الأولى من عيد الفصح وأمرهم يبيعوا أمتعتهم وبيوتهم، ويشترؤا من المسلمين كل إالى ياتجاهه بأضعاف أثاناه لكن مؤجل، لأنهم لن يروهم ثانية فعملوا كده فعلاً، وجه الفصح وهرب لفلسطين ومات فيها وساب أصحابه في زنقة وحوسة بعده مديونين ومحتلهمش حاجة.

-حاضر .. عارف إنكم زهقتوا والله بس معلش استحملوني شوية ..

تقريباً في سنة (١١٦٠ م) قام مناحم بن سلمون، والى عُرف بعد كده بداوود الرئى بنفس دعوة سابقية بإنه المسيح، لكن الطريف بقى إن أبوه كمان "سلمون" ده ادعى بإنه النبى إياهو والمبشر بالمسيح، ما علينا ده كان في العراق، ودعا يهود العراق وتبعه بعضهم فعلاً، وكون جيش كالعادة يعني وحارب المكتفى بالله وفعلاً احتل قلعة العمادية، وقرر إنه يستولى على ما حولها، لكنه ملحقش لأن حماه قتله وهو نايم .. من طرائف بقى الراجل ده إنه كتب لليهود في بغداد إن في ليلة من الليالي معينة يطلعوا فوق سطوح بيوتهم لأن الملائكة هتشلهم ويطيروا لأورشليم، وطلب منهم يتصدقوا بأموالهم ليه عشان هيطيروا ليلاً لأورشليم بقى .. المهم طلع اليهود فوق السطوح ولبسوا ملابس

خضراء زي ما قال لهم وانتظروا الملايكة .. مفيش، وفضلوا منتظرين
لحد ما طلع الفجر، وبقوا مضحكة بسبب الحكاية دية في بغداد ..
اللطيف إن بعد ده كله فضل أتباعه برضة مؤمنين إنه هيظهر تاني وسموا
نفسهم "المناحية".

سنة (١١٧٢م) طلع واحد من يهود اليمن ادعى بأنه المبشر بالمسيح
وقالهم إن الرب أمرهم بإن الأغنياء يعطوا أموالهم للفقراء وبعدين
يرجع الفقراء بعد شوية الأموال للأغنياء تاني، وبعدين يكرروا نفس
الشيء وتفضل الأموال متداولة بالشكل ده.. المهم إن لما اتقبض عليه
سألوه عن سبب ده، قالهم ده أمر من الله، فسأله الحاكم إيه دليلك على
الكلام ده، قاله اقطع رأسي وسوف أعود للحياة .. قاله خلاص لو
رجعت تاني هكون أول مؤمن بيك وقطع رأسه فعلاً.. وطبعاً مرجعش.

الفصل السابع عشر

منى:

بدوت لحظتها قليلة الحيلة جدًّا، أي عقل تمتعت به يومًا لم يعد هنا أو حاضرًا في المشهد.. أعلم أنه تبين ذلك من أنفاسي المضطربة المتسارعة، لذا أمسك بيدي، تمنيت حينها أن تكون مزحة سخيفة وإلا كيف عرف مكان يدي ليمسكها، فنظرت طويلًا في عينيه حينها لأعرف إن كان صادقًا، عيناه زائغة في أرجاء بعيدة عني، ويميل بأذنه إليّ، لم أنتبه أبدًا لكلماته المطمئنة، فتزايدت أنفاسي حتى أحسست بقلبي ينخلع من بين أضلعي من شدة نبضاته، "إهدي .. إهدي .. حاولي تنظمي نفسك كل شيء هيعدي على خير" .. لا أريد أن أسمع تلك الكلمات، سمعت الكثير منها في حياتي واكتفيت، لدي التشبع الخالص من كلمات الصبر والحث عليه، بعد دقائق تمالكت أنفاسي، وحينها علمت أن أول شيء علينا فعله هو زيارة المشفى، أسرع نحو الهاتف الأرضي بدت الخطوات القليلة التي تفصلني عنه سفرًا بعيدًا، وحين وصلت إليه أدركت أنني لا أعرف رقمًا لأي مشفى، لذا استعنت بالدليل، كأن قوى عقلي تعود من غيبائها وأنفاسي تراجع للطبيعي منها، ثمة مشفى قريبة من منزلنا للرمد، أظنها ستكون هي الأسرع إن كان ثمة إسعافات

أولية، لا أجيد قيادة السيارة لذا استعنت بجارتي، قال الطبيب بعد أن فحص عينيه إنها سليمة، وستؤكد ذلك الأشعة، التقطت أنفاسي، وبدوت أخيرًا عائدة لوطني بعد غربة إلى الشاطئ بعد مكوث طويل في أعالي البحار.

- شوف يا أستاذ أحمد زي ما قولت لك قبل كده عينيك سليمة ..
والتحاليل بتأكد كلامي والأشعة برده بتأكد ده، وحسب ما كل
الفحوصات بتقول إن مفيش أي جلطات.

- آمال حضرتك ليه أنا مش شايف؟

- والله ممكن يكوت الموضوع نفسي بقي.

- نفسي إزاي يا دكتور؟ هو فيه حاجة اسمها كده؟

- والله عن نفسي ما صادفتش ده قبل كده .. لكن فيه حالات فعلاً اتكتب

عنها كتير .. قوللي يا أبو حميد إنت شايف إيه بالظبط؟

- أنا قولت لحضرتك في الفحص.

- معلىش قوللي تاني.

- ولا حاجة لون أبيض وزى ما يكون فيه دبان وبيزيد مع الوقت.

- عموماً أنا بنصحك بإنك تتابع مع طبيب نفسية وعصبية .. هديكي رقم

الدكتور رؤوف يا مدام وياريت تقنعي الأستاذ.

إزمير ١٦٥٠م

- هذه المرة اسمها ياعيل .
- اسم حسن .
- هي ابنة نوعام الصائغ .. فتاة جميلة ومهذبة .. ونوعام كان صديق أبوك طيّب أدوناي ثراه .
- لا بأس .. حسنًا يا أمي .
- لن تجادلني هذه المرة؟
- لا .

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

سنة (١٥٠٢ م) ظهر يهودي أشكينازي اسمه أشرلامن، وهو الأشكينازي الأول إلي ادعى بأنه نبي مبشر بالمسيح، وقال إنه يظهر خلال سنة ولازم الناس تتوب وتستعد للمسيح، تبعه ناس كثيرة منهم مسيحيين أيضًا .. مرت السنة ولم يظهر المسيح، وبعدها مات أشرلامن وخرج كثير من اليهود عن دينهم بعد موته.

في القرن السادس عشر ظهر واحد من يهود خيبر أو كان من يهود خيبر في جزيرة العرب اسمه داوود الراؤوبيني، وده لم يدعي إنه المسيح، لكن

ادعى إنه هيخلص أورشليم من يد المسلمين، وسافر في بلاد العالم كله عشان يجمع جيش لهدفه، وكان بيقلهم إنه سفير دولة اليهود في خيبر وعلى رأسها أخوه الملك يوسف وعدد جنودها ثلاثمائة ألف على أهبة الاستعداد، ومعه علم حرير كتب عليه الوصايا العشر، ودرع كتب عليه أسماء الإله، وادعى إنه درع داود النبي إيلي استخدمه في حروبه، وجاء مصر سنة (١٥٢٣ م) من ضمن رحلته حول العالم، وسافر إيطاليا وقابل البابا كليمنت السابع، ودعاه لليهودية وادعى إن أخوه يوسف الملك أرسل له رسالة فوعده البابا بدعمه بأسطول وجنود، المهم فضل يلف لحد ما راح إسبانيا واتقبض عليه بدعوة إنه بيحول المسيحيين ليهود واختفى بعدها.

كفاية كده نكمل المحاضرة الجاية.

أحمد:

على من ألقى اللوم؟؟ قل لي .. لا أؤمن بالخط، لذا لن ألوم على خرف، لا أحب المصادفات ليست من طبيعة الحياة أصلاً، فالحياة رغم ما تراه فيها من عشوائية هي حركات مدروسة بعناية فائقة، ربما أكثر من إدراكنا كبشر فتبدو كالعشوائية، لكن في طياتها معلوماتية الاحتمالات

جميعاً، وإن بلغت الاحتمالات تلك البلايين، بغض النظر عن ذلك
التعقيد الرياضي أو الخوض فيه فتبقى أحداث الحياة احتمالاً لكنها
ليست مصادفة، لكن هذا النوع من الاحتمالات لا أهواه بأي حال.. لا
أحب الزيارات المفاجئة، لا تسمى فهمي، لا تكن كهؤلاء أقصد سيئي
الظن، فقط زيارة أُمي كانت مفاجئة.. لا أحب أن أرى أُمي في العادة..
لا ليس بالضبط.. ليس قصدي أني أكرهها، لكن تلك النظرات في
عينها تشعرني بالذنب، فأنا ولدها الوحيد المخيب لآمالها، فما بالك إن
عرفت أني صرت أعمى أتحسس الأشياء من حولي كما كنت أتحسس
الحياة دوماً لأجد احتمال واحد يناسبني فأمضى فيه، هذا ما طلبته من
مُنَى حين ألحّت عليّ أكثر من مرة لأخبرها لكنني لم أفعل.. لم أرد أن
أواجهها بفاجعة أخرى في حياتها، كفى ما صنعتها بها قبلاً في صغري،
واجهت الموت عدة مرات في صباي، حادث بالسيارة مثلاً كان على
وشك أن يودي بحياتي في سن الرابعة عشرة، إصابة بالرصاص أثناء
التدريب في كلية الشرطة، حريق في بعض أجزاء جسدي، كل تلك
الفواجع صنعت تلك النظرة التي لا أحب أن أراها.. لن أراها اليوم
لكنني أتحسسها أيضاً في نبرة الحديث، لذا تصنعت أني سليم النظر، كان
كل شيء على ما يرام فعيناي طبيعيتا المنظر، أحفظ مكان الأشياء،

صرت لا أتعثر، فقط ثلاثة سنتيمترات هي ما صنعت الفارق عرفت الحقيقة حين أوقعت فنجان الشاي، وأنا أحاول أن أضعه على المنضدة ..
و حين وقع كنت أتحسس الأرض لألملم قطع الفنجان المتناثرة بشكل طبيعي، لكن نبرة صوتها التي كانت أسيرة الأنفاس كانت تصرخ بأنها عرفت الحقيقة، بدوت مثيرًا لشفقتها أكثر من أي وقت، أرى الآن عينيها رغم عمائي، رأيتها تتحسران كثيرًا من قبل لكن تلك المرة أجمت الحسرة أنفاسها، ليس بوسعي أن أتحمل ذلك أكثر ارتحلت متحسبًا الجدران لغرفة النوم بينما منى تحاول أن تهدئ من روعها وتخبرها بما قاله الطبيب علّه يخفف عنها بعض الصدمة.

إزمير ١٦٥٠م

"العالم يدور هذه حقيقة، وسيدنا شبتاي هو المسيح ابن داوود"، هذه الكلمات التي تبدو ألعوية بعض الشيء صارت شعار أنصار شبتاي تسيفي، ذلك المدعى للنبوة بشكل غير معلن بعد، والذي لم يتم أشهر فقط مع زيجته الثانية والتي لحقت بمصير الأولى لم يمسه، لكن لكل مدّعٍ دراويشه، يخفي الحقيقة خلفهم، فيبدوا ما يعتقدونه حقيقة يدافعون عنها حتى الموت، ويجدون التفسيرات اللازمة لتبريرها دومًا، وربما

بشكل من الإبداع، فأطلقوا مثلاً على حالته الأولى من السكر والرقص حالة الاستنارة، وحالة العزلة التي يمكث فيها طويلاً حالة استتار الوجه (وجه الإله)، وعدم ملاسته النساء هو نوع من الزهد رفيع المستوى، لا يرقى إليه غير أشباه شبتاي، وزاد شبتاي نفسه في القصيدة بيتاً، فقال إن روح القدس أخبره أن الزوجة المناسبة لم يحن أوانها بعد، وكما لكل جواد كبوة لكل بعير قشة تقسم ظهره، ففي يوم كان يقرأ فيه من التوراة في درسه بين أتباعه قال اسم الإله المقدس "يهوه" دون أن يحول اللفظة لأدوناي، والتي تعنى السيد (إلهنا) وهذا وحده كفيل بأن يؤلب عليه الحاخامين، وصل الخبر إلى أستاذه إسكابا، والذي استدعاه فوراً فحضر يراوغ كعادته، لكن أستاذه الذي كان يعرفه جيداً صعد الأمر لمجلس الحاخامين والذي حكم بدوره بطرد شبتاي من اليهودية ومن إزمير.

مُنَى:

أحبه بالطبع لا شك لديّ، رغم أنه تغير كثيراً عن قبل، ربما الحياة أكثر قسوة مما ينبغي هذا ما يقتل فينا الحب، أحياناً أتسأل ما هو الحب؟ ولا أجد جواباً، أحيان أخرى أبرر ذلك الخرس في حياتي أقول صار يعرف

كل شيء، وصرت أعرف كل شيء، حتى ماذا يريد قبل أن يطلبه أو يشير إليه، وأدرك تمامًا طبائع الرجال، لذا لا أقاطع صمته أو حملته في أي شيء تافه، أذكر مرة أنه ظل يحملق في ذبابة تقف على السقف بشكل معكوس لساعة كاملة، وحين طارت همس لي قائلاً: "سبحان الله شوفتي الذبابة كانت واقفة إزاي على السقف بالشكلوب"، لو لم أدرك بعض تلك الطبائع للرجال لفتحت الشباك المطل على الشارع أصرخ كنساء الحوار، لكنني كتمت غيظي ولم أجبه، الرجال يا عزيزي يحبون دومًا التدقيق في الأشياء من حولهم، وإن بدت تافهة بالنسبة لكن، كما يعتبرون كل ما تهتمن به من تبرج وملابس تافهًا، لكل منا تفاهته التي يجب أن تحترم، لكن تفاهة بعض الرجال تنم عن شيء ذي قيمة فلولا تفاهة رجل راقب الطيور لما اخترعت الطائرات مثلاً.

الفصل الثامن عشر

أحمد:

لا أحب عصا العُميان تلك، صوت الطقطقة التي تصدرها تذكرني بصوت ساعة قديمة الصنع تعمل بالزنبرك من ذلك النوع الذي به بندول يقطع طوال الوقت، كانت مزعجة بالنسبة لي حتى أنني كنت أستخدم صوت تلك الطقطقة لتساعدني على النوم، فأعدها حتى أنسى ويغلبني النوم، لكن طقطقة العصا أسوأ بكثير من ذلك الصوت، خاصة أنني لا أستطيع أن أوقفها كما كنت أفعل بالساعة، هي بالنسبة لي قرون استشعار، أذكر أن فكرة إمساكي بتلك العصا كانت منكرة بالنسبة لي، ولا تزال، لكن استسلامي للواقع فرض عليَّ بعض السخافات الأخرى، ليست العصا وحسب، دومًا ما أقول لنفسي ذلك المثل الشعبي "إن جالك الغصب خده بجميله"، الأكثر سوءًا من تلك الطقطقة هو التركيز فيها طوال الوقت، لأميز الأشياء فطقطقة الخشب ليست كالحديد أو الرصيف أو الرخام، وصدى صوت الطقطقة يميز المسافات وبعدي عن الجدران والأشياء، تلك الحسابات المعقدة أيضًا تذكرني بالحياة، فكل طقطقة تمثل عدة احتمالات وتمثل معلومة أتبين من خلالها حقيقة المكان والأشياء من حولي، كذلك الحياة تفعل معنا طوال

الوقت، تحاول أن تتبين الحقيقة فينا فتبلينا، وصدى أفعالنا يبين من أي معدن خُلقنا.

جامعة القاهرة – ١٩٩٨م

أهلاً بكم يا حضرات .. معلش بقى القاعة الثانية أخذوها عشان الكنترول، خيلنا هنا بقى القاعة دية محدقة على قدنا .. خيلنا نكمل ...

سنة (١٦٥٤م) ارتكب الحاخامون في إزمير التركية أو العثمانية في ذلك الوقت خطأ كبير جداً لما طردوا شبتاي تسيقي أو زيفى أو صبى أو أيّاً ما كان الاسم الصحيح تحديداً لهذا الشخص المدعى بأنه المسيح، وإلي كان الأخطر مش على اليهودية فقط لكن كان الأخطر على كل الأديان السماوية، وخصوصاً الإسلام، وهنعرف ده لما نروى قصته كاملة ..

عموماً من طبيعة الدعوات الفكرية عموماً الاضطهاد بيدعمها جداً، في حين إن بعض الناس بيعتقد إن لما يضطهد فكر معين ييمنع انتشاره، بالعكس إنت بتساعد في انتشاره أكثر .. الحل الطبيعي أو المنطقي هو مواجهته بالحجة والمنطق، ومن طبيعة الفكر البشرى إنه بيعدّل نفسه بشكل تلقائي لو سيبته من غير توجيه أو وصاية، لأن العقل مش جامد، ده دائم التطور وبصورة أسرع من أي توقع .. خيلنا في المهم خطأ اليهود

جعل شبتاي يسافر بعد إزمير لسالونيك، وواضح إنه شخص عقله شغال لأن سالونيك، وإلي كانت تابعة أيضًا للدولة العثمانية فيها الطائفة الأكبر من اليهود، فكانت بالنسبة له أرض خصبة لإدعائه .. فكرة خالف تعرف هي الفكرة الأكثر نجاحًا في الانتشار والشهرة، وما اعتقدش إنها كانت تفوت شخصية زي شبتاي ده .. وبالفعل بدأ في سالونيك بسلوك غريب جدًا، وبأفعال تثير الحاخامين بشكل كبير جدًا.

أحمد:

لماذا الذباب؟ لم لا أرى شيئًا آخر؟؟!! ربما نحل ربما عصافير .. أتساءل كل يوم، وأحاول أن أجد مخرجًا لهذا السؤال .. أذكر مثلاً كان دومًا ما تطلقه جدتي، كانت تقول: "لكل خرابه دبانها"، أي لكل مكان خرب نوع من الذباب، أي نوع هذا الذي أراه؟ هل صرت خربًا إلى هذا الحد الذي يجعلني لا أرى غير الذباب؟؟، هل ستصدقني حين أقول لك إنني أحيانًا أنسى أمر هذا الذباب، لا يختفي، لكن حين أنساه لا يكون موجودًا فقط بالنسبة لي، تكون لحظات عابرة ثم ما يلبث أن يعود بطنينه مرة أخرى، هل ستصدقني حين أذهب لأبعد من ذلك .. حين أغمض عيني أحس أي أرى، وللحظة يكون لدي هذا اليقين أي حين أفتح

عينيَّ سأرى الأشياء من حولي كما تعودت قبلاً، بالأمس كنت أحاول أن أرى، وللحظة رأيت ابنتي تجلس على كرسي تشاهد التلفاز، لو لم تصدقني فهذا حقك، فأنا لا أصدق كل شيء وأحياناً أشغل نفسي أكثر بالتفاصيل وتساؤلات أكبر من العمى ذاته، فأسأل مثلاً ما العمى؟ فلا أجد جواباً غير الذي أعرفه ببساطة هو ألا تبصر الأشياء، وأقسم العمى لأنواع كثيرة فعماي مجرد عجز عن إِبصار الأشياء المادية فقط، لكن هل أبصر ما لا قد يراه البعض؟ هل أبصر الحقيقة؟ هل أبصر الطريق الذي أسلكه في الحياة؟، أقسم لك أني أرى أناس يتخبطون في حياتهم كالعميان ويمشي بعضهم خلف الكلاب ليهدهوهم الطريق، وأحيان كثيرة أفلسف الأمر أكثر، فأقول إنني مبصر، لكن فقط أغمض عيني عن الحقيقة، فلا أرى غير الذباب، وبعض الوقت يغلبني شغفي للإبصار فأكون متعطشاً لأن أبصر الأشياء والألوان، وأجد ما أريد كسابق عهدي، وأحياناً أخرى أستشعر أني سجين في ثلج أبيض بارد أستشعر برودته بين جنباتي فأرتعد وأنكمش وأتعطش الدفء أكثر من أي شيء كمشرد في شوارع أوروبا تقتله البرودة والثلج، تنحصر أحلامه في معطف يدفئ جسده قليلاً، فالأحلام أيضاً تنكمش بالبرودة وخيبة

الأمل، لكن حين تأتي الحرارة لا تتمدد ثانية أبداً، ما أقسى برد الشتاء على الفقير!! وما أقسى الحياة على العميان!!.

سالونيك ١٦٥٥م

اجتماع للحاخامات في الكنيس اليهودي.

- إن هذا المدعو شبتاي تسيفي تخطى حده.. وأنا أحذركم منه.

- سمعت ما فعله من الحاخام حاييم.

- سيدنا الحاخام لا بد من إيقاف ما يفعله وإلا سيفتن اليهود.. أي حمة للدين نحن إن لم نوقفه.

- بالأمس سيدنا أولم ذاك الشبتاي وليمة جمع فيها الحاخامين وفجأة وجدناه قد أحضر مظلة زواج وأعلن زواجه بالتوراة، وقال إنها ابنة الإله، وكل مؤمن بها فهو زوج لها، وذكر بعدها اسم الإله دون أن يقول السيد أو العظيم يقوله صراحة .. وحين استوقفناه قال إنه المسيح المخلص، ويحق له نطق الاسم كما يشاء .. في أي شريعة ذكر ذلك؟؟ أيجرم على موشيه النبي، ويحل له!! أي لعنة حلت فوق رؤوسنا!!

- وماذا ترون أيها الوجهاء؟

- يطرد من سالونيك

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

سنة (١٦٥٨م) رجع شبتاي مرة أخرى من رحلة في أثينا واليونان بعد طرده من سالونيك لتركيا، وقرر إنه هيستقر في القسطنطينية، وعلى غير المتوقع استقبله اليهود والحاخامات فيها استقبالا عظيما جدا، حس في أول أيامه فيها إنه خلاص وجد المكان إلي يقدر ينشر فيه أفكاره، ويجمع أكبر قدر من اليهود حوله، لكن فكرة خالف تعرف إلي اتبعها قلبت عليه اليهود والحاخامات بشكل غير مسبوق في أي مكان قبله، في يوم من الأيام راح اشترى سمكة كبيرة ولفها في قماش وحطها في مهد، طبعا ده أثار تساؤل اليهود بشكل كبير جدا، إيه الراجل ده بيعمل كده ليه، فجوابهم إجابة يعني أثارهم أكثر قالمهم إن خلاص إسرائيل هيكون تحت رمز الحوت، والمهد هو إشارة للنمو البطيء للخلاص عند ظهور المسيح، فالناس بقت مش فاهمه أكثر وهو المطلوب بالنسبة له، مش بس كده بدأ يخالف الشريعة، ويغير في أحكامها، فمثلا احتفل بأعياد ثلاثة في أسبوع واحد، وأعلن ده، وده طبعا مخالف لنص الشريعة، وبعدين بدأ يستخدم الآية التوراتية "انصتوا إليّ يا شعبي ويا أمتي اصنعي لأن شريعة من عندي تخرج" إشعيا ٤١/٤ ، فالحاخامات فهموا إن ده مصيبة عليهم، وهيشق صف اليهود، فطلعوا بيان بطرده من اليهودية،

وده البيان الثاني لطرده، مش بس كده، كمان يجلد، فجلدوه أربعين جلدة، وبعدها أدرك شبتاي إنه جه المكان الغلط، فراسل أخويه يوسف وأليشع، وبعد شهور قدر يرجع مرة ثانية لإزمير، لكنه رجعها مكروه منبوذ، حتى إخوانه بدأوا يضايقوا من إالي بيعمله، وبدأ يآثر على تجارتهم، فكانوا حابسينه في أوضة حقيرة كده بعيد عن الناس، لكن طبعًا بعد فترة حتى حبسه ده كان بالنسبة لهم وبال أيضًا، فقالوا له خد فلوس وروح فلسطين، وبالفعل إدوه فلوس كتير عشان ميرجعش، ويظهر إن الفكرة عجبته فبالفعل سافر وترك إزمير سنة ١٦٦٢م، لكنه ما تركهاش وراح فلسطين على طول، مر بمحطات قبلها، كان من أهم المحطات دية جزيرة رودس وطرابلس في سوريا، والقاهرة في مصر.

مُنَى:

كيف يقنع الرجل من النساء؟؟ ما السر الذي يكتفي به الرجل بامرأة واحدة فقط؟؟، هذا الذي يشغل كل النساء طوال الوقت، أما أنا فلا أعرف أنه مكتفٍ ببعض عقله فقط، تشغله أشياء أخرى ورغم كونها أشياء غير عاقلة أكنُّ لها الحقد كأصدقائه من الأوراق وأصدقائه على المقهى، للنساء حساسية للأرواح أكثر من الرجال بكثير جدًا، كما أن

لديهن قدرة على الإنكار لا يفوقها سوى قدرتهن على قلب الحقائق، وجعلها دوماً في بؤرتهن، لنعترف بأن لكل إنسان قدراته الخاصة، هذه حقيقة، ولأكن متصفة هذه القدرات الذكورية في بعض الأحيان تبدو ساذجة جداً أمام قدرات النساء، فقدرة الرجل على الإنكار مثلاً محدودة كقدرة المرأة على تبين الحقيقة، فيبدوان متعادلين بإنصاف، لكنها تفوقه في تحسس الكذب وتميزه، فيبدو أمامها كطفل ينكر أكله الشيكولاتة، بينما فمه يصرخ بالحقيقة، ما الذي يحفظه في مكتبته؟ .. قضايا .. قضايا طوال الوقت، لا شيء في المكان إلا ويتنفس بالقضايا، وكتب الجريمة والقانون.. للمرة الأولى أعرف أنه بصدد أن يعد كتاباً يسميه "العدل المفقود والجريمة الكاملة" .. ما الذي يجمع العدل بالجريمة ما لم يكن عدلاً خرب الميزان؟؟ وعن أي جريمة كاملة يتحدث؟؟، المعهود فيما يصنعه البشر النقصان، لماذا؟ استخدم الذكاء الاصطناعي في الجريمة الكاملة .. تبدو اهتماماته ساذجة مثل أفكاره .. يحتفظ بمرآة جيدة في غرفة المكتب، ما هذا؟؟ أبدو زائدة بعض الوزن .. لا أظن تبدو هذه المرأة غير دقيقة.

مصر ١٦٦٢م

قصر رفائيل يوسف جلبى (مسئول الخزانة المصرية) القاهرة.

رفائيل يوسف جلبى يهودي ثري جداً، وصاحب منصب مسئول الخزانة المصرية أو ما يشبه محافظ البنك المركزي في أيامنا، وذاك اليهودي عاش في كنفه حوالي خمسون حاكماً يهودياً، ينفق عليهم من ماله الخاص، بينما يتفرغون لدراسة التوراة والمشنة والقبالة، ذاك العلم الباطني غريب الخفايا، والذي ينكره الحاخامات، وكأن شبتاي وجد ضالته فمكث في مصر عدة أشهر قبل أن يرحل لفلسطين بناء على خطة رحلته، خلال تلك الأشهر استطاع أن يكوّن صداقة قوية جداً مع رفائيل والحاخامات عنده، وكان حريصاً جداً على ألا يلفت إليه النظر، أو يعرض عليهم فكرة كونه المسيح المخلص، لكنهم شهدوا له بالعلم والذكاء، فقد كان متفوقاً جداً في الأمور القبالية وفقه ابن ميمون وكتبه التي أودعها قبل قرون من وقت هؤلاء .. لكن شبتاي بالرغم من كل ذلك في يوم من تلك الأشهر غلبته الخمر، فقام يرقص وهو يغني آية الأحكام من الوصايا "ويكلم الرب موسى قائلاً: كل إنسان من بني إسرائيل يعطي من نسله لمولوخ (إله وثني) موتاً يموت، كل إنسان يسب أباه أو أمه موتاً يموت، والرجل الذي يزني بزوجة آخر موتاً

يموت، وإذا لجأ رجل أو امرأة إلى الجن موتًا يموت، والرجل الذي يضطجع مع ذكر موتًا يموت" .. بدا كالمخبول للمرة الأولى أمام الحاخامات الحاضرين يوم الاحتفال الذي أعده رفائيل لوداع شبتاي، ثم قرر أن يكمل رحلته لفلسطين، ودون أي تفسير لما قام به رحل عن مصر علَّ الأيام تنسيهم ما صنع أو علَّه أراد أن يمهد لفكرته، فيظهر أحيانًا أنه غير طبيعي .. دع لخيالك التخمين الذي قد ترضاه لبواطن هذا الرجل.

الفصل التاسع عشر

أحمد:

من البلاهة أن تكلم نفسك في المرأة، هذا ما يعتقدّه الناس أو ما يرجحه المنطق، لكن احفظ عني ذاك السر فأحياناً كثيرة أحدث نفسي في المرأة، وأحيان أخرى أصفع وجهي لشيء فعلته وندمت، لم أشعر يوماً بغربة بيني وبين مرآتي، فأسمح لنفسي بالبكاء أمامها أو بالبصق على وجهي أو الصفع أحياناً، كما قلت لوجهي، فهي تعد عضواً مكماً للجسدي، لكنه خارجي، فهي من أحشائي، وإن بدت زجاجة مُصنَّعة، لا تملك روحاً، هذا ما يجعلني أؤكد لك أنها الآن لا ترى، لأنني ببساطة لا أرى، أنا أعمى ومرآتي أيضاً عمياء، لا أهذي، ولا أحاول أن أكون خفيف الظل، صدقني هذه قناعتي، علّ قناعتي أيضاً صارت عمياء، تحتاج لعصا العميان ذات الصوت المزعج، تتحسس الأشياء كما أفعل، وتتعرّ كما أتعثر فتخلق أفكاراً مزورة كصورتني في المرأة فأظنها حقيقية، إذن قناعتي عمياء منذ أمد، ربما قبل أن يصيبنني هذا العمى .. وما في ذاك؟ لست وحدي الأعمى القناعة، كل يوم أرى عميان بعاهاً مختلفة، بعضهم أعمى البصيرة، وبعضهم أعمى الحقيقة، وبعضهم أعماه المال، وبعضهم أعمته السلطة، كلنا عميان يا صديقي، وليست مرآتي فقط، أنا أيضاً

كنت أعمى عن كثير في تلك الحياة، وللمرة الأولى أبصرتها، وعلمت أن التغافل عنها مرض أكثر قسوة من عمى العين، وعمى الحب، وعمى الوقت، وعمى الذباب.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

وصل شبتاي تسيغي لفلسطين تقريباً صيف (١٦٦٢م) وقعد فيها سنة كاملة، وطبقاً لمؤرخيه قالوا إنه كان يملك بالأيام في غرفته في حالة عزلة كاملة، يطبق الأمور القبلية وإلي قولنا عليها قبل كده، أيضاً كان بيخرج للصحراء والجبال البعيدة، يملك فيها ليالي وأياماً طويلة، وكان يقول لمن تعرف عليهم إنه بيسمع أصوات موتى بتخرج من القبور، وده له معنى عند القباليين إيلي بيعتقدوا بتناسخ الأرواح زي بالظبط الديانات الهندوسية كده، لكن أيضاً بيعتقدوا بحلول الروح يعني إيه؟ يعني يمكن لروح الميت إنها تحل في جسم الحي وبالتالي يكون له روحين ويسموا الثانية "دبوق"، وعملية الحلول دية اسمها بالعبرية "جلجول"، لذلك كان بيزور كثير جداً قبور الحاخامات إيلي بيعتبروهم أولياء عشان تحل أرواحهم فيه .. الكلام ده موجود في كتبهم .. وقدر فعلاً شبتاي إنه يلم حواليه بعض اليهود إيلي تأثروا بيه جداً،

وتقدر تقول إنهم اعتبروه ولي من القباليين، في نهاية العام إلي قضاءه في فلسطين حصلت مشكلة عند اليهود في فلسطين، مشكلة مالية فاتفقوا إنهم يبيعوا واحد من اليهود لمصر عشان يلم لهم تبرعات من اليهود الأغنياء في مصر، فعرض شبتاي نفسه وقاهم أنا صديق لرفائيل يوسف صاحب الخزانة المصرية في ذلك الوقت، وبالفعل سنة (١٦٦٣م) رجع شبتاي لمصر للمرة الثانية، والمرة دية طولت عن سابقتها فقعد عند رفائيل سنتين، خلال السنتين دول قدر يقنع رفائيل وبعض الحاخامات إلي عنده بإنه المسيح المخلص، وإنه لسه لم يؤذن له إنه يعلن ظهوره.

في الوقت ده وأثناء إقامته عند رفائيل سمع قصة واحدة يهودية من يهود بولندا، قصتها كالاتي: بعد مذبحه حصلت في بولندا سنة (١٦٤٨م) وجدتها راهبات فأخذوها معاهم في الدير، وفضلت قاعدة فيه لعدة سنوات، وفي يوم هربت من الدير ولقوها جماعة يهود، فحكت لهم قصتها فأخذوها لهولندا، وهناك لقت أخوها إلي هرب بعد ما أبوها اتقتل في المذبحة دية، وبعدين أخوها أخذها لإيطاليا، الست دية بقي كانت مشهورة بإنها بتقرا الطالع، وتتنبأ للناس بأحداث وحجات زي كده، وقالت إنها هتكون زوجة المسيح المخلص لإسرائيل، وكانت جميلة جدًا وماشية على كيفها شويتين، سمع شبتاي بالقصة حس إنها جت له

على الطبطاب فكبرت في دماغه، وفعلاً أرسل لها يطلب يتجوزها فوفقت فوراً، زي ما تقول كده حلة ولاقت غطاها، فالحاخامات سألوه عن إنه إزاي يتجوزها، وهو عارف سمعتها البطالة، فقا لهم حاجة غريبة جداً، قاهم إن ده تقليد للنبي هوشع بن بئري إالي سفر هوشع على اسمه وفيه النص التالي "أول ما كلم الرب هوشع، قال الرب لهوشع (اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب)"، فاقتنع الحاخامات واعتبروه يعني .. فاهم، المهم احتفل بيه رفائيل، وعمل له زفاف أبهة خالص وصرف كتير جداً على الفرح ده.

بعد فترة وهو في مصر سمع عن إن واحد اسمه ناثان بنيامين أشكنازي ادعى إنه نبي في غزة، وناثان ده أيضاً كان من الحاخامات العارفين بالتوراة والمشيئة والقبالة، فقرر شبتاي يروح له يقابله ويشوفه، وبدأت بينهم صداقه كده من نوع خاص، قاله اعترف إني نبي أعترف إنك المسيح، وبالفعل قعدوا يلفقوا الدلائل على صدق كلامهم ده من التوراة والتفسيرات والحسابات، وبالفعل أخذوا بعضهم كده في رحلة لفوا فلسطين، وأقنع ناثان شبتاي إنه لازم يخبر يهود العالم إنه المسيح، وبدأوا فعلاً يكتبوا لليهود في العالم رسائل ويبعثوها.. وفي يوم ناثان في أثناء

درسه مع تلامذته أغمى عليه كده وكده طبعًا، وطلب من الحاضرين معاه التوبة، وبعدين قعد يهذي بالكلام ويقول: "اسمع يا ناثان إلى محبوبي وافعل كما يقول لك، اسمع إلى محبوبي شبتاي تسيفي"، وكرر الكلام ده ثلاث مرات، طبعًا التلامذة مش فاهمين فقا لهم إن شبتاي ده المسيح المخلص لإسرائيل.

مش بس كده، ده زوّر ورقة مكتوب فيها عن لسان أحد الحاخامات إلي ماتوا من زمن إن شبتاي بن مردخاي إلي هيتولد في سنة كذا وصفاته كذا وكذا هو المسيح المخلص لإسرائيل .. والناس كلتها وشربت كمان (يقصد أنهم خُدعوا) وبالفعل جه اليهود من كل أنحاء فلسطين لغزة وركب شبتاي فرس، وزفوه باعتباره المسيح المخلص طبعًا، وبدأ يغير في الشريعة أحلّ لهم يكلوا شحوم كبد الذبيحة مثلاً .. وبمجرد ما الخبر وصل الكنيس اليهودي في فلسطين طرد شبتاي من فلسطين، وكأن الناس كرهوا وجوده فعين ١٢ سبط يمثّلوا بطون إسرائيل، وأرسلهم في مناطق مختلفة يبشروا بيه، وفضل ناثان في غزة، في حين راح شبتاي لتركيا وقا لهم إنه هيبقى ملك، وسيقود السلطان العثماني أسيرًا.

من الغريب إني قرّيت من يومين بس خبر إن فيه واحد في الهند مدّعي النبوة، وبغض النظر عن مدى حقارة الراحل ده، مسكته السلطات

الهندية لأنه بيغتصب الستات أتباعه، ويطلب من الرجالة تنخصي، وفيه مئات عمليات الإخفاء بتتعمل في الهند على حس الراجل ده ..
الأعجب من كل ده إن أتباعه بعد ما الشرطة قبضت عليه متظاهرين قدام القسم وعاملين شغب .. وعددهم كثير، فالموضوع غريب فعلاً ..
ببساطة طول ما الناس فقراء وضعفة ومرضى وجهلة ومهانين دايماً هيفضلوا مؤمنين بأمل المخلص وهيفضل فيه إيلي بيستغلوا ده لصالحهم.

مُنَى:

الذباب .. ذاك الأبله يرى ذباباً فقط، لن أنكر أني أحياناً أستشعر الشاة بين جنباتي وكأنها نار تشتعل، لكنها تسعدني كثيراً، كامرأة أحياناً أحب الشاة حتى في زوجي الوغد جاف الحس، ذلك الذي يحدث له الآن لأكثر قسوة إن قدمت على قتله يوماً، وأحياناً أخرى حين يصيبني العقل أنفهم أن كل ما أعتقده هو تغير في الهرمونات لا أكثر، وأستثمر تلك اللحظات في التفكير والقراءة، فأبدو على تلك الهيئة الرزينة الصامتة، لكنى أعترف بوجود قاتل يغلي بين جنبات تلك الرزانة أحياناً كثيرة، ويخلط الأسباب حتى لا يتبينها هو شخصياً، فالظاهر هو رغبة في القتل،

لكن ما الأسباب؟ لم يسمح لي بزيارة أمي لأرى أخي الذي يمقته دون سبب وجيه، أو أنه منعني الخروج مع جارتني يوم الخميس، أو ما حدث مع بئينة، أسباب تبدو واهية للقتل، لكن عقلي يبدو متقبلاً لها بشكل كبير في أحيان كثيرة، حتى أنني أسأل نفسي متى سأقدم على تلك الفعلة؟ ربما مسكت سكين المطبخ ولوّحت بها في الهواء كفرسان ميدان الحرب القدامي، ثم يهدأ كل شيء وأشعر في إعداد الطعام، في تلك اللحظات أعرف أن حقيقة ما أريده فقط أن أستشعر حريتي من جديد، وأستشعر حب المحبين، وأستنشق نساماته حتى أشرق منها أو تشرق مني، أو ربما بعض كلمات الحب البلهاء، من ذلك النوع الذي تحبه المراهقات، يتعلمن الحب قبل أن يتعلمن أن يحفن شواربهن تلك طبيعة البشر، الإنسان كائن محب شئت الاعتراف أو الإنكار، كل ما أريده أن يشعرني أنني أهم من مسدسه مثلاً، أو من طاعة الأوامر، أو من أصدقاء المقهى، أو من مباريات الأهلي والزمالك، أو حتى من ذاك الذباب الذي يجلسني كل يوم أقرأ له عنه، يقول إنه لم يعد يرى شيئاً سوى الذباب، لذا يجب أن يعرف عن صديقه الوحيد في تلك الصحراء البيضاء، الذباب الذكر يتميز عن الأنثى بأن عينيه تبدووان ملتصقتين أكثر من الأنثى، والذباب يملك في كل عين حوالي أربعة آلاف عدسة سداسية الشكل بالتالي

رؤيته حادة وشاملة بشكل كبير، غير أن إدراكه الزمني أبطأ بسبعة أضعاف عن إدراكنا، فكأنه يرى الأحداث أبطأ سبع مرات من الإنسان، هذا غير قدرته الخارقة على الطيران، وقدرات أخرى أستطيع أن أتقياً لذكرها فقط، من كثرة ما يذكر الذباب، صار حديثنا يكاد يكون محصوراً فيه تقريباً، أكثر حتى من الجرائم والقانون، صرت شبه مقتنعة أنه على علاقة آثمة بذبابة، تدبر الأمر ستجد ما أقوله منطقياً جداً، لذا أحس وأنا أقرأ له عن الذباب وكأني أقرأ له عن عشيقته وُضِرَتي التي يجب أن أتقبل العيش معها تحت إكراهه، سأتقياً ثانية إن ذكرت الذباب.

قسم شرطة الويلى القاهرة ١٩٩٧م

يدخل رجل تبدو عليه صفات المواطن الشريف، يرتدي قميصاً عادياً وبنطالاً عادياً، ويبدو عليه بعض التعرق والإجهاد كحال من يستخدم المترو، يرتدي نظارة من النوع الصيني الرخيص الثمن، والرديء الصنع والخامة، قلق الوجه ومرتعد الصوت، متأثراً في حديثه قليلاً، وابتلع ريقه كثيراً، ربما أكثر من كلامه.

- لو سمحت عاوز المأمور.

- ليه خير؟

- عاوز أعمل محضر .
- ليه بقى تطلع مين حضرتك ؟ .. هو كل واحد عاوز يعمل محضر يقوللي عاوز يقابل المأمور ! .. أما عجائب .. هو المأمور فاضي !
- يا سيدي المحضر إلكي عاوز أعمله ده مهم وخطير جدًا .
- إتفضل عاوز تعمل محضر لإيه ؟
- جريمة قتل .
- قتل ؟ ! .. ودية فين ؟؟ في دايرتنا هنا إلكي تبع القسم ولا تبع أنهى دايرة ؟؟
- عارف الثلاثة إلكي ماتوا إمبارح على قهوة الوايلي إلكي ع الناصية دية ؟
- طبعاً إحنا ورانا شغلانة غيرهم .. إيه ؟؟ .. سمعت عنهم حاجة غريبة ؟
- أديك قولت حاجة غريبة .. ثلاثة صحاب يموتوا في نفس الوقت وفي نفس المكان، ومن غير تسمم ومن غير سبب ومن غير مرض !!
- تعرف إيه ؟
- أنا شوفت إلكي قتلهم .
- مين بقى ؟ .. كل إلكي في القهوة شهدوا إنهم ماتوا من غير ما حد يلمسهم يا محترم .
- ما إلكي قتلهم مش حد ؟
- وده يطلع إيه ده بقى .. فاظورة ؟؟؟ !!

- يا سيدي لا فاطورة ولا حاطورة .. إنت مش هتصدقني .. وديني للبيه
المأمور.

- ما تقول يا سيدنا ولا إحنا مش عاجبينك يعني؟؟

- لا إزاي يا حضرة الباشويش .. بس الموضوع خطير.

- طب سيادة المأمور مش هنا .. مفيش غير حاطاط النوباتشي أحمد بيه.

- خلاص ماشي .. وديني ليه.

- يا سيد إحنا مش فاضيين لك.

- مش هأخذ من وقته كتير صدقني.

الفصل العشرون

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

في تركيا العثمانية خرج اليهود يستقبلوا شبتاي تسيقي استقبال الفاتحين والملوك، وزفّوه في موكب كملك لليهود، وعيّن متحدثاً عنه.. واحد من أتباعه اسمه صموئيل فريمو، وده كان له ميزة كده عن غيره من أتباعه، بيتكلم بمبالغة وعاطفة مع سِنة حنية كدة، واليهود أما صدقوا، المهم فضل يلف تركيا ويرسل الرسائل لحد ما في يوم وصل إزمير بلده إلي إتولد فيها .. وخرج اليهود يستقبلوه كملكهم ومسيحهم المخلص، ونفخوا في الأبواق وهتفوا: "عاش ملكنا عاش مسيحنا"، وبدأ يُدعى باسمه في المعبد اليهودي، ويرسل الرسائل بالنص التالي من الألقاب "ملك ملكنا سيد السادة الذي سيجمع شتات بنى إسرائيل والذي سينقذنا من أسرنا، المسيح الحق والأسد الساهوي الذي سيدوم ملكه للأبد ..."، وهكذا ألقاب كتير بقى.

من اللطيف إنه قسّم الأرض إلى أقطار، وعيّن عليها ملوك من اليهود يمثلوا ملوك يهودا وإسرائيل، فواحد مثلاً يمثل داود، وواحد سليمان وهكذا، وعيّن واحد على أحد هذه الأقطار، شحات من اليهود، فراح للشحات ده واحد من أغنياء اليهود وعرض عليه نص ثروته مقابل

التنازل ليه عن الملك ده، فرفض، فعرض عليه أكثر من النص فرفض وقاله ولو حتى ببالك كله مش هتنازل عن ملكي .. مُلك مين يا ابني إنت صدقت! كان خد الفلوس وخلاص مش كده .. مع الأسف ناس كتير بتنخدع ومع الأسف ما بيؤمنوش بالأنبياء الحقيقيين .. ما علينا المهم .. قسّم بعد كده الأرض لنصفين وعيّن أخوه أليشع ملك ملوك إسرائيل، وأخوه الثاني يوسف ملك ملوك يهودا، وعين زوجته سارة بتاعة بولندا ملكة فلسطين.

مش بس كده، ده أصدر فتوة بقتل أي يهودي غير مؤمن بيه، حتى في يوم السبت، وقال من يقتلهم يثاب ببركة دائمة، لك أن تتخيل بقى بحر الدم إالي كان لليهود غير المؤمنين بشبتاي ده، ومنح نفسه ألقاباً غريبة أكثر، وصلت بيه إنه وصف نفسه بالإله وبصفاته، وأتباعه سموه "أدينونو ملكينو يوروم هودو"، ومعناها "سيدنا وملكنا عظم جلاله"، وطبعوا نسخ جديدة من الكتب وعليها مكتوب "شبتاي تسيفي مسيح رب يعقوب"، وتحتها "السنة الأولى من تجديد النبوة والمملكة"، وسابوا التاريخ العبراني، وأصبحت الرسائل إالي بيرسلها لليهود تقرأ بصوت عالي في المعبد ويستنوها، وطبعا غير في الشريعة اليهودية زي ما هو عاوز، وبقي يخرج اليهود في الشوارع رافعين صورته،

ويضربوا بالدفوف، وكسدت التجارة لأن اليهود سابوا تجارتهم في انتظار تحقيق مملكتهم المنشودة بقى، وتلاقي كتب التاريخ مليانه شكوى الناس من اليهود في بلاد كثير جدًا، ومنعهم من الخروج، أو حمل صور شبتاي وتمردهم على الدول إلي كانوا فيها، وتهدهم للمسيحيين بمسيحهم، لدرجة إن بعض المسيحيين فعلاً آمنوا بشبتاي ده.

من الغرائب أيضًا إنه طلب منهم التوبة، فبقى اليهود يتوبوا بطرق غريبة، يحفروا قبور ويناموا فيها ويدفنوا أنفسهم، ما عدا رؤوسهم، أو يغطسوا في بحر متجمد، أو يجلدوا أنفسهم، أو يخزّوا أنفسهم بالسكاكين وهكذا.

جه في يوم وقال شبتاي إنه هيروح للقسطنطينية نفسها عشان يتم الجزء الأهم من مهمته، كبرت في دماغه ومتعرفش غروره صوّر له إن السلطان محمد الرابع هيسلم له، أو البارانونيا (جنون العظمة) إلي عنده صورت له إيه بالظبط .. وبمجرد ما الخبر وصل للسلطان قبض عليه بمجرد وصوله إلي اتأخر بسبب عاصفة قابلتهم في طريقهم ٣٩ يومًا.

أحمد:

يومًا ما كان لدي اليقين أن ثمة أشياء كثيرة تدخل من شباك غرفتي، لا ضوء الشمس فقط، أو بعض الأشعة الكونية، تدخل أيضًا أشعة خاصة دونها يتأثر الإنسان ويصاب بالجفاف في بعض أعضائه كالقلب، ثم يصاب بالجمود، ثم التصلد ثم الذبول، ثم الموت كتلك الأوراق الخضراء التي تقوم بعملية البناء الضوئي على نهجها يقوم الإنسان بعملية الحياة ذاتها، وكما تذبل الأوراق حين تحجب عنها الضوء يذبل الإنسان حين تحجب عنه الأشعة تلك، مع بعض التقرحات كأثر جانبي للحرمان منها .. تلك الأشعة غير المسماة، مصدرها دومًا الشباك أو الهاتف أو رسائل مكتوبة أو بعض الوهم، فحياة الإنسان دون بعض الوهم لا تطاق، جافة مملّة، وأحيانًا بلا أي معنى، الحب هو الوهم الأكبر، دونه أنت منبوذ كالمجذوم. والمنبذون هم الخطر الأكبر على أي مجتمع، فمنهم يخرج القتلة واللصوص من ذاك النوع الذي لا يملك قلبًا أو عقلًا يفهم شيئًا غير الكره، والعقل الكاره هو عقل أفتك من أي سلاح دمار شامل، ولا يمكنك أن تنزعه، فهو غير مرئي يتغلغل كأفعى سمها يسرى في عروقها كنهر حقد متدفق، يكاد ينفجر غيظه لولا أن عليه أن يختبئ، كونه من ذوي الدم البارد لأمات العالم كله دون ذرة ندم،

كالحب الكره ليس مطلقاً، هو كأشعة الشمس الضارة بالنسبة للنافعة، فلولاهما لما تبين لنا أن الشمس أيضاً تضر وتنفع، آه .. الحب .. نسيت أمره لازلت أحفظ منه بين جنبات نفسي القليل والذكرى، أقمت له قبراً في قلبي، أزوره بين الحين والآخر، ألوّح له، وأقرأ جملة كتبته على قبره " ارقد بسلام"، وأضع الورود وأرحل كأني زائر لقبر حبيب، والحب بالنسبة لأعمى مثلي يتعدى كل الأمور الحسية، أتذكره فقط حين أتسوله منها، وقت جلوسها معي حتى وإن كانت تقرأ لي عن الذباب.

قسم شرطة الويلى ١٩٩٧م

في مكتب قديم الأركان متواضع المحتوى، لكنه متكامل بشكل كافٍ ليكون جديرًا براحة الضابط الجالس خلفه، قرع الشاويش الباب، ثم دخل إلى غرفة المكتب المكتوب على لافتة قديمة من النحاس خارجه "المعاون"، غاب دقيقة واحدة ثم خرج ليخبر ذلك الرجل بسيط الهندام أن يدخل للبيه الضابط، على حسب قوله، وألا يطيل عليه في الحديث، إن كان الأمر لا يستحق، وحذّره بشكل مباشر ألا يتحدث في تفاصيل جانبية لأن أحمد بيه ليس من ذاك النوع الذي يجب أن يضيّع وقته في التفاصيل غير المهمة، ثم فتح الباب بعد ما قرعه للمرة الثانية،

وُسُمح له بالدخول ليرى شخصًا تظهر ملامحه بالكاد من خلف دُخان سيجارته المشتعلة، يبدو غير عابئ بدخوله، مشغول جدًا بأوراق أمامه، وبين الحين والآخر يرتشف من كوب زجاجي امتلأ بالشاي، حينها شعر صاحبنا بالخرج، أو علَّه الخوف المصحوب بالندم على ما أقدم عليه، خصوصًا أنه لا يأمن ردة فعل ذلك الضابط حين يسمع قوله، فبين فوضى تلك المشاعر أثار الصمت حتى ينتهي الضابط من تصنُّعه الانشغال بالأوراق التي أمامه، ولم يتمكن من إخفاء شعوره بالسخط كرد فعل لما يفعله الضابط من تصنُّع، بعد دقيقة أو ربما أكثر من وقوفه صامتًا أمام مكتب "ح ظابط النوباتشى" رن هاتف المكتب لفترة قصيرة جدًا أسرع الضابط برفع الساعة وكأنه كان ينتظر أن يرن:

- ألو .. تمام يا فندم .. تمام يا فندم .. شكرًا معاليك.

بدت البشاشة بعض الشيء على وجه الضابط، حتى نظر إليه فاخفت تدريجيًا حتى تحولت لتقطيب ثم سأله:

- "فيه حاجة؟"،

ابتسم الرجل ثم قال:

- "أنا يا فندم إلی الشاويش ...".

لم يكمل قوله حتى قاطعه الضابط أحمد:

- "أيوه .. أيوه .. قال لي إنك عندك معلومات عن حادثة إمبارح".

- أيوه يا فندم .. أنا شوفتهم بعيني على القهوة.

- آه .. وإيه رأيك مش غريبة شوية .. ثلاثة صحاب على قهوة واحدة يموتوا في نفس الوقت وبدون أسباب.

غريبة أن يسأل الضابط شاهداً متطوعاً عن مدى غرابة الجريمة .. لذا بدا الرجل متخوفاً أكثر حتى طغى على وجهه الشحوب، وبدا متلعثماً في كلامه أكثر:

- الحقيقة يا فندم فيه شيء حصل قبل الحادث بدقائق.

- أيوه شيء إيه بقى .. هاه .. يعني مثلاً الواد القهوجي سمهم؟! .. ده تقرير الطب الشرعي أنه بيقول إن مفيش أثر تسمم، ولا فيه أثر كدمات ولا رصاص ولا شيء اخترق جسم واحد منهم، ولا كان فيه حد منهم عيان بمرض مزمن ولا ميت .. إيه هتقولي كائنات فضائية جم قتلوهم؟؟

- لا يا فندم .. دبانة.

- آه .. لا ده إنت جاي تهزر بقى .. يا أمين عبد الهادي .. خد الأفندي الحجز .. يمكن يفوق هناك .. مش ناقصة .. واحد مصطبح وجاي يهزر.

- يا فندم أقسم لك إني بتكلم جد .. أنا ماليش في المخدرات ولا في حاجة
أنا راجل موظف محترم.

لم يستمع الضابط لمحايلات الرجل .. ولم يعتبر ما قاله منطقياً بأي حال
من الأحوال .. وكان على المسكين أن يقضى بعض الوقت في ضيق
ورطوبة وظلمة زنزانه القسم.

منى:

أنا امرأة، لست حجرًا في مكانه أو تمثالاً لامرأة، أطوق للحديث وأحياناً
كثيرة للشكوى.. للبكاء .. للنحيب .. لأغنية أُمي في طفولتي: "مرايتي
يا مرايتي مين أجمل من بنتي .. شعورها السود وعيونها الكحيلة"،
أوتار قلبي تتقطع بكاء كلما اشتد قوس الذكريات، أي ألم اخترعته
الحياة!! .. خطوط .. مجرد خطوط يرسمها شيء غير مفهوم لنا يُسمى
الزمن.. خطوط على جانب العينين .. على الجبين .. أسفل الذقن ليعرفنا
فقط أننا كبرنا، لم تعد شعورها سود يا أُمي، خط الشيب في مرآتها، نعم
مرآتها فقط هي التي شابت، الزمن يمر فقط في المرآة، أما أنا، أنا لم أكبر،
أو علني تلبست روح أُمي فصرت أتصنع حياتها كأنها حياتي، وأستعير
كلماتها كأنها لي، وأنشد أغنياتها لطفلي، وأحياناً لنفسي، وأهتز للأمام

وللخلف كأطفال الملاجئ المتعطشين للحنان، فتلك لازمة لكل متعطش للحنان.

الرجال ظالمون أو علَّهم قليلو الفهم، فالنساء لا يردن من الحياة أكثر من حق الارتواء بها، فدون الماء تذبل الورود، ببساطة أريد أذنًا تسمع، وصدراً رحب، وحق الشكاية، ومشاركة البكاء، بلا أي شيء، حب منزوع المنغصات كنزها حرة في حديقة عادية، مع حق افتراش الأرض والجلوس دون منغصات، أي درجة من البؤس تحيا النساء في عالمنا العربي!!، بؤس لدرجة ترجمة الابتسام لإعجاب، وكلمة صباح الخير لقصة حب، وحلقتين في إصبع اليد اليمنى كتصريح كامل بالعبودية المشروطة، وفي اليد اليسرى باعتزال العالم، لذا ببساطة نفهم الحرية من منطلق الانحراف الكامل. فالعبد حين يكفر بعبوديته يسيء لربه، لا شيء، فقط ليثبت لنفسه أنه حر.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

وبالفعل أول ما وصل شبتاي للقسطنطينية قبض عليه الوزير أحمد كوبورلو، ولما سأله عن سبب قدومه ادعى إنه رجل دين من أورشليم وجهه عشان يجمع التبرعات لفقراء فلسطين، طبعاً الوزير ما اقتنعش

فأمر بسجنه في قلعة في جزيرة غاليلوى عشان يبقى بعيد عن العاصمة، وفي نفس الوقت يمنع أتباعه من الوصول إليه .. والحقيقة أتباعه كانوا يوصلوا له عن طريق الرشاوى، ويوصلوا رسائله لليهود في كل العالم، وأطلقوا على القلعة دية اسم "مجدل عز"، وتعني برج القوة، وأثناء الفترة دية غيّر شبتاي في الشريعة بشكل كبير، ومنع صيام أيام كثيرة جدًا، وأقر صلوات جديدة وشعائر جديدة، من ضمن هذه الشعائر زيارة قبر أمه والصلاة عنده، وقال إن هذا الطقس يعادل الذهاب لأورشليم وتقديم ذبيحة فيها، طبعًا كل ده مش عاجب الحاخامين، وبالتالي أرسلوا له أكثر من مندوب يناقشه في الأمر في سجنه، وكان مُصر بشكل كبير على موقفه، ولما انقطعت بيهم السبل قرروا يشتكوا للسلطان نفسه.

الفصل الحادي والعشرون

أحمد:

اليوم زارني العقيد مصطفى حلمي في بيتي، وللمرة الأولى أكره أن يزورني أحد، صرت أتجنب الناس قدر المستطاع منذ ذلك اليوم، ببساطة لا يمكنني الاختلاط مع أشخاص أستشعر في نبرات صوته الشفقة والفضول أحياناً، كذاك السؤال مثلاً الذي طرحته زوجة العقيد: "كيف سأرتب للغد بعد أن أصبت بالعمى؟"، لم أبادر بالإجابة، بدا السؤال صاعقاً أكثر من كونه سؤالاً عادياً، أسندت ظهري إلى الأريكة التي أجلس عليها أستشعر الوحدة من كل خلية حية في جسدي، وحين أطلت الصمت أدركت أنني لن أجيب، فشرع زوجها بالحديث عن أمر آخر، بدا اعتذاراً عن سؤال زوجته أكثر من كونه حديثاً عادياً عن أسماك القرش البيضاء، بماذا سأجيب تلك المرأة التي تكاد تطير في الهواء من التفاهة، ربما أتحير ألفاظاً بسيطة تنفي بالغرض، أو أكمل في صمتي فيجبنني ذلك الخطأ، بعد برهة أعادت السؤال مرة أخرى على زوجتي فأجابت بدبلوماسية شديدة "ربنا يكرم"، رغم وقاحة السؤال سأجيب، بالنسبة لي أتمسك بالأمل، فكل يوم أستيقظ فيه أشعر أنني مبصر، فقط أغمض عيني وسيأتي اليوم الذي يكون بمقدوري أن

أفتحها لأرى الأشياء على حقيقتها، وفي تلك اللحظة لن أغمض عيني عن أشياء كثيرة، أقلها تلك الرشاوى التي يتقاضاها زوجك العقيد مثلاً، أه لو يرجع بي الزمان قليلاً كنت سأتحين كل فرصة أبصر فيها حقيقة، لكن الزمان لا يرجع أبداً للوراء هو أيضاً لص، لص عجوز وقح تصرخ في عينيه الوقاحة يقف في غرفة مظلمة مختبئاً في ركن ينتظر أن يتلصص أيامنا والأمنيات، ويختفي دون أثر كعادته، ولا حتى دليل واحد على الجريمة، لذا دوماً ما ننسى ما سرقه، وحين يأتي مرة أخرى لا نذكره، ولا نذكر ما سرق، أذكر ذلك اللص الذي أطلقنا عليه اللص الشريف يسلم نفسه للقسم كلما سرق شيئاً ويقول في كل مرة نفس الجملة في اعترافه "يا بيه أنا دائماً كنت عارف الصح، لكن ما اعملوش أصله طريق متعب، وأنا راجل محبش أتعب نفسي"، ويردد ذلك في كل مرة بإيمان صادق، وأقسم أن ذلك اللص أكثر عمقاً من تلك المرأة.

قسم شرطة الويلى ١٩٩٧ م — مكتب الرائد أحمد عادل.

- الحادثة الثانية في نفس الأسبوع.
- حادثة إيه يا سيادة المقدم؟
- الثلاثة بتوع القهوة .. أهه اتفضل إقرأ .. المنشور أهه لسه واصل.

- في الزمالك؟! -

- أيوه يا أحمد بيه.

- وكام بقى المرة دي يا سي طارق؟؟ -

- خمسة .. والغريب إن كلهم تُجَار رز .. وكانوا عاملين اجتماع في كافيه مقفول.

- والطب الشرعي طلع؟ -

- لسه يا فندم .. بس تقريباً هيطلع نفس النتيجة.

- نادي لي الأمين محمود من بره.

يرفع سماعة التليفون ويتنظر الرد على الرقم المطلوب، ويجب بكلمات قصيرة عن مكالمته تبدو متوقعة ممن يتصل به "طبعاً يا فندم .. زي ما قولت لمعاليك .. الموضوع فيه إنَّ .. آه .. آه .. آه .. فعلاً .. غريبة .. يعنى الراجل إلي في الحجز فعلاً عنده معلومات بقى .. عموماً هبلغ حضرتك .. مع السلامة .. ألف سلامة". ينتبه للأمين محمود ويقول له على عجلة:

- "هاتلي الراجل بتاع إمبراح ده من الحجز".

مُنَى:

آسفة عما قلته بالأمس.. ربما ذلك ناجم عن تَغْيَر ما في الهرمونات.. كل ما أعرفه أنه يبدو لي اليوم مسكينًا جدًّا، بمجرد أن رحل العقيد وزوجته أغلق على نفسه باب الغرفة، وشرع في البكاء، لم أره بهذا الضعف من قبل، زاد ذلك من فضولي لمعرفة الحقيقة، ولا شيء آخر غير الحقيقة، لا بد من إجابة عن تفاصيل يوم الحادث الذي يهرب كلما سألته عنه، ما تلك الدماء التي كانت تلتطخه؟؟ لم أعد أصدق أن ذلك حادث سيارة.. فالسيارة سليمة، وليس بها أي خدش أو علامة تنم عن حادث، يمنعني الخوف أحيانًا من أن أفتش في أوراقه، فالرجل العصبي بمثابة قنبلة موقوتة في البيت، ولولا بعض العقل مني لقابلت الانفجار بالانفجار، لأدمر كل شيء غير آسفة عليه، لكن السياسة يا صديقتي عليك بالسياسة، تأملي وجوه الساسة المفعمة بالابتسامات البلهاء، وكوني مثلهم تمامًا، وكلما ازدادت تلك الابتسامة زدت حنكة وانتصارًا، وفي الوقت المناسب رُدي الضربة، بينما يرتع العدو في الغفلة، هي كذلك حرب دون موارد، الانتصار فيها بحسب المعارك، فكما أن الاستسلام أحيانًا يرتدي قناع النصر، كذلك النصر أحيانًا يرتدي أقنعة الاستسلام ولو بشكل مؤقت.

جامعة القاهرة ١٩٩٨ م

- قبل ما يذهب الحاخامون إلي ضد شبتاي للسلطان العثماني ظهر واحد اسمه نحميا كوهين، ادعى إنه المسيح ابن يوسف، وإن ما يدعيه شبتاي غير صحيح، لأن صفات "الماشيح" التوراتي لا تنطبق عليه والي هي:
- أن يكون من نسل داوود.
 - أن يسبقه مسيح مبشر له من نسل إفرام ابن يوسف.
 - المسيح ابن إفرام يخوض معارك يُقتل فيها على أبواب أورشليم.
 - يظهر النبي إلياهو ليجمع شتات اليهود ويبشر بالمسيح.
 - يظهر المسيح ابن داوود ويحكم اليهود ويدخل أورشليم ويجمعهم من الشتات.

وبالفعل راح لشبتاي في سجنه وفضل يجادله عن الموضوع ده، وشبتاي يرد عليه يقول إن المسيح ابن يوسف ظهر وقتل في مذبحه جلمنيسكى في بولندا سنة ١٦٤٨م، وبعد أيام من الجدل بينهم قرر نحميا إنه يفسد الأمر على شبتاي، وبالفعل ذهب للسلطان العثماني، وأظهر إسلامه عشان يحمي نفسه من أتباع شبتاي، ويكسب تعاطف السلطان، وبدأ يحكي له عن مدى خطورة شبتاي وما يدعيه، وبالفعل استدعى السلطان العثماني محمد الرابع شبتاي لقصره بأدرنة، وبالفعل

أحضروا شبتاي من سجنه مع بعض الحاخامين من أتباعه وفي الطريق أخبر شبتاي أتباعه إنه خائف من لقاء السلطان، فتعجبوا منين بتقول إنك هتأتي بالسلطان العثماني أسير، ودلوقت خائف من مقابلهته.

عاوزين نتخيل المشهد مع بعض.. غرفة السلطان العثماني والحاشية حاضرة، من بينهم مفتي الدولة، وطبيب السلطان الخاص، واللي كان يهودي واسمه موسى بن رفائيل وأسلم فيما بعد وسمى نفسه مصطفى حياتي زادة، واللي قام بالترجمة بين شبتاي والسلطان، وشبتاي ومعه أنصاره من الحاخامين.

أدرنة – قصر السلطان العثماني محمد الرابع ١٦٦٦م.

- إن ما تدعيه أيها الحاخام لا يرقى لقناعتنا .. ترجم له مصطفى زادة.
- مولاي إنه يقول إنه صادق.
- ليبرهن لنا على ذلك الصديق إذن .. سنجرده من ملابسه، وليكن مرمى للسهام، فإن ثقت السهام جسده يكن كاذباً ودجّالاً، وإن لم تثق به يكون صادقاً.
- مولاي يقول إنه مجرد حاخام يهودي عادي فقير، وليس المسيح، وليس له فضائل عن غيره من الحاخامين.

- أنت أثرت القلاقل في الدولة العثمانية العلية، وكنت تخطط لانتزاع جزء منها، وهي أرض فلسطين، لذلك سوف تعاقب عقاباً أليماً.
- مولاي ماذا لو أسلم؟
- سننظر في أمره إذن.
- مولاي إنه يقول إنه يفكر في اعتناق الإسلام منذ أمد، ويشرفه ذلك باختياره دون إكراه من أحد.

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

وبالفعل قَبِلَ السلطان العثماني إسلامه، وأمر إنه يبدل ملابسه، وغَيَّرَ اسمه واختار له اسم محمد عزيز أفندي، ومنحه لقب تشريفي "قابجي باشى"، وتعني "حارث أبواب القصر"، وأمر له بمرتب شهري، بالفعل كانت صدمة لأتباعه، وارتد كثير من أتباعه عن منهجه بالرغم من التفسيرات الغريبة إلي بدأ بعض أتباعه بنشرها، واللي منها إنه دخل الإسلام لا من أجل أن يخلص المسلمين، بل من أجل أن يحطمهم، وناس تانية قالت إن لاهوته غادر ناسوته على أن يعود مرة أخرى ويتنصر (القصد هو أن روحه المقدسة غادرت جسده، وأصبح شخصاً عادياً إلى حين أن تعود مرة أخرى ويرجع مقدساً)، وناس تانية قالت إن

ده طبيعي، ومثله في ذلك مثل موسى حين عاش في قصر الفرعون كالفرعون إلى حين، وهذا يثبت أنه المسيح حقاً وتفسيرات أخرى كثيرة. طلب شبتاي من أتباعه التظاهر بالإسلام، وبقي يذهب لليهود في المعابد يطلب منهم إعلان إسلامهم، والغريب يذكر إنه كان يقيود الصلاة بنفسه في المعبد ويقرأ من التوراة، ثم يخطب طويلاً فيهم، ثم يظهر نسخة من القرآن ويقرأ لهم منه بعض الآيات، وعلى مرأى ومسمع من الدولة العثمانية كان يجمع شبتاي بين الطقوس اليهودية والإسلامية، لحد ما جه اليوم إلي اتمسك فيه بالزي اليهودي أو الطاليت، وتم نفيه إلى ألبانيا سنة ١٦٧٣م، وبعد عام ماتت زوجته سارة وتزوج من ابنة حاخام من أتباعه اسمه يوسف فيلسوف .. وفي يوم أخذ أتباعه لمسجد وصعد على المنبر وبقي ينشد بصوت عالي أسفار ومزامير العهد القديم، واعتبر أتباعه إن دية معجزة لأن الحكومة العثمانية لم تعاقبه على فعلته، وبقي يرسل رسائل لأتباعه، ويمضي شبتاي محمد تسيفي، وفضل على كده لحد ما مات ١٦٧٦م ودُفن في مكان قرب البحر حدده بنفسه قبل ما يموت، والحقيقة قيل حول موته قصص غريبة، من ضمنها إنه كان يشوف دبان كثير من غير ما يكون موجود بالفعل.

لحد النهارده محدش عارف الراجل ده كان عاوز إيه بالظبط.. بس الأقرب للمنطق هو إنه بالفعل كان يخطط لفتنة في داخل صفوف المسلمين، بدليل أتباعه إلي فضلوا موجودين، وإلي كانوا أحد الأسباب، والمعاونين في انهيار أركان الدولة العثمانية، وده موثق في التاريخ بالفعل دون افتراء، وإلي عاشوا ازدواجية ادعاء الإسلام في العلن وممارسة الطقوس إلي وضعها شبتاي في الخفاء، وأطلق بالفعل العثمانيون على الفرقة دية من أتباع شبتاي، والي دخلوا الإسلام لفظة "دونمة" أو "دونما"، والي تعني بالتركية "المرتدون أو المتحولون".

شكرًا.. أشوفكم المحاضرة الجاية.

الفصل الثاني والعشرون

المنوفية – شين الكوم (مقر اجتماع الطائفة) ١٩٥٨م.

يقوم المثلث بالأبيض سكرتير الجلسة ويعلن عن رقم الجلسة، كما يعلن عن أنها جلسة طارئة ومهمة بالنسبة للطائفة.

رئيسة الطائفة: طبعاً مش محتاجة أفكركم إحنا كُنا فين ووصلنا هنا إزاي، ومفيش حد فيكم يقدر ينكر إن جدي الحاخام ورئيس الطائفة لسنين عمل إيه، وضحي قد إيه عشان الطائفة دية تفضل موجودة، ونفضل على عهدنا مع أبونا إسرائيل والمسيح الحق شبتاي تسيفي .. وجه الوقت إلی لازم نحافظ على نفسنا نحافظ على كل "مئاميم" (كلمة عبرية تعني "المؤمنون" وهي ما يطلقونه على أنفسهم) ونحافظ على "القهل" ده لحد آخر واحد فينا (قهل: الاسم الذي يطلقونه على معبدهم) .. إحنا أمرنا انكشف ولأزم نصلح ده بأقصى سرعة حتى لو بالدم .. العمارة الجديدة إلی على الناحية الثانية من البحر كشفت كل حركتنا يبسكنها واحد اسمه حسن عطوة راجل على المعاش ومراته له بتتين متجوزين بيزوروه من وقت للتاني، وولد مسافر بره مصر .. لازم نتخلص من أي حد يسكن الدور ده، وأنا فكرت وملقتش قدامي غير إننا لازم نتخلص من حسن عطوة للأبد، وبدون ما نثير أي شكوك بيان

كحادث عادي زي تسريب غاز مثلاً .. والخطة هيروح ثلاثة جوزيف وإلباهو وجدعون في زي عُمال من مصلحة التليفونات في وقت نكون متأكدين إن هو ومراته بس في البيت، ومفيش حد من عياله بيزوره هتستخدموا بخاخات غاز أعصاب قاتل قدرت أحصل عليها، بخة في وش كل واحد فيهم هيتخنقوا فوراً، تنقلوهم على سرايرهم وبعدها تفتحوا أنبوبة الغاز إلي في البيت، وتقفلوا البيت كويس وتخرجوا بشكل عادي جداً .. بعد كام يوم هيجي حد من بناتهم يزورهم ويكتشف الجثث ويعرفوا إنها مجرد حادثة، أمهم نسيت الغاز ونامت وسيبوا الباقي ليه، هقنع بناتهم إن الشقة دية شؤم وأخليهم يسبوها، وساعتها نقدر ناخذها إحنا ونضمن إن محدش تاني هيكشفنا منها.. حسن عطوة لازم يموت.

قرار تاني وعاجل يتم تعמיד آية بنت جدعون وإلحاقها بالطايفة فوراً.

سارة بنت عزرا: لكن ...

الرئيسة: انتهى .. عارفة إن مخالف للقوانين، لكن مسيحننا شبتاي أمر بتشريع جديد وأوصاني بيه، وما تنسوش إن آية هي حفيدة جدي إلحاحام وبنتي يعني لا يمكن تخرج عن طوعنا .. إحنا محتاجين نزود عدد الطايفة، وتجنيد بناتنا هيساعد كثير، خصوصاً لو طبقنا فكر

جديدة، نربي عليه بناتنا من سن المراهقة.. والفكرة دية أخبرني بيها
سيدنا شخصياً في الرؤيا .. لازم بناتنا ما يكتفوش بالجواز مرة واحدة في
كل جواز تخلف من جوزها ولو حتى عيل واحد، وبعد كده تتلكك له
لحد ما يزهرق ويطلقها وتتجوز تاني عشان تخلف تاني .. وهنسمح
للشباب بحضور يوم الخروف في كل طقوسه.. ده أمر سيدنا ومليكننا
مسيح الرب الحقيقي شبتاي.. إيه كمية الدبان دية؟.

قسم شرطة الويلي ١٩٩٧م

الرائد أحمد عادل: اتفضل اقعد .. تشرب إيه؟

الموظف: شكرًا.

الرائد: إنت لسه زعلان بقي .. بتدخن؟ سيجارة؟

الموظف: شكرًا يافندم.

الرائد: قولت لي بقي اسمك إيه؟

الموظف: محمود أبو الفضل .. موظف في مصلحة الجوازات.

الرائد: ماشي يا أبو حنفي.

محمود: ليه يافندم أتحبس؟!

الرائد: خلاص بقى يا أبو حنفي .. حقك علينا .. ما هو برده يعني حط نفسك مكاني هتصدق حد يجيي يقولك قتلتهم دبانة .. ثلاث شحوظة دبانة تموتهم .. بالعقل كده يعني !!

محمود: يا فندم أنا شوفتها بعيني ، ومستعد أحلف لك على كده.

الرائد: يعني مُصر على أقوالك دية ؟!

محمود: أيوه.

الرائد: إنت شكلك راجل طيب .. ويظهر إنك محتاج ترتاح شوية بس كده.

محمود: أنا فعلاً تعبنا بس مش مجنون .. أنا بقولك الحقيقة صدقني .

الرائد: شوف يا حودة أنا مُضطر أصدقك لأنني معنديش أي سبب تاني .. النهارده اتكمرت الحكاية دية تاني، وفيه خمسة ماتوا وبرضة على قهوة .. فياربت لو عندك حاجة فعلاً تخش العقل قولها.

محمود: طب اسمعني .. هقول إيلي عندي معجبكش كأني ماقولتش حاجة.

الرائد: قول.

محمود: قبل ما يموت الثلاثة دخل القهوة زي دبور أو دبانة بس حجمها أكبر شوية، حاولت أهشها خبطت في ظهر إيدي حسيت زي ما تكون

كورة حديد، بص حضرتك إيدي فيها كدمة زرقة إزاي .. غير إن رَنَّتْها
زي ما تكون ماتور، مش زي باقي الدبان .. شوفتها بتطير عند الثلاثة
دول، ووقفت شوية عند كوبيات الشاي إلی قدامهم وهم بيحاولوا
يهشوها، وبعدين خرجت بره القهوة واختفت.

الرائد: عايز تقول إنها حطت لهم في الشاي سم مثلاً؟؟

محمود: معرفش .. أنا قولت لحضرتك إلی حصل بالتفاصيل.

الرائد: ماشي .. ماشي .. روح يا محمود وسيب لي رقمك .. وساخني
على حبستك إمبارح دية .. اتفضل.

مكتب مأمور قسم الويلی في اليوم التالي.

- جرى إيه يا سيادة الرائد .. إحنا خلاص خلصنا المجرمين وهنجري ورا
الدبان؟!!

- يا فندم دية الحادثة الثالثة بنفس الطريقة، في نفس الأسبوع، وكل مرة
بيموت عدد مش واحد بس، مرة ثلاثة، مرة خمسة، والنهارده اتنين،
والطب الشرعي بياكد كل مرة إنه مفيش أي دليل إنها جريمة قتل ..
ومفيش قدمنا تفسير غير ياما وباء بيحي لي يقعدوا على القهوة، أو
نصدق كلام الراجل المخبول إلی اسمه محمود أبو الفضل ده.

- أديك قولت مخبول .. عايزنا نمشي ورا كلام واحد مخبول؟!!
- يا فندم على الأقل نفرض فرض حتى إن كلامه فيه شيء من الصحة.
- اسمع يا أبو حميد يا تفرض فروض تخش العقل، يا إما تاخذ أجازة وتسبب القضية دية للنيابة وده الأحسن.

أحمد:

" لا تحب، لا تدع نفسك لامرأة تتلاعب بك كيف تشاء، رأيت رجالاً عظاماً يركعون أمام النساء، كم رجل أضع حظه من الحياة في حضن امرأة باسم خدعة تسمى الحب، النساء جعلن ليكن دُمى للرجال، فلا تجعل نفسك دُمى في يد دُمى تتقاذفك هنا وهناك لأجل سراب اسمه الحب، كُن جريئاً وامسك مسدسك، ولا تسمع لشيء غير أنفاسك، ولا ترى شيئاً غير مؤشر التصويب، واجعل هدفك قلب امرأة، اضغط زنادك للمرة الأولى، وستعتاد الأمر، وربما تبتسم في المرة القادمة بعد القتل، فالرصاصة الأولى مرّت على قلبك قبل أن تصيب قلب تلك البلهاء، والمقتولون يتلذذون بالثأر بقدر ما يتلذذ القاتل بالانتصار، لا تحب.. لا تحب.. لا تحب."

كان ذلك صوت شيطان، وأظنه شيطان كل الرجال حتى يكفروا به،
وُئِسلموا قلوبهم ليصيروا نُسَّاك القلوب الحائرة، فيسير الإله على
أُستهم حديث المحبين فيتبينون أنه اختراع لئيم موجود بقدر
وجودهم، وغير موجود بقدر غيابهم، لا طعمك الرحمن عمى القلوب
فتطرد من جنان المحبين.

في عمر الثالثة عشرة أحببت جارتنا الفلسطينية، كانت بيضاء، وتملك
عينين رماديتين حزبتين كأنهما انعكاس لما تبقى من حريق هائل في
المكان، وكانت تكبرني بأعوام طوال، كان ظني لأي الأ طول قامة أنني
الأ أكبر، فأنتظرها كل يوم في الشباك ألوح لها دون أن تدري، وهي عائدة
من جامعة القاهرة لبيتها في حينًا القديم، وأكتفي منها بتصنع الابتسام
كلما صادفتها على الدرج، وأحفظ عشر رسائل كُتبت لها في درج مكتبي
لم أرسلها يومًا، حتى جاء يوم علمت فيه برحيلها، فقد انتقلت العائلة
لحي آخر، عكفت ثلاثة أيام أبكي في غرفتي، وأنتظر عودتها لألوح لها
من جديد، حتى وصلت لقناعة بين جنباتي أنها ستبقى مجرد ذكرى ولن
تعود.

مُنَى:

الحب! أي حب؟، الرجال لا يفهمون الحب، هم يفهمون فقط ملء بطونهم والنوم طويلاً بعدها، لا يفهمون أن النساء ينفقن حياتهن في أمور تافهة باسم الحب، كغسيل المواعين باسم الحب، أو غسل الملابس وكيها باسم الحب، أو تنظيف الغبار عن الأشياء باسم الحب، تنظيف المرحاض أظنه أسمى أنواع الحب بالنسبة للرجال، ويتأففون لأقل الأشياء أيضاً باسم الحب، ويلقون اللوم طوال الوقت باسم الحب، نحن نخدع أنفسنا طوال الوقت باسم الحب، كإيماننا بأفكار بلهاء واعتبارها شيئاً مقدساً لمجرد أنها طاعنة في القدم، كعدم ترك المقص مفتوحاً لأنه يجلب الشياطين، أو ترك الحذاء مقلوباً، كلها أمور لا تجد سبيلاً للقناعة، فتفرض نفسها فرضاً باسم الحب، وحين يسأل أحدهم: "ما الحب؟"، يقول الجميع: "أستغفر الله لا تترك الحذاء مقلوباً"، ويرحلون ولا أحد يجيب.

في سن السابعة كنت أحب ابن عمتي الذي يكبرني بعشرين عاماً، وأغار عليه غيرتي على نفسي، حتى أنني كنت أحجب عنه دمي العرائس التي أملكها، لأنني أغار عليه منها، وأحضر فقط الحيوانات والمكعبات ومسدس الماء لأقضي وقتاً طويلاً ألعب معه، وحين يأتي وقت الرحيل

أبكي كثيرًا، ولا أهدأ حتى يعدني أنه سيحضر غدًا لنكمل وقت اللعب ويرحل، وحين علمت أنه سيتزوج بكيت كثيرًا وكرهت تلك التي سيتزوجها دون أن أراها، وكرهتها أكثر حين علمت أن لون شعرها أصفر، حتى أنني مزقت عروستي الدمية التي كانت تملك شعرًا أصفر، وحين رأيته يوم زفافها أحضرت عصا كبيرة، وأقسمت أن أضربها بها، وفعلت ولم أكف عن ضربها حتى أخذ مني العصا، وحملني وهو يضحك ويقول لي إنه سيحضر بعد غد مع زوجته لنلعب سويًا.

الفصل الثالث والعشرون

جامعة القاهرة ١٩٩٨م

في مكتب العميد:

الدكتور: تعالى هنا.. أهلاً وسهلاً أتفضل هنا.

أحمد: شكراً لحضرتك يا دكتور على اهتمامك .. أنا بالفعل كنت محتاج أناقش حضرتك في موضوع.

الدكتور: تحت أمرك .. بس مش الأول أتعرف عليك .. أنا أول مرة أشوفك.

أحمد: طبعاً يا فندم .. أنا اسمي أحمد عادل، رائد شرطة متقاعد بسبب عاهتي مؤقتاً لحد ما يتم علاجي بشكل كامل.

الدكتور: أهلاً وسهلاً .. يا ترى بقى حضرتك جاي بخصوص ليا ليه خير؟

أحمد: الموضوع يا دكتور هو قضية الحقيقة كنت فتحت فيها تحقيق موسّع لكن مع الأسف حصل لي حادث اتسبب لي في العمى، ده كان المفروض أجي لحضرتك قبل كده.

الدكتور: يا ترى إيه؟ .. شوقني جداً.

أحمد: "الدونمة" يا دكتور .. هل فيه في مصر منهم؟

الدكتور: يا ترى بقى السؤال ده مصادفة لأن المحاضرة كانت النهارده عنهم ولا؟

أحمد: تقدر تقول إنها مش صدفة الموضوع متعلق بقضية قديمة بحثت عنها في السجلات، بس حضرتك أنا بسألك بصفة غير رسمية، اعتبره فضول .. زي ما إنت شايف أنا مش في حالة إن أفتح تحقيق رسمي (قالها متهكمًا) .. لكن السؤال ده مهم بالنسبة لي على الأقل.

الدكتور: آه .. عموماً الحقيقة معنديش علم أو معلومة مؤكدة عن ده .. إنت عارف طبعاً إنها طائفة باطنية بالرغم من كل إيلي نعرفه عنهم .. لكن زي ما سمعت في المحاضرة إن شبتاي جه مصر، وقدر يكون عدد من أنصاره عند رفائيل الوزير، لكن مفيش معلومات بالضبط إيه إيلي حصل بعد إعلانه عن إسلامه .. هل استمرت الطائفة؟ هل انتهت الفكرة؟ .. لكن سمعت مرة أيام ثورة يوليو وقبل ما يقفل الرئيس عبد الناصر المحفل الماسوني في مصر عن واحد من تجار اليهود المعروفين وإيلي كان عضو في المحفل الماسوني ده، أعلن إسلامه بعد ما بدأ اليهود في الرحيل من مصر، وخصوصاً بعد عملية تفجير هيئة الاستعلامات الأمريكية في مصر .. اسمه مش متأكد منه، لكن تقريباً كان ليفي نعيم،

أو نعيم ليفي المهم فيه ناس طالبت بخروجه من مصر، لأنه من "الدونمة" وسمعت بعدها إنه هاجر، وفيه ناس قالت إنه سافر الدلتا.

أحمد: هو بعد موت شبتاي ده حصل إيه لأتباعه؟

الدكتور: سنة ١٦٨٦م تقريباً بدأ ينضم لفرقة شبتاي عدد كبير، حوالي ثلاثائة عائلة وهاجروا لسالونيك، وبقت مقر للطائفة دية، لحد ما قامت الحرب في اليونان مع تركيا حوالي ١٩٢٤م فهاجروا لأكثر من مكان، لكن كان تمرركزهم في تركيا .. ويقال إنهم أحد الطوائف المتأمرة على الدولة العثمانية، واللي أدت لانهارها .. لكن الحقيقة إن كان فيه أسباب كتير أكثر أهمية من "الدونمة" .. ودلوقت ممكن أسألك أنا عن إيه علاقة قضيتك بالموضوع ده؟

أحمد: ممكن تعفيني من الإجابة؟ وأسألك أنا سؤال ثاني .. تفتكر عددهم كام لو هم في مصر؟

الدكتور: الحقيقة مقدرش أدى تقدير، أنا أصلاً شاكك في وجودهم، أو معنديش معلومة بوجودهم، بس لو هم فعلاً موجودين هيكونوا قليلين جداً، بحسب معتقدتهم هم لا يتزوجون من خارجهم، ده ممنوع، ما لم يكونوا طوَّروا من الفكرة دية، وده في حد ذاته يقلل عددهم وفرص الجواز ليهم ... سؤال فضولي معلىش ليه حضرتك مهتم بالطائفة دية؟

أحمد: حضرتك سمعت عن حادثة الجثث التمانية إيلي لاقوهم في شقة في روض الفرج إيلي كانت من كام شهر؟
الدكتور: أفكر حاجه زي كده.

أحمد: لاقينا في الشقة كتب تعاليم للطايفة دية، في البداية شكيت في إن طقوسهم من ضمنها الانتحار الجماعي، لكن الطب الشرعي أثبت عدم وجود سموم أو سبب طبي واضح للوفاة، لكن دلوقت أنا عرفت إنهم مجرد طلبة، ووجود الدراسات دية مجرد صدفة، لكن وجود كتاب تعاليم شبتاي عند الزفتاوي مكنش صدفة.

المنوفية – القهل – ١٩٥٨م

الرئيسة: فيه شيء تاني ولا نرفع الجلسة؟
السكير تير: فيه .. باروخ أعلن انحلاله من الطايفة.
الرئيسة: دية مصيبة .. فعلاً هو مش موجود النهارده؟ .. ويا ترى إيه السبب؟

السكير تير: عرفت إنه هيتجوز.
الرئيسة: بلاش نتسرع بقرار دلوقت .. نديه الفرصة .. لازم نتأكد.

جريدة الجمهورية عدد السبت ٢٢ مايو ١٩٩٧م – الحوادث.

موت الصحفي الشهير خالد الزفتاوي في ظروف غامضة في شقته المتواضعة بمنطقة الويلي، حيث يسكن وحده بعد انفصاله عن زوجته منذ أشهر قليلة، والجدير بالذكر أن تلك الشقة كانت بمثابة مكتب له بعيداً عن بيته الذي تسكنه أسرته، لذا تم اكتشاف الجثة بعد خمسة أيام حين تم الإبلاغ عن رائحة تحللها من قبل أحد سكان العقار، فانتقل بدوره الرائد أحمد عادل من قسم شرطة الويلي لموقع الحادث والكشف عن الجثة بعد إبلاغ ذويه، الذين أكدوا أنه كان معافى وغير مصاب بمرض مزمن يودي بحياته، وقد أكد الرائد أحمد عادل أن تقرير الطب الشرعي سوف يتم إعلانه في أقرب فرصة، خاصة بعد ما تمت موافقة الأسرة على ذلك لمعرفة ملابس الوفاة الغامضة، والتي تثيره بشكل فضولي حالة الجثة المتحللة.

أحمد:

اليوم كانت بقري تقرأ لي بعض ما لم أتم قراءته من دلائل القضية، رغم بشاعة ما تقرأه كُنت مستأنساً جداً بقراءتها، كمن يسمع صوت أمه تسرد له حكاياتها القديمة، لا أعرف إن كانت لك نفس العادة لكنني

حين أجتمع مع أمي يتطرق حديثنا لأيام صباها، وتسرد لي بشجون حديثها ذا الشجون، وأستمع بتلك اللحظات التي تنتهي دومًا بالبكاء، هذه ليست كآبة، ولكنك تستطيع أن تقول هي نوع من الإفراغ للطاقات السلبية التي تنغلق عليها الصدور، بالحق متى هي المرة الأخيرة التي بكيت فيها كالطفل؟ أنا لا أذكر وأشتاق للنحيب، وربما أحتاج أن أدبب بقدمي ويدي على الأرض وأفرشها، أو أفعل كما يفعل أهل السويد يوم الثلاثاء في الساعة العاشرة ليلاً يفتحون الشبابيك ويصرخون، هذا صحي جدًا يجعلك تُفرغ كل طاقتك السلبية بدلاً من أن تفرغها بالصرخ في أوجه الخلاق، جرب ذلك.. لم لا؟! يوم الثلاثاء في الساعة العاشرة ليلاً افتح الشباك واصرخ، وأنا سأبلغ الشرطة، بالحق ماذا إن اعتاد أهل مصر تلك العادة، لا هذا مرعب جدًا، مائة مليون مصري يصرخون عن كل شيء يتعبهم، أظن أن أبنية مصر ستهدم عن بكرة أبيها.. لا.. لا.. لا تفعلوا ذلك هي فكرة سيئة بالنسبة لنا.

أحتاج أن أحافظ على ردة فعلي لتكون منطقية أمامها، على الأقل وهي تتحدث عن وضع جثة الصحفي الذي مات وكأنه قد جُمد في مكانه، يمسك سيجارة لم تبرح يده بل ظلت مشتعلة حتى أحرقتها، وفنجان القهوة لا يزال كاملاً، ناهيك عن تلك الكتب التي كانت لا تزال

مفتوحة على المنضدة، والآلة الكاتبة التي لا يزال حبرها طازجًا، وكأنها كانت تُحمَّى للكتابة الصباحية، وجد أيضًا دفتر يوميات الصحفي الخاصة، موضوعًا على مكتبه دون إخفاء له أو موارد، كم بدت الحياة تافهة للحظة أنت حي فيها مصادفة، واكتشفت بعض الدناءة في المصادفة، حين أخفيت المصحف الذي كان أمامه حين وجدته مكتوبًا بلغة غير عربية وليس بقرآن، فقط الغلاف يبدو كالمصحف، لكن ما بداخله علمت فيما بعد أنها تعاليم شبتاي تسيفي أو شبتاي ليفي، هل كان حقًا ذلك الزفتاوي على نهج ذلك اليهودي؟؟، لا أعلم لكن ما أوشمه على صدره كان ييوج بذلك، فقط أوشم نجمة داوود ناقصة أحد الأضلاع في القاعدة، وهذا يرمز فيما علمته بعد، لغياب شبتاي ليفي المسيح الحقيقي في عقيدة "الدونما"، إن استقام المعنى بالنسبة له وكان حقًا من أتباعه.

المنوفية - ١٩٥٨ م شقة الحاج حسن عطوة

الساعة الواحدة ظهرًا يدخل الحاج حسن من باب شقته في الساعة الواحدة وخمس دقائق، يقرع الباب ثلاثة يرتدون زي مصلحة التليفونات، وسيارة المصلحة تنتظرهم أمام مدخل البيت، في الواحدة

وست دقائق تفتح الحاجة نعمات الباب يستأذن الثلاثة في الدخول بحجة إصلاح التليفون ومنع التشويش في السماعه، في الساعة الواحدة وثمانى دقائق يُغلق باب الشقة، في الواحدة وتسع دقائق تسقط الحاجة نعمات في حالة تصلد من أثر غاز الأعصاب الذي بنخ في وجهها، في الواحدة وإحدى عشرة دقيقة يدخل الثلاثة على الحاج حسن عطوة في غرفة نومه، ويقع على سريريه بنفس حالة زوجته من أثر الغاز نفسه، يفتح الثلاثة الغاز ويغلقون نوافذ البيت بشكل محكم ويرحلون، في الواحدة والرابع خرج الثلاثة إلى سيارة المصلحة، وفي الثالثة وست عشرة دقيقة فارق الحاج حسن عطوة الحياة، ثم لحقته زوجته بدقائق، بعد ثلاثة أيام تم اكتشاف الحادث.

الفصل الرابع والعشرون

مُنَى:

تَبَيَّنَتْ أَنَّ لِلرُّوحِ حَدًّا، لَا تَسَعُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ كَمَا نَظَنُ، لَا تَسَعُ الْوَرْدُ وَالشُّوكُ مَعًا، أَوْ لَيْسَ بِهَذَا الْإِتْسَاعِ الَّذِي نَظَنُ، فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ الْمُتَصَارِعَانِ فِيهَا يَحْدَاها عَنْ قَصْدٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلَا تَرَى أَكْثَرَ مِمَّا يَسْمَحُ هَذَا الْإِتْسَاعُ النَّاجِمُ عَنْ صِرَاعِهَا الدَّاخِلِيِّ، الْأَمْرُ أَشْبَهَ بِشَاشَةِ تَلْفَازٍ، وَالصُّورَةُ فِيهَا مَشْوشَةٌ إِلَى حَدٍّ قَدْ يَسْمَحُ حِينَهَا بِالرُّؤْيَةِ أَوْ يَحْدَاها فَتَبْدُو الشُّخُوصُ وَالْحَقَائِقُ عَلَى غَيْرِ طَبِيعَتِهَا، لِذَا فَصِرَاعُكَ الدَّاخِلِيِّ هُوَ وَحْدَهُ مَا يَبْقِيكَ حَيًّا أَوْ يَبْقَى عَلَيْكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، وَيَحْدُدُ مَكَانَتَكَ مِنْ حَيْثُ الْقُرْبُ أَوْ الْبَعْدُ عَنْ كَوْنِكَ إِنْسَانًا مَيَّزَهُ اللَّهُ بِالْعَقْلِ، فَإِنْ كُنْتَ تَرَى حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ فَقَدْ غَلَبَتْ فِيكَ الْخَيْرُ، فَلَا تَرَى السِّفَاسَ إِلَّا بِأَحْجَامِهَا، وَلَا تُصَغِّرُ مِنَ الْأَصُولِ فَتَبْدُو كَالضَّالِّ فِي صَحْرَاءٍ لَا يَعْرِفُ شِمَالَهُ مِنْ يَمِينِهِ، وَلَا يَسْقِفُهُ غَيْرُ شَمْسٍ حَارِقَةٍ، أَرَى أَحْمَدَ ذَلِكَ التَّائِهَ لَكِنْ لَيْسَ بِمَقْدُورِي أَنْ أَرَى أَيْهَا أَنَا، لِذَا أَقْضِي سَاعَاتٍ فِي الْبُكَاءِ وَسَاعَاتٍ أُخْرَى أَمْلَأُ قَلْبِي بِالْحَقْدِ لَهُ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ لَشُعُورٍ بِالْشَفَقَةِ، وَأَسْأَلُ: أَبْقَيْتَ ذَرَّةَ حُبٍ نَسْتَنْبِتُهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَّهَا تُثْمِرُ فِي أَرْضِ بُورٍ جَفَ مَأْوَاهَا، أَوْ حُبٍ هَشٍّ قَابِلٍ لِلْإِصْلَاحِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؟؟، أَوْ

حتى وهم يمكن أن نرسمه بريشة فنان فنحيل الوهم حقيقة مبصرة
احترامًا لهشاشة هذا الحب، أم أن قلبه صار مُحتلاً غير قادرٍ على تحديد
مصيره، موضوع بين يدي غاصب لا يرى حرية غير ساعة شروق
الشمس، لأحاول أن أكون شمسهُ إذن، لكن لا أعرف لم صرت لا
أستطيع الإشراق وكأن مياه البحر التي أغرب فيها أطفأتني، فلم يعد
بمقدوري الاشتعال، الذي يطفئ الشمس هو شيء واحد عدم الحماسة،
لا سبب حقيقي للحب، لا أستطيع أن أُكرِه نفسي على الابتسام في وجه
من أكرههم، ولا أستطيع أن أكمل في درب من لا أحب.

برنامج تليفزيوني ١٩٩٧م

يجلس الصحفي خالد الزفتاوي على مائدة للحوار أعدت خصيصًا
لذكرى النكبة العربية، واحتلال أرض فلسطين من قبل العصابات
الصهيونية في حضرة الإعلامي الشهير أسامة البنهاوي حسام، والشيخ
الفاضل محمود الطنطوري، كعادته يبدأ أسامة البنهاوي حسام اللقاء
بتقدمة كتقدمته للمباريات الأهلي والزمالك في سابق عهده حين كان
مُعلقًا رياضيًا فيبدو الأمر سخيفًا لافتًا، مُضحكًا أحيانًا بكميديا غير
مقصودة، فيقول مثلاً إذا كنت أمام شاشة التلفاز مباشرة فستجد فلان

على يمينك، وفلان على شمالك، أما إن كنت معنا في الاستوديو سيكون الأمر مغايراً، وهكذا يسرد الحديث أيضاً بين ضيوف الحلقة، فكلما الطرفين يلعب ليكسب اللقاء، متحفز مقاطع غير مُستمع جيداً، وأحياناً مُتطاوّل ومُتخطٍ لحدوده، من حسن الحظ أن تلك القناة عربية وغير مذاعة على مسمع أهل مصر، وإلا لأشعل المباراة أكثر، يُسرح شعره، يستعد كلُّ من الضيفين ويهندم نفسه. يقول المخرج من وراء الكاميرات: "وان تو ثرى هوا"، فدون أن يلتقط أنفاسه يبدأ المعلق: "أهلاً وسهلاً بكم أيها السادة المشاهدون نلتقي اليوم في لقائنا الأسبوعي الشيق المثير حول مائدتنا المستديرة، فيقاطعه أحد الضيوف ليخبره أنها مستطيلة، وليست مستديرة، فلا يعبأ بكلامه، ويكمل تقديمه للمباراة: "معنا ومعكم اليوم الشيخ الجليل على اليسار محمود الطنطوري، وعلى اليمين أيها السادة عشاق الصحافة الصحفي خالد الزفتاوي، والذي سيدهشنا اليوم برأيه حول قضية هي الأهم في الساحة العربية، وخاصة أننا نحيي الذكرى التاسعة والأربعين للنكبة العربية، واحتلال أرض فلسطين، ولنبدأ بالشيخ محمود: "ماذا تقول أيها الشيخ الجليل في تلك الذكرى؟، بدأ حينها الشيخ بلملمة ابتسامه، والبدء في تقديم حديثه كعادة الشيوخ بالصلاة والسلام على النبي العدنان، ومدَّ

فيها كأنه يستَجمع طاقته وأفكاره وأنفاسه لعلمه بذاك الوباء المقيم أمامه الزفتاوي، وبعد حديث مُطَوَّل عن القدس، وما صرنا نحفظه ترديدًا منذ الصغر عن ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبلتين، ومعراج النبي، سكت الشيخ يقلِّب أوراقه جيدًا، ويراجع صحائفه مُتَحَلِّيًا بالابتسام الهادئ، بينما يوجه المذيع الدفة نحو الزفتاوي، أجاز الزفتاوي فيما يرمى إليه، مستخدمًا بعض العامية في كلامه، مع تساؤلات واتهام صارخ للفلسطينيين بأنهم هم من باعوا الأرض، ثانيًا إنكار حادثة المعراج، ثالثًا السلام الذي سيوقف دماء المسلمين واليهود على حد سواء، واستخدم جملة "بدلاً من هذا الموت المجاني"، تحولت حينها مباراة القدم إلى لعبة الأوراق، فأخرج الشيخ أوراقه التي كان يعرفها جيدًا، الأولى هي ورقة من بحث لمؤرخ يهودي أمريكي صهيوني اسمه "مايكل فيشباخ" يقول فيها إن اليهود لم يمتلكوا أكثر من سبعة بالمائة بحد أقصى من أرض فلسطين قبل حرب ١٩٤٨م، وعدة أوراق أخرى من مقالات أجنبية تثبت صحة ذلك، ثم استند الشيخ يلتقط أنفاسه بعد عدة مقاطعات من الزفتاوي لينتقل به للموضوع الآخر، ودعني أخبرك بتلك الحيلة القديمة والمقدمة مسبقًا في حديث الزفتاوي لمحاولة الانتصار في أي قضية، أنت تعلم علم اليقين بخسارتك إياها، اسمها

حيلة "الثلاث بوتقات"، في الأولى قضيتك الخاسرة، وفي الثانية قضية قديمة انتصر فيها خصمك، ولم يعد بحاجة للحديث عنها، والثالثة هي مسألة الموازنة والتفاوض لتربح أكبر قدر ممكن، ابدأ بقضيتك الخاسرة ودع الخصم يقدم أوراقه أولاً لتعلم حدوده، فإن أغلق بابها تتحوّل للبوقة الثانية، وكن مُصرّاً إصرار الميت على أي خطأ، واجعله في وضع دفاعي فتنهكه، وتجعله مستسلماً للبوقة الثالثة فيتفاوض على انتصارك لا أكثر، أدرك ذلك الشيخ الطنطوري، فحين أحكم الأولى قال عن القضية الثانية أما هذه فلن أجيب عليها يجيبك عليها المسلمون في بقاع الأرض، أما عن الثالثة فنحن لم نفتعل الحرب لنفاوض على السلم، فمن يرضى الدنية في شيء فقد خاب، أما عن السلام فكفى أن ترى تلك المشاهد التي خلفك على التلفاز إن انتفاضة هؤلاء الفلسطينيين العظام هي الدليل الحي على مدى دناءة أمثالك، ولا أعلم أي تدليس تقوله ولمصلحة من؟، ثم للمم الشيخ عباءته وانصرف، حين يكون لديك الفرصة للفوز لا تؤخرها أبداً.

المنوفية سنترال شين الكوم - مكتب الموظفين ١٩٥٨م

مكتب مكون من ثلاث كبائن، في كل جزء منه يوجد مكتبان لموظف وسكرتير مساعد، تدخل صفيناز المكتب، وتضع حقيبتها عليه في الساعة الثامنة وخمس دقائق، في الساعة التاسعة إلا ربع يدخل المكتب محمود عز الدين شكري سكرتير مساعد، وكاتب الشؤون المالية، والمعروف سابقاً باسم باروخ بن حزاك بن شلومو، وهو الابن الأصغر لرجل الأعمال اليهودي حزاك شلومو، الذي سكن الإسكندرية سابقاً ومات فيها ودفن قبل حركة يوليو ١٩٥٢م، وبعد الحركة هاجرت كل من أخته وأمه إلى البرازيل، في حين أبى باروخ، لانضمامه لطائفة شبتاي تسيقي بالقاهرة، ثم انتقل للمنوفية كي لا يتعرف عليه أحد، وغير اسمه لاسم اختاره الحاخام له هو ذاك الاسم العربي المسلم، لكن باروخ الشاب لم يكن يحضر كل طقوس الطائفة، لكنه يعلم كل شيء، فالرئيسة قد أخبرته قبلاً في إحدى جلساتها الخاصة، والتي ستنقطع من اليوم، أنها سيتعاملان كغريبين حتى تقطع أمرها في قتله، ذلك الأمر الذي أخرته متمدة لحاجة في نفسها، كيف لهذا الشاب المفعم بالحياة المفتون بالنساء أن يتحول ليكون مسلماً من الأغيار، لن يناله المسيح شبتاي بالمغفرة على فعلته، لكنها بين طيات نفسها تقول إن السبب في ذلك قد

يكون إحدى فتيات السنترال من أمثال مروة صبري، تلك الموظفة حديثاً في قلم الأعطال والصيانة، والذي حدّثها عنها باروخ مراراً، فامتلأت منها بالحق، ولو لا أنها تخاف أن تُسرف في القتل لفعلته للمرة المائة لتتخلص من تلك الخرباء كما كانت تسميها أمامه ليكرهها، هذا غير سيرتها التي كانت تلوّكها طوال النهار عن سوء أخلاقها وملابسها الفاضحة مع موظفات السنترال، وما أدراك ما السنترال!

في الساعة العاشرة قَدِمَ رجل غريب تراه للمرة الأولى، دخل المكتب فقامت نُحْييه، فحك على كتفها مرتين تلك التحية مُتَعَمِّدة في طريقة التعرف فيما بين تلك الطائفة عند اللقاء الأول، وثمة من يستخدم تلك الحيلة إلى اليوم هم أعضاء المحافل الماسونية، بهدوء جذب الرجل كرسيّاً، وفتح زر بذته الإنجليزية الأنيقة، بعد قليل جذب القلم الحبر من مسند للأقلام على المكتب، وفتحه ثم كتب أرقاماً على ورقة صغيرة، وانصرف بهدوء كامل، بدا الأمر ليس غريباً بالنسبة لموظفي السنترال، ربما عميل يُقَدِّم على تليفون جديد، لكن تلك الأرقام كانت شفرة حكم بإعدام باروخ ما لم يرجع عن فكرة الإسلام، يوم السبت القادم يُرسل الرد عن طريق تلغراف باسم السيد حسنين العامل بمصلحة البريد بالعتبة فإن كان الرقم المرسل ينتهي باثنين على اليسار ويبدأ بواحد

يكون قد رجع باروخ عن فكره، أما إن انتهى الرقم بستة وبدأ باثنين يكون قد قُتل.

أحمد:

أذكر ذلك المقال، قرأته للدكتور رضا محمود أستاذ الطب النفسي الذي ذكر فيه قناعته الكاملة باعتقاده الذي يخالف كل علماء الأحياء، فالرجل يؤمن بنظرية التطور بشكل كامل، الإنسان هو تطور ما للحيوان، وهذا التطور لا يتوقف أبدًا لا يزال مستمرًا، والدليل القطعي على ذلك وجود العالم الثالث بحضور العالم المتطور، وهذا يجعل نُصب أعيننا وجود حالات ثلاث من التطور الإنساني على الأرض في نفس الوقت، مما يجعل دراسة الأمر أسهل بشكل واضح، رغم أن قناعته عن الإنسان، والذي يعتقد مبدأ للتطور، لا ينفصل، بل هو نظرية فريدريك نيتشه "البقاء للأصلح"، واستوقفني شيء في المقال، حيث وصل للانتقام، وقال عنه إنه غريزة الحيوان التي لم يتخلص منها البشرى بعد، أما الإنسان الكامل، الذي ستصل إليه البشرية في يوم من الأيام جرّاء هذا التطور، فهو تلك الصورة التي صنعها النبي محمد حين قال لقومه بعد فتح مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وعلّق على ذلك بقول غريب فقال: "هذا

أقسى أنواع الانتقام، وليس عفواً فالحياة مُحكمة القوانين بحيث إن أي تدخل بشري في ذلك الناموس يخل به ولو أننا لم نتدخل بالانتقام لانتقمنا لنا الطبيعة بشكل أكثر قسوة من أي انتقام سنصنعه"، وأردف قائلاً: "الانتقام صناعة مكلفة جداً ولو لا فكرة الانتقام لما نشأ مصطلح الحرب من الأصل، ستبتلي الطبيعة القتل بنوع من الانتقام، هذا ما أدركه النبي محمد، فأى انتقام صنعه قضى على قريش للأبد ووضعهم في مزبلة التاريخ للأبد، كما أودعهم الجحيم ما لم يصلحوا ويتجاوزوا فكرة الانتقام والسلطة، وفعلاً هلكوا ثانية، ووقعوا في حروب فيما بينهم أكثر فتكاً من حروبهم السابقة، وهذا ما حدث بالفعل، فنجد في أخبار التاريخ أن كل من تمسك بعصية أو جاهلية أودى بنفسه، وإن تمتع بالدنيا قليلاً، وكل من تغلب على ذلك، وهم قليل جداً، فقد نجا.

الفصل الخامس والعشرون

المنوفية – القهل ١٩٥٨م

تَدْخُلُ الرئيسة مع مساعديها الإثنيين، ترتدي فوق رأسها القفطان الأبيض المخروطي، وعليه نجمة داوود ناقصة الضلع الرامز لشبتاي، ومن خلفها "آيا بنت جدعون" تحمل الشمعدان السباعي، ومن خلفها اثنان من الرجال يحملون تابوت العهد، ومن خلفهم جدعون أبوها يحمل مجسمًا لسمكة، وهي رمز للسمكة التي وضعها شبتاي في المهد، ويضاء القهل بالضوء الأخضر فقط، ويفتح الباب مع صوت لقارئ في تعاليم شبتاي مكتوبة بالعبرية، يتداولها مع التوراة.. يقول القارئ ما يعني: "أؤمن بالإله يهوى المجيد، وأؤمن بمسيحه الحق المخلص الوحيد شبتاي تسيقي حفيد الملك داوود، وأقسم ألا أذكر اسميهما بالباطل ولا أقسم بهما أبدًا".

"أؤمن أن الإله الحق إله إسرائيل سيرسل لنا من السماء إلى الأرض معبدًا بني من جديد كما ذكر في التوراة، إن يهوى وحده هو من يبني الهيكل، وكل الذين يحاولون بناء عملهم هباء، فلعل عيوننا ترى ذلك ونفرح به، وليكن ذلك في أيامنا آمين".

وهكذا من وصايا أُخرى وتعاليم متداولة بينهم في كتب ظاهرها القرآن وباطنها التعاليم في المتون، ثم يختمون بدعاء أن يُعَجَّلَ الإله برجوع شبتاي، وليكن ذلك في أيامهم هذه آمين.

كان ذلك في الساعة الثانية عشرة ليلاً من ليلة السبت، وقد ارتدت آية بنت جدعون الثوب الأبيض مُغطى الوجه، وذبحت فرخة سوداء الريش في طبق التقدمة، وسالت دماؤها به، ثم بورك الحضور بالدم. في الساعة الواحدة والنصف كان جدعون ينتظر أمام البيت الذي يسكنه باروخ في الطابق الأرضي عند مزلقان القطار القديم، في الساعة الثانية إلا ربع أُضيء نور الغرفة، فظهر من الشباك، دخل حينها جدعون إلى الشقة، وفي اليوم التالي وُجد باروخ معلقاً في سقف صالة شقته وهُيئ الأمر كأنه متحرر مع ورقة مكتوبة بأنه مَلَّ الحياة، ولم يعد بمقدوره الاستمرار.

قسم شرطة الويلى ١٩٩٧ م — مكتب المأمور.

- معقولة يا فندم؟؟؟!! مر شهرين ونص ومات أكثر من عشرين نفر ومين عارف يمكن في حد تاني وبرده مفيش معلومات عن الجريمة دية؟؟!! .. لا يمكن ده يكون شغل عادى أبدا!! .. دية عصابة مافيا!! .. أيوة مافيا.

- اسمع يا أحمد إحنا جالنا تكليف في القضية دية، ومش عاوزك تحشر نفسك في الموضوع ده.

- إزاي يا فندم؟

- زى ما بقولك كده يا حضرة الطابط نفذ الأمر .. عاوز تروح تقولهم دبان وكلام فارغ .. فاكّر نفسك في فيلم أجنبي.

- أمرك يا فندم.

- ولا حد من زميلك يسمع بالقصة دية خالص .. عاوزين نجيب قاتل

فعلًا المرة دي إيلي مات ده مساعد وزير .. إيه؟؟ هنتنى لما يوصل لبعد

كده؟؟ وشي بقى في الأرض من سيادة اللوا مساعد الوزير.

- يافندم ...

- اتفضل على مكتبك.

- حاضر .. حاضر يا فندم.

مُنَى:

الناس في هذا العالم صنفان فقط، مُستهلكون ومُستهلكون، أحدهما اسم

للفاعل والآخر هو اسم المفعول، وما بين فتحة اسم المفعول وكسرة

اسم الفاعل يهلك العالم. أهل الكسرة حُقرَاء جَدًّا نفعيون جَدًّا، كهذا

الذي هو زوجي، أما الصنف الآخر فهم ملح هذا العالم، يهلكون من أجل اللاشيء، يجعلون من أنفسهم حطامًا لأهل الكسرة من أجل فئات الأرض أو حتى الوهم به، في زمان سابق صُنِّفَ العالم ما بين أسياد وعبيد، أما الآن فهو ما بين أسياد أكثر جشاعة، وعبيد أكثر ذلاً، أتمنى لو أنني أستطيع أن أفعل كموظفي البنوك، فأقول له لقد استنفدت رصيدك لدينا، ولا يمكنك استخدام تلك البطاقة مرة أخرى، لكن الحقيقة، ودون مراوغة، فأنا لا أحسن التصرف، ولا يمكنني أن آخذ قرارًا واحدًا في حياتي دون مشورة أحدهم، وإن كانت خاطئة، قالت لي أمي مرة إنني لم أُولد على يد طبيب، وُلِدْتُ على يد قابلة عجوز كانت تسكن في حي مجاور فقير، فيوم ولادتي تعرَّسَ الطبيب في الوصول لبيتنا وتعسَّرت ولادة أمي، لذا كان على أحدهم التصرف وبسرعة، كلما كنت أنظر إلى تلك المرأة أخاف جدًا، حتى إنها كانت تزورني في كوابيسي، وزاد الأمر حين علمت أنها لم تمت سوى في عمر مائة وأربع سنوات في حادث سيارة، وكنت أخاف جدًا قبلها، لأن أبي كان دومًا يقول إنها ستدفننا جميعًا قبل أن تموت، لذا داومت لسنوات على زيارتها في بيتها المصنوع من الصفيح والخشب أعطيها بعض المال دون أن يعلم أحد، أقدمه كقربان أو كبش فداء لنفسي، كي لا تدفني قبل أن تموت، كلنا

عبيد أفكارنا وخيالاتنا قبل أن نُصير أنفسنا عبيداً للبشر، قضيت سنوات في بيت زوجي لم أخبره لمرة واحدة أي أكره رائحة السجائر، لا أحب السمك، لا أحب غسيل الأطباق، لا أحبه حين يتنشي بالحشيش، وأخشى أني أكره أشياء أخرى لا يمكنني أن أبوح بها كونها متعلقة بالسرير وممارسة الحب.

مقهى شعبي مكتوب على لافتته "العريزية مقهى الملوك والأمراء" - القاهرة - ١٩٩٧م

يجلس الضابط أحمد عادل على كرسي أمام رصيف المقهى، يُخرج علبة السجائر ويشعل سيجارته الأولى، ثم يصفق بيديه مستدعيًا القهوجي قائلاً: "واحد قهوة مطبوط يا ابني .. مطبوط لو جبتها لي حاجة ثانية هرجعك بيها ماشي؟"، يشعل سيجارته الثانية، منتظرًا القهوة، بينما يرقب الشارع ويتفحص وجوه المارة علّه يجد خيطاً لأي شيء فيه حلٌ لتلك الجريمة التي لا تنتهي.

- ألا إنت اسمك إيه؟

- همّو يا باشا.

- لا الاسم الحقيقي إلي في البطاقة يا ناصح.

- محسوبك محمود عبد الحليم يا باشا.
- آه .. قوللي يا حودة بقالك قد إيه هنا في القهوة؟
- بقالى شهرين ونص.
- حلو .. حلو .. ملا حظتش حد هنا شكله غريب .. بيعمل حاجة كده ولا كده في المنطقة.
- لا يا باشا الصراحة يعني من ساعة ما جيت والناس هنا مية مية .. لا مواخذه يا باشا إنت بدور على حاجة هنا يعني.
- جابوب على قد السؤال يا حمو .. أقولك .. روح شوف أكل عيشك.
- أنا بس عايز أخدم الحكومة.
- وعرفت منين إني حكومة يا خفيف؟
- يا باشا سمهم على وجوهمهم.
- طب يا ناصح روح شوف إيلي بينده لك.
- أيوه جaaaaاي.

يدخل المقهى رجل غريب تفاصيل الوجه بعض الشيء، يرتدي "كاسكيت" مشدودة على رأسه كأنه ولد بها، وبذة قديمة الطراز، بمجرد دخوله يتجاذب أطراف الحديث مع أحدهم، ثم يقطع الحديث للحظة منادياً على حمو القهوجي ليطلب النرجيلة والشاي، ثم يستمر في

حديثه الشيق، وينتقل من موضوع لآخر بخفة فراشة بين الأغصان، بدأ بالحديث عن أحدهم .. يعمل "كُمسِينجِي" أو سمسارًا، تبَيَّن ذلك الضابط من حديثه بصوت عالٍ، لفت انتباه الضابط له حمو القهوجي، فأسرع نحو الضابط يهمس في أذنه بكلمات قليلة: "بقولك إيه بلاش سيد كبارلى ده سكتته كلها عوء، لو عايز حاجة قوللي وأنا أخدمك من عنيه"، ثم أسرع بعيدًا نحو زبون آخر.

أثار ذلك فضول الضابط أكثر، لكنه حرص على ألا يلفت نظر ذلك الرجل نحوه بأي شيء غريب، أطال المكوث وتكرر تغيير حجر النرجيلة، بعد ساعة ونصف الساعة طلب كوب شاي آخر، مع حجر وقود عاشر للنرجيلة، وفجأة سمع الضابط صوتًا غريبًا، تبدو حشرة، لكن صوتها كالألة الميكانيكية، بعد عشرين ثانية مات سيد كبارلى دون أي تقديم، والضابط يُحْدق في الأرجاء علَّه يشهد ذلك القاتل الغريب حتى رأى ذبابة هي أكبر حجمًا من ذبابة عادية، شديدة السواد .. أبْطَأ في طيرانها من الذباب العادي، بأجنحة مربعة الشكل تلمع كمرآة، حاول الضابط أن يمسك بها بأي وسيلة بينما الناس مشغولون بالرجل الميت، خرجت من القهوة نحو الشارع فتبعها الضابط، لنشاهد الآن أغرب مطاردة لضابط شرطي يجري بقدميه خلف ذبابة، بينما تحاول

الذبابة الاختفاء، لكن ما يفضحها هو صوتها المميز المزعج، حتى ارتفعت لأعلى واختفى الصوت، أمام بناية قديمة في ضرب البرابرة بين حشد من الناس وقف الضابط يسأل عن الذبابة فيتلامزه الناس ويسخرون، فأدرك حينها أن عليه أن يرحل، لكن قبل رحيله ظهر طنينها من جديد، لم يلحظ الضابط أنها تقف خلفه تماماً، ثم أخرجت سهماً من فمها، وقبل أن يلحظ الضابط كان السهم قد أطلق وأغشي عليه، بعد دقائق استعاد الضابط وعيه قليلاً، لكنه لم يعد يبصر شيئاً.

أحمد:

في صغرنا كنا نلعب لعبة تعلمناها من الأفلام الأجنبية، يجلس أحدنا مقيداً في كرسي، ويقف آخر إلى جواره يعد حتى المائة، حتى يتمكن المقيد من الفرار ويجري خلف آخر ليمسك به وبقيده بدلاً منه، ويقف المقيد السابق ليبدأ العد من جديد، وحين كبرت كنت ألع تلك اللعبة في قسم الشرطة مع السجناء، فقط أزيد عليها المسدس الميري على رأس المسجون، وأعد للمائة وقبل المائة يكون كل شيء على ما يرام، وتنتهي اللعبة على كلمة "وأغلق المحضر في ساعته وتاريخه". نفس تلك اللعبة يلعبها الزمان بنا فنولد مقيدين على كرسي الحياة، بينما يوجه سهم قدره

صوب رؤوسنا، أو ربما تكون بندقية قدره المزدوجة الإطلاق من ذلك النوع الذي يهشم الجمجمة، ويبدأ بالعد بصوت هادئ ثابت النبرات، ووحده فقط يحدد موعد الإطلاق، سبعة ثمانية "عمي أريد أن أجرب هذه اللعبة"، تسعة عشرة "أمي لا أحب المكرونة مع الخضار"، إحدى عشر "يووووه هذه السبانخ سخيفة جداً"، خمسة عشر "انظر يا هذا أترى تلك الفتاة هناك إنها تضحك لي"، سبعة عشر "أقول لك أنها قصة حب صادقة أريد أن أتزوجها"، تسعة عشر "سأكون متواضعاً معكم نادوني حضرة الضابط"، عشرون "أنت يا من تعد ابطى قليلاً"، واحد وعشرون "لو أن بوسعي أن أحضرك إلى القسم سأوسعك ضرباً ابطى قلت"، ثلاثة وعشرون "سأتزوجها يا أمي شئت أم أبيت"، خمسة وعشرون "لن أتزوج أبداً"، سبعة وعشرون "أنت يا هذا لم تقل ستة وعشرون"، تسعة وعشرون "الزواج أجمل شيء في هذا العالم"، ثلاثون "أكره الزواج، لم يبدو لي كذلك أبداً من قبل"، واحد وثلاثون "أحب الأطفال لكنهم يصدعونني"، ثلاثة وثلاثون "الحياة حقاً مملة"، خمسة وثلاثون "أخشى على تلك الفتاة حين تكبر، لا تضحك حين أقول لك إنني أغار على ابنتي وهي في الثامنة"، سبعة وثلاثون "ليت اليوم يكون أقل مللاً من أمس فقط"، أربعون "إن كنت ستطلق

النار على رأسي فلتفعل الآن"، اثنان وأربعون "سأبصق في وجهك ما استطعت، أنت حقير، صوتك ممل جدًا.. أَمَلُّ من هدوئه"، أربعة وأربعون "ما أسوأ الأشياء التي يمكن أن تحدث.. يطلق هذا النار وأموت .. ما الموت إذن؟"، ستة وأربعون "أي تافه هو الإنسان .. تافه جدًا .. يا إلهي أنا مُقَصِّر جدًا بحقك"، تسعة وأربعون "الآن فهمت كل شيء أطلق النار"، خمسون "صوت الرصاصة التي تصيب رأسك لن تسمعه"، "أين ذهب صوت ذلك العد اللطيف؟ .. أيها الطيب أين أنت لم تكمل المائة؟؟ .. لم تنته اللعبة بعد؟؟ .. يا هذا لم تتركني وحيداً في هذه العتمة؟؟ .. سأصرخ لأقول أنا حي .. حي .. حي .. أشعلوا النور"، "من ذلك القتل؟ .. أهو ذاك أنا؟! أصابني الوغد برصاصته" .. "افتحوا الباب كان الاتفاق على أنها لعبة، قتلني ذلك الوغد دون أن يخبرني أنها حقيقة.. أيها الزمان لم تمهلني قليلاً.. كم كانت حياتي حقيرة".

الفصل السادس والعشرون

المنوفية – بيت رئيسة الطائفة ١٩٥٨م

في الساعة الثالثة صباحًا من يوم الأحد التالي لمقتل باروخ، ترى إستير بنت عزرا الذباب يتكاثر أمام عينيها كأنه أفواج، في السابعة والنصف صباحًا تصاب بالعمى التام، لا أحد في البيت، ولا يمكنها أن تبج لأمها عن شيء كهذا، ولا لأي أحد، ستضيق هيبته كرئيسة للطائفة وينتهي كل شيء، سيقفز جدعون على الكرسي، وسينتقم منها شر انتقام، ستجد الشماعة حتى من أمها سارة، ستنكر كل شيء حتى وإن لزمت بيتها هذا قرارها الأول، أحست بضيق شديد ورغبة في الانتحار شديدة للهروب من هذا القدر المحتوم، سيعرف الجميع يومًا الحقيقة، وربما صنعوا بها كما صنعت هي بكثير، الموت محتوم، فلم لا يكون اختيارًا، يرن جرس الباب فتسأل: "من بالباب؟"، يحيب الشاب الذي يغير أنبوب الغاز، تفتح له الباب بعد عدة تعثرات، وتؤجل الدفع للمرة القادمة، تشعل سيجارة لتتمالك أعصابها، ثم تقرر أن تصنع كوب الشاي الصباحي العادي، فجدهون أوشك على الوصول، ولا تريد أن تظهر له شيئًا، تدخل المطبخ بعد تعثرات أخرى تفتح غاز الموقد، وتبحث عن كبريت في الأرجاء حتى تجده، رائحة الغاز ظاهرة، لأن الأنبوب تواء قد بُدِّل،

وهذا منطقي، يشتعل عود الثقاب بعد دقائق فقط ينفجر الأنبوب
المسرب، وينفجر كل شيء، معلناً مقته إياها مع الأنبوب الآخر
الموضوع في الركن من المطبخ، حكى الجيران أنها كانت تضحك
كشيطان بينما النيران تلتهمها، ظل الحريق مُتقدّاً حتى السادسة مساءً،
وما تبقى منها كان بعض الفحم المتراكم، وهيكلًا عظيمًا أسود كأنه
لحرباء اتخذت لون المكان، ذهببت صفيناز للجحيم، ربما كانت تذكر
آخر ما قالته في مجلس الطائفة، حين شبهتها بالبيضة تغطي بالقشرة
لتحميها، لكن لا أحد يأكل تلك القشرة، هذا مثل الطائفة كالبيضة
والأغيار كالقشرة التي ستكسر يومًا، وتعلن البيضة عن خروج شبتاي
تسيفي.

مُنَى:

تبدّل لا شك عندي في ذلك، لم يعد ذلك الرجل الذي يسبق لسانه
جوارحه كلها، لم يعد آلة السب المتحركة، صار آلة الكآبة الجالسة،
فليات مُتَّهمو النساء بالكآبة لينظروا ذلك المخالف للقاعدة، يجلس
بالساعات يسمع أشرطة للكتب المسجلة صوتيًا، ثم يسجل ملاحظاته
بالصوت، ويشغل الفيديو بالساعات ليعرض فيلمًا وثائقيًا واحدًا فقط،

لا يتغير، كان قد وصله بالبريد منذ أشهر قبل الحادث الغريب الذي أجهله، إن كان قد عمى وهو مع امرأة أخرى فهو يستحق ذلك لا ريب، هذا الشك يساورني بشدة، خاصة أنه دومًا ينكر ذلك بضحكة ساخرة، هكذا يكذب الرجال يحولون كل كذبة إلى سخرية وضحك، وإن كان في عملية اقتحام كما ذكر مرة فمن كان معه حينها؟، سأكون منصفة هذه المرة، تَبَدَّل؟ نعم تَبَدَّل.. بعض الناس يتبدَّل حالهم مع البلاء، فيصIRON أحسن حالاً وأخلاقاً، لكن لفترة ويعود كل شيء كما هو حين يذهب البلاء، وبعض الناس تتبدل فعلاً، لكن ما جدوى أن تتغير بعد فوات الأوان، الحياة أقصر من أن نصبر، أو نعاتب أو نعاند أو نسامح ليعودوا، ثم نسامح فيعودوا.. لسنا آلهة لنغفر طوال الوقت، فالإله لديه الخلود، فلا يعني له الوقت شيئاً، أبده يغفر ويعفو، لكننا هنا محدودو الوقت، والإنسان بطبعه يحتاج وقتاً للفهم، لو انتظرنا كل من نقابلهم ليفهمونا سنموت ولن يفهمنا أحد، ولن نصنع شيئاً، ببساطة دع الحياة تمر كما تمر، كن كالقطار مستقيماً بمعنى كلمة الاستقامة، فلا وقت للمنحنيات، لا وقت لتكن سيئاً، كن مستقيماً لأن الاستقامة هي الطريق الأقرب للحياة الأبدية.

شقة الضابط ١٩٩٧م

في يوم الجمعة الساعة التاسعة مساء سمع الضابط صوت جرس الباب، بالطبع هرع نحو الباب، لم يكن لينتظر أحدًا هذه الليلة، فزوجته ستبيت عند أختها الصغرى الليلة، أما هو فوجد أخيرًا الفرصة سانحة أمامه ليأرس أعظم ما يحبه الرجال، المكوث بلا فائدة أمام التلفاز والطعام حتى يغلبه النوم فينام في مكانه بشكل بوهيمي جدًا دون أن يزعجه أحد، لذا كان صوت ذلك الجرس مزعجًا جدًا، ربما نوى أن يؤنب من قرع الجرس تأنيبًا شديدًا، لا يُقدّر تلك اللحظات سوى الصفوة من الرجال، للحظة ينسى الأشياء والمهموم والماضي والحاضر، ولدقائق أو لساعات يبدو لنفسه أبدًا متشيًا بأعلى الوجبات سعرات حرارية، وكلما امتلأت بالدهون بدت الحياة أجمل، ربما مررت بتلك اللحظات التي تنتشي فيها بالطعام، فتقول لنفسك يمكنني أن أموت الآن، قد اكتفيت من الحياة كلها بتلك الوجبة، أو بذلك الفئحان من القهوة أو قطعة من الكعك، يا سلام لو عُدت للوراء مع تلك اللحظات، فتذكر فيلم رسوم متحركة من الطفولة، أو تشاهد صورك القديمة مع أصدقاء الطفولة، فتنتشي بـ"النوستالجيا"، ولعلك تلوم نفسك لأنك تركت نفسك تكبر مثلاً، أو أي خاطرة غريبة الأطوار قد تجوب رأسك في تلك

للحظات، فتكسر روتين حياتك أو حتى قانون البيت، فتمد يدك نحو "دولاب النيش" مخرجًا منه فنجانًا من طراز رفيع لتصنع لنفسك فنجانًا من الشاي المغلي، ما أجل أن تجمع النقائص، وتكسر القواعد أو تكسر الفنجان دون أي مُحكمة أو تأنيب أو طلب للطلاق، ربما يأخذك الجموح أكثر فأكثر، فتمدُ إصبعك في برطمان المربة أو الشيكولاتة لتلعقها، مخرجًا صوتًا مزعجًا، ربما تكون الآن منزعجًا مما أقوله، أو تبدى هذا، لكن أنت وأنا نفهم جيدًا أن تلك اللحظات هي الأثمن في عمر الرجل، وإن أقسمت أنها ليست كذلك. نعود للجرس الذي أزعج تلك اللحظات، فتح الباب منزعجًا ووجهه البائس يصرخ بذلك، لكن لا أحد أمام الباب، لذا أخرج بعض الألفاظ البذيئة، وكاد أن يغلق الباب بشدة لولا أنه لاحظ لفافة على الأرض كُتب عليها "هام جدًا وعاجل للرائد أحمد عادل"، أخذ اللفافة في تكاسل، وحك رأسه قليلًا مع تثاؤب ناعم وأغلق الباب، خلف الباب عاد إلى أدراجة مرة أخرى أمام التلفاز، بقيَ خمس دقائق على بث "ماتش السوبر المصري"، وضع اللفافة على المنضدة دون أن يلتفت إليها، وأخذ كيس البطاطس المقلية الذي أمامه يقضمها ويتنهد بعينين ناعستين وللحظات نام على حالته ممسكًا كيس البطاطس، ثم استيقظ لينظر الظرف من جديد، بعد

دقائق من مجاهدة نفسه ليفتح الظرف وجد به شريط فيديو، كُتبت عليه بالإنجليزية أحرف مختصرة لا تعني شيئاً، وأرقام "إم جي ٢٤٤٠"، مع ورقة كُتبت عليها "لا تتعجل سنلتقي" دون أي توقيع، ودوسيه كبير من الأوراق، مكتوب باللغة الإنجليزية والعربية جملة واحدة "حالات تم تسجيلها بالمرض"، كانت لحظات الكسل أقوى حتى من أن يلتفت لهذا الغموض فالمباراة قد بدأت، عليه الآن أن يخرج وإبلاً من الشتائم والصراخ أمام الشاشة، دون أن تؤنبه زوجته أو تلفت انتباهه بأن الفتاة نائمة.

البحث.. الحالة الأولى:

تم رصدها، ونظرًا لشهرتها ذكرت باسم "حالة الإعلامي الأرجنتيني الأعمى" في بحث علمي كامل صدر في العام ١٩٩٨م عن جامعة "يونس آيرس" العاصمة الأرجنتينية، وقد تحدث البحث عن حالة الإعلامي سلافيو أرنولدو الذي أُصيب، ودون أي مقدمات على الهواء مباشرة أثناء بثه من التليفزيون الأرجنتيني والمسمى "أرجنتينا تليفزيون"، بحالة من العمى التام، وذلك في ٢٧ من أغسطس ١٩٨٠م،

بينما يناظر أحد الحضور في موضوع سياسي، وهو الأهم إعلاميًا في تلك الحقبة "أمهات ميدان مايو"، ولا أعلم لماذا تطرق البحث العلمي للموضوع من ناحية سياسية؟؟، وهذا قد يخل بكونه بحثًا علميًا محضًا، وينصبه في طور البحث الاجتماعي أو السياسي، ولكن برر الباحثون ذلك بأن تلك القضية لا تنفصل عن المرض، وبدأوا في سرد تفاصيل سياسية، دون تمهيد أو تقديم للربط بموضوع البحث العلمي، في ديسمبر ١٩٧٧م وجدت جثة الأم الراهبة "ليونى دوكيه" على سواحل الأرجنتين مقتولة، وهي راهبة فرنسية اشتركت مع راهبة أخرى تُدعى "أليس دومون" في تأسيس جمعية عُرفت بالجمعية الإنسانية، وهي جمعية ناهضت الحكم الديكتاتوري العسكري في عهد خورخي رفايل فيديلا، والذي حكم ما بين ١٩٧٦م - ١٩٨١م، والذي أعد مجازر لمناهضي حكمه، ناهيك عن الاختفاء القسري، ورمي المعارضين من الطائرات في البحر، بعد التأكد من قتلهم، في حالة من التكتم التام، واستخدام الإعلام الرسمي كأبواق دعائية للحكم والحاكم في ذلك الوقت، وكان أحد رجال الإعلام هو صاحب تلك الحالة المرضية الغريبة، مما جعل أقاويل الناس وردة فعلهم على تلك الحادثة أنها لعنة

حلت به من الأم "دوكيه"، لذا عرّف العلماء في الأرجنتين ذلك المرض بلعنة "الأم دوكيه".

نعود لسلافيو أرنولدو المولود في العاصمة الأرجنتينية بيونس آيرس لأسرة فقيرة من أصل الهنود الحمر، الذين بقوا في الأرجنتين بعد حرب الإبادة لهم، والتي امتدت سنوات طويلة، وهم الآن يمثلون حوالي ١.٥٪ من سكان الأرجنتين. ويُذكر أن ذلك الاسم هو اسم مستعار، على ألا أحد يعرف اسمه الأصلي الذي يصرخ بأصوله الهندية، تخرج في كلية الحقوق جامعة بيونس آيرس، وبالرغم من عدم دراسته الإعلام اقتحم ذلك المجال الإعلامي، ثم السياسي ليجد الطريق أمامه ممهدًا ليكون كبير إعلامي الأرجنتين في ذلك الوقت في سن صغيرة جدًا بتشجيع من الحكومات المتوالية على الأرجنتين وتحت أعينهم، وهذا ما أجبر جامعة بيونس آيرس على منحه درجة الدكتوراه الفخرية في العلوم السياسية، ونسي ذلك الهندي الأحمر كل ما حدث لبني جلدته، بل كان عليهم سوطًا وصوتًا كاتمًا إياهم كلما تحدث أحدهم أو حتى ألمح عن قضيتهم الأبدية، حتى أنه رفع شعارًا دائمًا عن أن ذلك كله صار من الماضي، والحاضر أولى بالنظر إليه، وهذا ما أولاه أعلى المراتب لدى الحكومة والحاكم، ذكر أيضًا أن أرنولدو كان شخصًا متغطرًا جدًا،

ومتكبرًا لأبعد مدى، حتى أنه كان يسير بين الناس ولا يحدثه أحد منهم، خوفًا من ردة فعل حقاء منه، أو إشارة لشرطي في الطريق فيؤدي ذلك به خلف الأسوار بلا أي قضية تُذكر، لذا حرص الناس على تجنبه وإرضائه حتى لا يكون وبالاً عليهم أو لعنة تحل بهم، ذكر أيضًا أنه قبل تلك الواقعة التي فقد فيها بصره تشاجر مع مالك المقهى المجاور لمبنى التليفزيون، مدعيًا أنه رجل قدر، يترك الذباب يحوب في المقهى كما يشاء، ووصل الأمر للتشابك بالأيدي بينه وبين صاحب هذا المقهى، كل ذلك أخرج البحث عن كونه بحثًا علميًا جدّيًا، لذلك لم يُأخذ به أحد بوصفه مرجعًا لحالة مرضية فعلاً، رغم ذكره أعراض المرض تفصيلاً لاحقاً.

في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، وبينما أرنولدو في الاستوديو وقبل التصوير بدقائق فقط، نشب شجار غير مبرر بينه وبين مخرج البرنامج، مُدَّعيًا أن الذباب يملأ الاستوديو، وعلى وعد برش الاستوديو بالمبيدات الحشرية بالرغم من عدم وجود ذباب، بدأ حلقتة، معلناً عن ذلك الشجار، وعن كونه غير مسئول عن الذباب الذي قد يظهر أثناء البث خلف الكاميرات، ثم رحَّب بضيفه المحلل السياسي والخبير الاستراتيجي "روهنديز جونداليز" والذي اعتذر له عن الذباب الذي

يملاً الاستوديو، وبالرغم من أنه لا ذباب في الاستوديو، قَبِلَ الخبير
الاعتذار بشيء من التعالي الغريب، وادعاء التواضع لمريض برانويا،
وبعد عشر دقائق فقط مضت، بينما يقول: "ما الذي أتى بهم في بلادنا
وما الذي أوصلهم إلى هنا؟ (يقصد الراهبات) " وأرنولدو يهش بيده
الذباب، صرخ على الهواء: "أنا لا أرى شيئاً.. لماذا أضأتُم اللون الأبيض
فقط؟ وما كل هذا الذباب؟؟ هل تجلسونا في مقلب قمامة؟"، ثم انقطع
البث التلفزيوني، ولم يظهر أرنولدو ثانية على شاشة التلفاز، أمر في
حينها الحاكم العسكري فيديلا بإرسال أرنولدو للعلاج على نفقة الدولة
في فرنسا، لذا كانت التقارير الطبية المرفقة للحالة كلها بالفرنسية، والتي
صرّحت بأن أرنولدو سليم ويمكنه الرؤية بشكل طبيعي، ولم يتوصّل
أحد لسبب عضوي للمرض، وتمت إحالته للرعاية النفسية، وذلك بعد
أن حاول الانتحار عدة مرات بأساليب عنيفة جداً، وادعاؤه الدائم
بوجود الذباب الذي لا يكف عن الطنين في أذنيه، وبعد عام واحد فقط
أُعلن انتحار أرنولدو بقطع شرايين قدميه من فوق الكاحل.

الفصل السابع والعشرون

أحمد:

لا نعرف مصائرنا، هذه حقيقة أعلمها جيدًا، لكن ماذا بعد؟، كل يوم أصبحو من نومي أنتظر، ماذا بعد سوى الانتظار؟؟ متى سينتهي ذلك الأمر، أكرر هذا السؤال في كل ساعة، في كل لحظة أشعر فيها بأني سجين في عالم مظلم، لا يمين ولا شمال فيه، لا اتجاه.. أشك في أنني صرت في العدم أو جزءًا منه، ماذا عن الغد؟؟ فليجيني أحد، هذا الصراخ قد لا أنفوه به، ربما لن أفعل، لكن للمرة الأولى أشعر بكوني بلا فائدة، أنا والعدم سواء، وأخشى أنني أتقبل فكرة الموت، يومًا بعد يوم صار يلح عليّ بشكل كبير يحزني كجرح غائر، أحاول أن أناساه، لكن ذلك لا يقلل من الألم، أنضح بعض الماء على وجهي، عليّ أصبحو من ذلك الحلم الأسود، لكن عبثًا أفعل، أهرب للذاكرة، وأستحضر الصور والمواقف والكلمات، وأعيد بعضًا منها مرارًا وتكرارًا لأستحضر بعضًا من وجودي فقط.

أتذكر، في بداية ما يُسمى بالحب، طعامًا لذيذًا جدًا فقدته مع الوقت، لكن ما أذكره منه فقط ييقيني على شغف لتكراره، لم يكن حبًا، كان إدمانًا بدرجة تخللت شراييني، تسكنها قدم يجري فيه، كشیطان آخر لا

يمكن أن أتحمله، ذلك الشيء يصحو الآن ويأكلني، ولو لا أنني رجل
لصرخت بذلك على الملأ: "ابتعدي عني أيتها الزوجة والحبيبة، فكلانا
قاتل للآخر"، رسالة واحدة من رسائلنا القديمة قد تكون شفاء لسـم
حياتنا، لم لا نجرب من جديد أن نكون سعيدين؟؟، وتعاود رسائلها
القديمة في الظهور في أرجاء المكان مشفرة باسم الطيور، مثلاً حين كنا
نتشاجر تكتب لي: "... النوارس حين تتشاجر تتعاتب بمناقيرها،
وتكمل الرحلة، فالرحلات البحرية مع الوحدة قاتلة"، لم نكن نوارس
يوماً، ربما كوب من الشاي ولحظات صفاء تجبُّ ما قبلها، أذكر أيضاً أن
أمي قالت حين هددتُ بالانتحار إذا لم أتزوجها: "يا بني ليس علينا أن
نهدر أنفاسنا لأجل الحب"، أما أنا فكنت سأهدر أنفاسي سعيداً
لأجلها، لكننا نحن الرجال لا نقول إن كنا صادقين، أما إن قلنا فثمة
خلل في صدق ما نقوله، نحسن الادعاء أكثر من الصدق، كما تحسن
النساء التصديق للكذب.

البحث..

الحالة الثانية:

ذُكرت في مخطوط قديم نُسب للمصحفي عن أحد أمراء عصره، كان يُدعى أبو الحسن ابن الدرعي، وكان يسكن بلاد الشام، ويهابه الخلق مهابة السلطان ذاته، مما قد أعدّه في قصره من مزرعة للضبّاع والأسود، يلقي إليهم كل من خالفه في رأي أو خالف السلطان، وكان الناس يتهامون بقصصه بينهم. وقد أطلقوا عليه اسم المسخ كي لا يعرف أنه المقصود، وذكر أنه كان دميم الخلقة، لدرجة أن زوجته كانت تناكحه مُعَصَّبَةً العينين. وقد اعتاد إلقاء جواريه وغلّمانه الذين يستعين بهم في المتعة والعريضة للضبّاع، فإذا تحدّث أحدهم بالأمر أُلقي للضبّاع من غير رجعة، كان يعرفه الخلق من قبل أن يكون من بين حاشية الملك بالدبّاغ، حيث إنه كان دبّاغاً في مدبغة لرجل يدعى أبو النصر الدمشقي، وقد ذاع صيته في السحر آن ذاك، يكتب أسحاراً على عظم الحيوانات، فيموت المسحور في يوم وليلة، إذ تصبه الحمى، وينزف الدم من أنفه حتى يموت، وهكذا مات الدمشقي، فغلب المسخ على زوجته، وسخّر سحره في جلب المال والنفوذ، حتى صار بين الخلق مهابة كالموت، فأل شؤم كالشيطان، لذا كان يستعيز منه الخلق استعاذتهم من الشيطان،

وشر ما خلق الرحمن على حسب قولهم: "نعوذ بالله من الشيطان الرجيم
ومن شر ما خلق الرحمن الرجيم" وأصابهم موجهة نحو قصره.
وفي غرة شعبان سنة ستمائة من الهجرة الشريفة، خرج المسخ في سوق
درعة بلا لباس يصرخ بصوت شيطان: "ابعدوا عني الذباب"، يتخبط
كمن به مس، وقد فقد بصره، ويلحقه بعض رجاله من خلفه، يفضون
الناس من حوله، وحين لحقوا به صرخ فيهم أن اقتلوا الغلام الذي كان
في فراشه، ففعلوا وأخذوه لقصره، ولم تمض أيام قليلة حتى ألقى بنفسه
للضباع فالتهمته دون أن يُحرك ساكنًا.

عُرف ذلك بين الناس كنوع جديد من المس وأسموه "التمسُخ"
وأصيب به وقت ذاك بعض من الأمراء ونسائهن، منهم صبوة بنت
الحاكم، وهي التي عُرفت بأجل نساء الأرض، وزوجة الأمير المظفور
بن ذي النون من أمراء الأندلس، كانت تُعدُّ حوضًا من دماء الجواري
المذبوحة، ظنًا منها أن ذلك يبقي على جمالها وصبوتها، وظن الخدم حينها
أنها شربت من ذلك الدم فأصابها السم بالعمى، وظلت شهرًا تعاني
الشقيقة القاتلة والحُمى المصحوبة بالهلوسة، حتى أمرت أن تُوضع على
المقصلة التي قد أعدتها للجواري فماتت، ولحق بها زوجها الأمير بعد
أشهر قليلة بنفس المرض، فظن الناس أنه وباء، فهجر الخدم والغلمان

والجوارى القصر، ولم يُدفن الأمير، بل تُرك في حوض الماء الذي تحول
للون الدم حين صدم رأسه بحجر عن عمد حتى مات.

مُنَى:

الحب القاتل .. صرت الآن مؤمنة بذلك المصطلح دون جدال، لو سئلت
عنه منذ ثلاثة أعوام فقط، لقلت مُتهكمة: "كيف يكون حبًا وقاتلاً،
المتناقضات لا تلتقي سوى في الروايات وقصص الخرافات الشعبية
مضى زمن المتناقضات"، الآن أعرفه كصديق وفي لا يفارقني ولا
أفارقه، يدعمني في كل مرة أطلب الطلاق ويؤنّبني بعدها بنصف ساعة،
حين أعتذر عن الأمر، فأقضى معه الليل نوزّق بعضنا بعضاً بفيض من
الأفكار حتى تشرق الشمس، متى يصير الحبيب عدواً؟؟.. صرت
أعرف، كما صرت أعرف الكثير عن أسئلة بلا معنى، ومنذ أشهر كانت
بلا إجابة، صرت أعرف أن الأوفياء وحدهم يألمون، والصادقون
سيبقون ملحاً للأرض قيماً، حين تحتاج القليل منه، أما في غير ذلك
يُمتطى بالأحذية، وبصير سباباً تركيا حين نقول "ظظ"، والتي تعني
"ملحاً" بالتركية، أيها العالم - نحن الصادقين الأوفياء - لا نزال نؤمن
بالعدل والحق والجمال، فيجيب العالم بصوت ضاحك "ظظ"، أيها

الناس نحن "ظظ" الأرض، نصدق كي نُكذب، ونُخلص كي نُخان،
نحن البلهاء الذين يؤمنون بالحب "ظظ".

قطار الأنفاق القاهرة ١٩٩٨م

يجلس الضابط على مقعد في عربة قطار خاوية، الوقت متأخر، يرتدي نظارة سوداء، وفي يده عصاه يتحسس بها الطريق، كان متحجراً كمنسي في القطار دون أنيس واحد، مؤلم أن تودي بك الحياة في قبوك، لا شيء أكثر قسوة من أن تُلقى في غياهب نفسك، يقف القطار بينما يحاول الضابط أن يُشعل سيجارة، يدخل شخص غريب الطالع، يرتدي نظارة طبية، ويللملم جسده الممتلئ بين أرجاء معطف من الصوف بلون رمادي، يخرج قَدَّاحته ليشعل للضابط سيجارته، يشكره الضابط بينما يتسم الغريب ابتسامة تبدي غرابة الأيام، ثم يستأذنه في الجلوس إلى جواره، يصمت قليلاً، ثم يشرع بسؤاله الغريب:

- بيضايقك الصوت؟

- صوت؟!

- الدبان أكيد مقرف جدًّا.

انتفضض الضابط واقفًا، وعلى وجهه الغضب، بينما يضحك الغريب قائلاً
له:

- يا أخي بلاش حَمَقِيّة الضباط دية.. اقعد خيلنا نتكلم.

- إنت مين؟

- أهه كده.. اقعد أقولك أنا مين .. ولا أقولك ليه .. إنت عرفني كويس
عنينا اتقابلت قبل كده.

- إمتى؟

- من ورا الشباك في الجمالية آخر ما شافت عينك .. أصل شيش الشبابيك
القديمة دية بتفضح.

- إنت.

- يا سيدي يعني هكذب وأقولك مش أنا .. اقعد بقى ما توجعش قلبي.

- إنت إلي عمتني (قالها بغضب محاولاً إيجاده).

- لا لا لا .. بلاش تقول كده .. إنت أعمى من الأول .. يمكن أكون
خدمتك خدمة العمر.

يحاول الضابط أن يضرب بعصاه في الأرجاء ليجد صاحب الصوت،
لكن لا فائدة.

- بقولك إيه ما تحولش.. افعد واسمعني أحسن.. ولا إنت لسه فاكـ
نفسك الظابط إالي ممكن توديني ورا الشمس زي زمان؟؟ .. بالحق إنت
قرت الملف إالي بعته لك؟ شوفت الفيلم؟

- إنت عاوز إيه؟

- لا ده سؤال سابق لأوانه .. ما تسألش قبل ما أجابوك وأوعدك هتعرف
كل حاجة.

- إزاي أثق فيك وإنت قاتل؟ .. آه لو أشوفك بس.

- رجعنا تاني .. ماشي .. ماشي .. أولاً أنا مش قاتل وهتعرف ده بنفسك..
ثانياً إنت حتى ما قرتش البحث، لأنك لو كنت قرите كنت فهمت ..
عمومًا خللي المدام تقراه لك، لأنني معنديش وقت أقولك تفاصيله، أنا
فاضل لي ست محطات بس.

- هقتلك.

- تبقى بتحكم على نفسك تعيش أعمى لحد ما تنتحر.

- أنتحر؟!

- طبعا .. مرضك هيخليك تنتحر .. الموت هيكون أرحمك من إالي
هتشوفه.. ما تبقاش زي "خشا تر أبافان".

- مين ده؟

- مش بقول ما قرتش الملف .. ده يا سيدي الوالي الفارسي إلی جاله نفس المرض لسبب مجهول، فاستدعى طبيب الملك الفارسي إلی احتل مصر سنة ٤٠٤ قبل الميلاد، تقريبًا "دارا الأول"، والي ولّاه على مصر، وهدد الطبيب بقتله لو ما عرفش يعالجه، وبالفعل قتل الطبيب، بس بعد ما قتل الطبيب، حس بالذنب فدفنه في مقبرته إلی معروفة دلوقت بـ "بير الفرس" هنا في مصر، على فكرة الطبيب ده من أول الناس إلی عملت بحث عن المرض ده في التاريخ، وسماه لعنة "كيميت"، يعني أرض مصر يا أبو حميد، إبقى خللي المدام تقرا لك البحث هتفهم إلی عاوزه منك .. محطتك إلی جاية على فكرة.. سلام.. آه وعلى فكرة الطبيب ده كان مصري برده.

البحث.. الحالة الثالثة:

الطبيب المصري سنحاريب- نف، كتب في بردية اختفى أثرها بعد أن نقل عنها بعض المعلومات عن لعنة "كيميت" ذلك المرض الأعجب الذي أصاب عددًا من ملوك الفرس في عصره، وعددًا من قادة الجيش الذي ولّى حراستهم وبعض المصريين الذين عاونوهم بالخيانة أو الرشوة

أو فساد، وتَد حكمهم لمصر لوهلة من التاريخ، ربط ذلك بالسحر الأسود، وكتب أن علاج ذلك الوباء بالشطة، وذلك بحشو نوع من الشطة الحمراء في شرج المريض، لكنه لم يكتب أثرًا لذلك العلاج المخيف، هل كُلل بالشفاء أم لا، ثمة نص مفقود في البردية، ثم أكمل "لذا على المريض أن يعترف بذنبه للكاهن ليسأل آمون التوبة"، فالذي أصابه هو مرض الضمير، فحين يمرض الضمير يقوم الجسد بالتنبيه عن طريق ذلك العرض، الذي يؤدي به للموت إن لم ينتبه ... بقية النص مفقود.

أحمد:

لم تكن خيانة، كانت لحظات من الضعف فقط، لا لا.. لنكن صادقين أحسن، كانت لحظات من المتعة الحلوة، بعد أن نضب البئر عند مُنى، صارت مملة باردة، تعرف ما أقصده .. أورث ذلك النفور نفورًا، يحدث ذلك أحيانًا، هذا يجعلني حقيرًا أكثر، تؤلمني عيناى.. لم يعد باستطاعتي الكتابة.

الفصل الثامن والعشرون

قبل العمى بعامين ١٩٩٦م..

عيادة نفسية خاصة تملكها الطيبة بثينة كامل..

- أهلاً وسهلاً بيك.. أحب أعرفك بنفسي، أنا بثينة محمود كامل، طبيبة نفسية وعصبية، حاصلة على الدكتوراه من جامعة زيورخ، وأتمنى أقدر أساعدك.

في بعض أوقات الضعف نحتاج لمن نُحدّثه، خصوصاً لو تعلق الأمر بالفوادح الحياتية الكبرى، لا ندّعى القوة، وكن صادقاً مع نفسك، فقد رأيت بأم عيني أقوى الرجال يكون لفعل الحياة بهم، ورأيت بأم عيني امرأة كُنّا نَعُدّها صُنعت من الصلب أَلقت بنفسها تحت عجلات القطار، لأن شيئاً تافهاً كالحياة لم تتقبلها، حينها نلجأ لهؤلاء ممن يدّعون فهم الأمر بشكل كامل نجلس في عُرفهم لتتحدث عن مآسي قد لا ينصتون لها أصلاً، فقط يدّعون الإنصات، وندّعى نحن قول الحقائق، هذا ما تُعلمنا إياه المهزلة المدعوة بحياتنا (التمثيل)، نحب التقمص وإن لم نتقنه كبثينة كامل فطبقات التبرج المتراكبة تخفى الكثير منها، ادعائها الجدية والحكمة نابع من غرفة روحها المظلمة، جلستها الفرنسية الأنيقة،

- لا تتحدث عن شيء فيها، كل ذلك تمثيل محض، لا تُجيده حتى .. لا يهم
سيكون ذلك كافيًا في بعض الأحيان.
- تعرف أنا صاحبة مُنى على فكرة، كنّا مع بعض من ابتدائي.
- حكّت لي عنك كثير.
- ويا ترى قالت لك إيه؟
- قالت لي إنك شاطرة طول عمرك.. وأكيد هتعرفني تساعديني.
- أتمنى يا حضرة الطابط.
- أحمد .. ناديني أستاذ أحمد.. أحمد .. أبو حميد .. بس حضرة الطابط دية
تقيلة شوية.
- آه .. تمام .. مفيش مشكلة .. مُنى كانت قالت لي عن بعض الأمور،
لكن أحب اسمع منك .. باين عليك تعبان .. إنت ما نمتش من إمتى؟
- مش فاكّر .. حوالى أسبوع.
- وواضح إنك ما بترحش شغلك .. سايب دقنك .. وشك مرهق
وأصفر يا ترى ليه؟
- مش قادر أتكلّم.
- مش قادر ولا مش عاوز؟
- تفرق؟

- طبعًا.

- صدقيني ما تفرقش .. ممكن أمشي؟

- طب جيت ليه؟

- مُنى هي إيلي أصرت أجي.

- آه .. بص يا أستاذ أحمد .. أنا محتاجة أسمعك زي ما إنت محتاج تتكلم بالظبط .. وبالتأكيد هنلاقي حل .. وأكد طبعا محدش هيعرف حاجة أبدًا عن إيلي هتقوله هنا .. أنا هنا عشان أساعدك مش عشان أحكم عليك أو أفتح لك محضر.

بدا التوتر مصحوبًا في مشهد الضابط، بينما الهدوء الممل بدا على وجه الطبيبة مصحوبًا بالابتسام البارد أيضًا، لذا بعد صمت قليل حكَّ أنفه قائلاً:

- عاوزه توصلي لإيه؟؟

- بالاختصار وعشان ما نضيعش وقت أكثر، هتحكلي لي كل شيء.

- كُنا في مأمورية و....

- لأ .. من الطفولة.

البحث..

الحالة الرابعة:

الدكتور أنتوني مالفن، هو الأب الروحي لفكرة القتل الرحيم، والذي أجرى بحثه على البشر في بداية تجربته، مستخدمًا أنواعًا من السموم، ثم السيانيد، ثم الغاز السام في عمليات القتل، وأجرى تلك الأبحاث في ولايتي شيكاغو ومنهاتن، واستخدم عددًا من العبيد الزنوج في تلك التجارب. وقد تم تسجيل أربعمئة حالة قتل على يديه دون وجود نص قانوني يسمح بذلك في أي من الولايتين وذلك بين عام ١٨٧٠م وحتى إصابته بالعمى غير معروف السبب، ثم انتحاره بالسيانيد في خريف عام ١٩٠١م. وقد ترك الباحث الكثير من الأبحاث الباطنية، والتي تتحدث في طياتها ببعض العنصرية نحو السود، باعتبارهم جنسًا يجب إبادته، والوسيلة الأفضل كانت ذلك الجهاز المكون من عدة مخابير وأنايب غاز تنتهي بخرطوم يوضع في فم القتيل فيموت في غضون دقائق، تاركًا الألم خلفه. وأعلن الدكتور أنتوني قبل موته قيامه باستخدام الجهاز شخصيًا وانتحاره في محفل علمي جمع فيه طلابه، ونفذ الإجراء الانتحاري أحد طلابه.

قبل موته أعلن أيضًا بحثًا متكاملًا عن أحد الأمراض القاتلة، والذي يمكن أن يُستخدم كإحدى وسائل القتل الرحيم، وذكر أن حالات ذلك المرض متكررة في التاريخ، وهذا المرض يدفع صاحبه دفعًا للانتحار، وأعراضه هي العمى، وبعض الهلوس البصرية، كرؤية بقع سوداء متحركة، أو ذباب طائر، والصداع المستمر، وآلام في نواح عديدة من الجسم، لكنه أعلن وبشكل علمي أن ذلك المرض هو مرض فيروسى، إذا تم حقنه في جسد المريض بتركيز مُعَيَّن فإنه يقتل فورًا وبشكل أسرع من السيانيد القاتل.

القاهرة ١٩٩٦م

في عيادة الطببة بثينة وُضِعَ ملف كتب عليه "محمود المهدي" حالة مهمة جدًا ونادرة.. محمود المهدي، والذي كُتِبَ عنه في التقرير أنه قمحي البشرة أجعد الشعر يرتدي نظارة سوداء، مصاب بعمى لسبب غير عضوي متوسط الطول، الأعراض مجموعة من الأعراض المختلطة، وذلك لإصابته بالفُصام، شُطِبَ على أعراض "بارانويا" ثم كتب على التشخيص "لاغي"، وتمت إعادة كتابة التشخيص كالتالي، حالة فُصام غير مميز، يجسد شخصيتين، الشخصية الأولى مصابة بالبارانويا (جنون

العظمة)، وهو محمود، والشخصية الثانية مصابة بمتلازمة "كابجراس" وهو محسن (ومتلازمة "كابجراس" هي أحد الأمراض النفسية الأكثر ندرة في التاريخ الإنساني، ويعتقد فيها الإنسان أن أحد الأقرباء قد تبدل بمستنسخ منه يشبهه في الصورة، لكنه ليس هو، ويكون هذا المرض ناتجاً عن تلف في جزء من المخ)، ويعتقد محسن أنه قد تبدلت زوجته بأخرى مُستنسخة مع محاولات عدة لقتلها، وكان من أثر إحدى تلك المحاولات أنه قتل ابنه البالغ من العمر سبع سنوات، ثم أُصيب بالعمى غير العضوي طبقاً للتقارير الطبية المرفقة، لم يتم إبلاغ الشرطة عن قتل الطفل، ملحوظة رواياته متضاربة حول عمله، فمحسن يقول إنه يعمل محاسباً في مستشفى خاصة شهيرة، بينما يقول محمود إنه تاجر أعضاء بشرية، مع رواية بعض التفاصيل حول ذلك العمل، وكيفية جلب الأفارقة إلى القاهرة، وإيهامهم بالسفر لأروبا من خلال الهجرة غير الشرعية عبر البحر المتوسط، ثم تخديرهم والتخلص من جثثهم في الصحراء، مع سرد تفاصيل أخرى عن بيع تلك الأعضاء وأسعارها في السوق العالمي، ملحوظة أخرى "محمود" بذيء اللسان جداً لدرجة لا تطاق، مما يجعله مصاباً بمتلازمة السباب بشكل صريح، بينما الشخص الآخر "محسن" مهذب جداً وأستشعر بعض الصدق في حديثه.

الفيلم الوثائقي.. الجزء الأول (بداية الكون)..

بشكل علمي محض، تناول الفيلم الوثائقي بداية خلق الكون، والذي أنشئ بانفجار متمدّد في جزء من مليار من مليار من مليار من الثانية، مكوناً الزمكان أو البعد الرابع المكون للوجود وفكرة الزمن، ثم التشكل الكوكبي الناجم عن انفجار بعض النجوم وتفتتها لأجزاء أصغر، ثم برودة تلك الأجزاء من النجم المنفجر عبر ملايين السنوات، ثم تكون الغلاف الجوي للأرض، ثم العصر المطير، ثم العصر الجليدي، وتشكل الخلية الأولى الحية على الأرض، والتي كانت تملك نظاماً متكاملًا للحياة والمقاومة، كما كانت هذه الخلية تمتلك خاصية مميزة وهي التدمير الذاتي، ثم بدأ التحدث عن تلك الخاصية للخلايا الحية، فإمكان أي خلية حية التحول لخلية قاتلة أو مدمرة لذاتها ولغيرها بشكل سرطاني مثلاً، وبرغم أن الكائنات الأولى كانت تملك الحماية الأكبر والمناعة الأكبر، فإنها كانت تنقرض في دورات حياتية قصيرة، طبقاً لنظريات الانتخاب الطبيعي، وذلك منطقي فالبقاء للأصلح هي القاعدة الأصل في تطوّر تلك الكائنات البدائية عملاقة كانت أم صغيرة، وذلك وصولاً لتلك الكائنات الحية على الأرض الآن، وهي طبقاً للنظام البيئي الحالي

الأصلح، لو لا تدّخل البشر، والذي أحدث الخلل في النظام البيئي وتوازنه، مما أورث الخلايا البشرية صفة أخرى، وهي التدمير الذاتي أيضاً، والذي يُعد في بعض الأحيان غير مُسبب بشكل علمي، لا يمكن فهمه وتفصيله إلا من خلال الجينات، والتي تثبت أن تلك الخاصية (التدمير الذاتي) هي موروثّة عن أجيال سابقة متأصلة في كل كائن حي.

عيادة بثينة ١٩٩٦م

- يا ترى عرفت تنام يا سيادة الرائد؟ المنوم ريجك شوية؟
- آه إلى حد ما .. لكن كان نوم مزعج زي عدمه.
- بس أنا شيفاك أحسن المرة دي .. روح الشغل؟
- حاولت بس مقدرتش .. رَوّحت بعد ساعتين.
- يا ترى هنتكلم المرة دي؟
- على فكرة عملت التمرين بتاع الكتابة .. كان متعب جدّا، وكان خطي زفت عشان كده قطعته.
- سيادة الرائد .. يا ترى هقدر أكسب ثقتك المرة دي وتبدأ تقوللي عن تفاصيل أكثر؟ (أوما برأسه أي نعم فارتكزت على كرسيها وأمسكت

بالقلم لتدوّن ما يقوله) كويس .. قلت لي المرة إلی فاتت إن علاقتك

بوالدك كانت سيئة؟

- جدًا.

- حسيت بإيه لما سألتك السؤال ده؟

- بالغیظ .. دمي فاير .. متضايق جدًا.

- لیه؟

- كان شخصية مستفزة .. مستفز جدًا .. كان حریص دايمًا إنه یطلعني

فاشل في أي حاجة باعملها .. شخص سلبي لأعلى درجة .. عمره في

حياته ما نصحني نصيحة واحدة أفكرها له .. عمري ما لاقیت حكمه

في أي شيء قاله .. عارفة لما بشوف واحد زميلي یحكي عن أبوه

وبيقولي مثلاً أبويا قالی نصيحة كذا أو حكمة أو حتى مثل، بحقد عليه

جدًا .. حتی لما یقولی أبويا عمل لی كذا أو جابلی كذا ببقى مش طايق

نفسی.

- تفتكر إنت رَیَّه بالنسبة لبنتك؟

- معرفش .. بنتي لسه صغيرة ما تفهمش حاجة بالتعقيد ده .. بس أتمنى

لا .. مکنونش زیه.

- على فكرة الأطفال يحسوا أكثر من الكبار بالتفاصيل إلي إنت فاكّر إنها
مانفهمهاش .. أرجوك حاول ما تكونش زيه .. يا ترى علاقتك
بوالدتك كانت كويسة؟

- آه على العكس من أبويا تمامًا .. لكن طول عمري بانتقدها في ضعفها
خصوصًا قدامه .. هو كان متسلط جدًا عليها، وهي كانت متسلطة جدًا
علينا كأولادها

- وعلاقتك باخواتك؟

- لا.. كويسة .. تقدرى تقولى استوعبنا بعض بشكل أفضل تحت
الظروف دية.

- عظيم جدًا .. يا ترى ممكن تقولى ليه اخترت تبقى ظابط؟

- معرفش (أجاب بعد تفكير طويل).

- إيه؟

- ده حقيقي معرفش .. حظي كده.

- آه .. ويا ترى مبسوط في شغلك؟

- كنت مبسوط جدًا لحد آخر مأمورية.

- كويس جدًا إننا وصلنا هنا .. إيه رأيك نتكلم عنها؟ .. إيه إلي حصل؟

قبض يده اليسرى ووضع كف يده اليمنى عليها، وأخذ
يصدم قبضته في كفه الآخر وسكت طويلاً ثانية.
- أحمد .. خليك معايا لو سمحت .. إيه إيلي حصل ؟ .. أعتقد إنك قادر
تتكلم.

بنبرة صوت منخفضة مرتبكة قال (حاضر)، لكنه عاود السكوت مرة
أخرى، فكررت سؤالها للمرة الثالثة.
- يومها جالي بلاغ من واحدة ست في القسم بتتهم طليقها بخطف ابنها في
مكان على طريق مصر الإسماعيلية الصحراوي، وادتنا العنوان بالتفصيل
وعملت المحضر المطلوب، وأخذت القوة معايا ورحنا للمكان .. ممكن
نأجل الموضوع مش هقدر أتكلم.

- هتتكلم .. هتقدر .. ثق فيا.

تنهد ثم عاود الإطراق في الأرض قليلاً ثم أكمل حديثه:
- وصلنا المكان .. كان عبارة عن مخزن سيراميك .. وفعلاً الولد ست
سين كان هناك .. لكن افكر إننا بنلعب معاه، كان ماسك مسدس
صغير لعبة ومستخبي ورا كراتين سيراميك، والمخزن كان ضلمة،
افتكرته شخص بالغ

- أبوه مثلاً .. وهشتبك معانا بالسلاح أمرت بضرب النار ومات الولد.

دخل أحمد حينها في نوبة مباغطة من البكاء الحاد والصراخ بينما يردد "دية أول مرة أقتل فيها حد والله ما كان قصدي"، وأخذ يردد على نحو جنوني استدعى بشينة لمحاولة التخفيف عنه، وانتهى الأمر به ملقى بين ذراعيها كطفل في حضن أمه.

الفصل التاسع والعشرون

الفيلم الوثائقي..

الجزء الثاني (فكرة التدمير الذاتي هي حماية للنوع)..

إذا نظرنا للطبيعة من منظور إنساني سنجدها قاتلة غليظة، لا تتردد ولو للحظة واحدة في تنفيذ قوانينها العنيفة كاستئصال نوع كامل من المخلوقات مثلاً في سبيل أن يحيا النوع الأقدر على البقاء، كانقراض الديناصورات مثلاً أو الماموث أو أنواع أخرى اختفت، لا بفعل الكوارث، ولكن بفعل انتخاب الطبيعة لذلك النوع، وهذا الانتخاب إن صدقنا القول هو نوع من الاختيار الذاتي في بعض الأحيان، كانتحار الحيتان على الشواطئ مثلاً، أو تَوَلَّد بعض الأمراض نتيجة لاستخدام خاطئ للطبيعة ذاتها، والذي يضعنا أمام احتمالين إما اكتساب بعض الصفات الجديدة وإما القضاء على النوع، الأمر أشبه بالطعام الفاسد وتحريك له، كذلك الطبيعة لديها مائدة من الكائنات تتخير من بينها الأصلح طبقاً لقوانينها.

يجلس الدكتور "ألن ج تي"، دكتور الدراسات الحيوية بجامعة كالتيك، يرتدي بذة صفراء اللون مع ربطة عنق خضراء، ولحية بيضاء طويلة جداً ليقول:

في الحقيقة ثمة نموذج غريب جدًا، وأنا أرى أن ثمة رابطًا ما لم يُكتشف بعد، صاغته الطبيعة كنوع من انتخاب الأصلح، فذلك المرض مثلاً، والذي تفشى بين رجال العصابات في أمريكا منذ عقد تقريبًا، والذي عُرفَ بمرض رجال المافيا، والذي يؤدي بهم في نهاية الأمر إلى الموت أو الانتحار بعد ألم مبرح يكاد يتعدى الألم السرطاني وأمراض أخرى، الغريب في الأمر أننا لا نجد تأثيرًا للمسكنات على هذا النوع من الألم في أطواره الأخيرة، أظن أن الحيتان حين تودي بحياتها تكون قد أصيبت بمرض ما لم نعرفه بعد، يشبه ذلك المرض، ولعله نفسه، لا أحد يعرف، ولا أظن أن أحداً ما سيعرف في القريب، فذلك المرض يظهر في صورة وباء على فترات طويلة جدًا، مما يجعله لغزًا محيرًا آخر للطبيعة في انتخابها، بعض رجال الدين ربط ذلك المرض بفكرة الخطيئة والعقوبة الإلهية، ولكن مع ذلك لا بد أن يكون للعقوبة الإلهية تلك تفسير علمي، وإلى ذلك الوقت الذي نجد فيه هذا التفسير سيقى ما يحدث لغزًا مبهمًا تمامًا.

أحمد:

فيض آخر من الجحيم يحُول بيني وبين النوم، في الساعة السادسة مساء
أمس الأول تبَيَّن لي أنني لم أعد أحب مُنى كما كنت سابقاً، ولوهلة
فكَّرت ببشينة، بدت لي مثالية كأرض بكر تحتفظ بكل ما لديها من أنثى، لم
تُضع شيئاً كمُنَى، وبدوتُ بدوياً أبحث عن أرض جديدة، كانت السماء
تمطر، وتمطرني بشعور جديد بالطبع لن أطلع أحداً على الأمر، ولن تقرأ
بشينة ذلك أبداً، لكن ماذا يخبئ لي القدر؟؟ إلى أي بئر ستقودني نفسي
العطشى لنوع آخر من الحياة؟؟، مر شهر وأكثر على جلسات العلاج
أحس بأن بشينة تهتم لأمرى نوعصا ما، لكنها لن تبوح مثلي بذلك، فهي
ليست من ذاك النوع الذي يخون، ربما كنت كذلك أيضاً، مازلت لا
أدري، شيء ما يُلحُّ عليّ في طلب حُب جديد، ربما الاعتياد أو الملل أو
ارتخاء في وتر الحب، فصار صوته نشاداً عن النغم المطلوب، ما يخيفني
أنني لا أتحدث عن الأمر، وعادتنا كرجال حين لا نتحدث نفعل، وإن
تحدثنا لا نفعل، ترتسم على وجهي الآن ابتسامة حمقاء جداً، تذكرت أبي
حيث كان طوال الوقت يهدد بالخيانة أو بالزواج مرة أخرى، أعرف أنه
لم يحب أُمي ولا طرفة عين، لم يحب شخصاً آخر غيره يوماً، لكنه لم يخن،
أعرف هذا ككف يدي، ولا أعرف هل أنا مثله أم روح أخرى تتلبسني،

اضطراب ما يتخللني، جعلني أفكر كشخص آخر، ربما القتل يصنع ذلك في النفس يغيّرُها، يجعل مِنّي شيئًا لا أعرفه، يسكن صورة مِنّي بالكاد تشبهني كمرآة رخيصة مشوهة، لا تزال تمطر، ويبدو أنها ستمطر طوال الليل، ولا أعرف لأي شيء سيُسلمني ذلك المطر، لكن كل ما أعرفه أنني لست ذلك الرجل الذي كان سابقًا، لكنني أريد أن أستعيده.

عيادة بثينة..

حالة "محمود المهدي"..

مصطحبًا أحدهم، أجلسه على أريكة حديثة الطراز من الجلد الأسود، واضعًا على كتفه حقيبة بنية، لم يجب عندما حيّته الطيبة، ولكنه بدأ بسؤال مباشر: "لماذا بدّلتِ تلك الأريكة؟

- الحقيقة أنا ما بدلتهاش.

- كلكم كده.

- كده إيه؟

- كدايين.

حاولت بثينة تَقْبَلُ ذلك بابتسامة مع فهم لواقع حالته، محاولة معرفة ما إذا كان محمود أم محسن، وكى لا يختلط عليها الأمر سألته كيف كانت الأريكة السابقة في خياله؟

- كانت قطيفة.

كان ذلك الجواب بثقل لسان، عرفتُ منه أنه ليس محمود، فلمحمود نبرة ثقة وتعالٍ مصحوبةً بالتندر والهدوء أحياناً.

- ويا ترى فاكركان لونها إيه؟

- إنتي بتعيريني عشان أعمى؟

- مش قصدي بس إنت سألتني عنها قبل كده.

- كان لونها نبيتي، دلوقت إيه؟

- مش فاهمة.

- لونها إيه؟

- سودة.

- إنت عارف يا محسن بقالنا قد إيه بادئين في الجلسات دية؟؟

- أنا مجتش قبل كده غير مرتين على فكرة، ومحاسب عليهم الممرضة بره.

كانت تريد أن تضحك لكنها كتمت تلك الضحكة، ثم بادرت بسؤال كي لا يلتفت للأمر:

- إنت ليك اسمہ محمود صح؟
- إنتي بتراقبيني؟
- محسن دية تاني مرة ...
- تالت.
- أسفة تالت مرة تجيني.. محتاجة أعرف عنك أكثر.
- محمود صاحبي مش أخويا.. وبعدين الشبه إلي بنا ده مجرّد صدفة.
- طب إيه رأيك تكلمني أكثر عن محمود؟
- محمود ده مسكين، ما يغركيش طولة لسانه.. ده غلبان، كل الناس بتخدعه حتى مراته، هربت وسابت ابنها وجابت مكانها واحدة تانية، هي صحيح شبهها لكن مش هيا.. أنا أعرف أمل كويس من زمان، هو مكنش عارف إنها مش أمل بس أنا أثبت له.
- إزاي؟
- طبيخها اختلف، طريقة كلامها، لبسها، حتى اهتمامها قل بابنه، على فكرة دي جت وأخذت ابنه وبدلته بولد تاني كمان شوفتي القسوة!!
- محسن إنت مرتبط؟
- لأ طبعاً، إزاي أرتبط بعد ما اكتشفت كل الخيانة دية!!، عارفة أنا روح زُرت محمود في بيته وواجهت الست دية إلي تشبه أمل

بالحقيقة.. مقدرتش تنكر حتى بعد ما ضربتها عشان تقول الحقيقة..

ولولا إنه حاشني كنت قتلتها الكدابة.

- ممكن تهدي نفسك شوية، تشرب إيه؟

- ها ها ها .. إنتي فكراني أهبل عايزة تحطي لي منوم، تلاقيني ورا كل

ده.. إنتي إلی عايزة محمود يفضل مخدوع عشان بتجبيه هو قاللي كده،

حرام عليكی مش كفاية إلی هو فيه!

- الحقيقة أنا عمري ما قولت له كده أبداً.

- يعني إيه؟!، محمود عمره ما كذب عليا، عايزة توقعي بيني وبين صديق

عمري؟!!

- هو محمود ما جاش معاك؟

- آه .. مستنيني بره.

- طب يا ترى ممكن أكلمه؟

- أنا إلی جاي أتعالج عشان مش شايف مش هو.

- أنا فاهمة بس لازم أسأله وأقوله على الدوا، مش كده ولا إيه؟؟؟

- طيب قوميني بره عشان أقوله.

- وليه ما تخليك هنا وأنا ديه أنا.

- لآ .. أنا .. أنا ... محتاج الحما ضروري.

- ماشي .. طبعاً إنت عارف فين الحمام؟
- في تلك اللحظات وصل الرائد أحمد في قاعة الانتظار، ولمح ذلك الضرير في طريقه للمرحاض وعند خروجه، لاحظ فارقاً كبيراً في مشيته في هندامه، ربما في ملامحه أيضاً بعض الشيء، لكن ذلك الانتباه تشتت بحديث الممرضة معه بأنه جاء مبكراً نصف ساعة عن مواعده وعليه الانتظار، بينما يعود صديقنا محمود إلى غرفة الكشف بمشية واثقة وخطوات ثابتة، وظهر منتصب ويدين باطشتين، ولسان قدر.
- الواد محسن قاللي إنك عاوزاني، خير، قلبي حاسس إنه خير.
- أستاذ محمود إنت تعرف صاحبك من قد إيه؟
- ياااااه، من أيام الجيش، كنا مع بعض في نفس الوحدة، ألا هو مقالكيش حاجة، على فكرة أنا طول الليل بفكر فيكي.
- ويا ترى بتفكر فيا إزاي وإنت عمرك ما شوفتني؟
- صوتك يا جميل، حنين قوي، بيفكرني بالمرغودة مراقي إيلي أخذت الواد وفلقت، وبتضحك عليا بيت شبهها.
- إنت مصدق صاحبك؟
- لا.. بقولك إيه محسن ده حببي بقولك أخويا، لا يمكن يكذب عليا أبداً، وأنا متأكد بردك بنفسي، لا مؤاخذه الرجل مننا ما يتوهش عن

مراته في السرير أبداً، وإلا يبقى لا مؤاخذه، آخ يا جميل إنت لو تطاوعني
هنغنغك.

- محمود إنت بتجيني هنا بقالك قد إيه؟

- ست شهور تقريباً.

- صاحبك يقول إنه مجاش غير مرتين بس.

- سييك منه.. محسن ده دماغه طايرة، أصله عمل حادثة زمان بعيد عنك

لحست دماغه أيام الجيش، يا سلام كانت أيام حلوة، فضلت قاعد جنبه

طول الليل لحد ما فاق.

- أنا شايقة إن جه الوقت إنك تسمعني.

- وماله ده أنا أسمعك للصبح يا قمر، آه بس لو أشوفك كمان.

- محمود ياريت تسمعني كويس في إيلي هقوله، لو طلبت منك دلوقت

تنادي محسن هتعمل إيه؟

- هقوم أناديه.

- ما تقومش، لو طلبت منك إني أنا إيلي أناديه يحصل حاجة؟؟

- ميجراش حاجة.. بس هو بيتكسف يتكلم قدامي أصله لخرة.

- محمود إنت هتقوم تروح الحمام وترجع لي ثاني بس باسم محسن مش

أكثر.

- يعني إيه؟
- يعني إنت ومحسن مش أصحاب.
- آدي إيلي بناخده من النسوان بتفرّقي بيني وبين صديق عمري زيك زي مراقي إيلي هربت، النسوان عقلها واحد.
- مراتك مهربتش، مراتك محجوزة في مستشفى المعادي بتتعالج من ضربك ليها.
- ما قولنا دية مش مراقي.
- تفسّر بيايه عماك إنت ومحسن في نفس الوقت؟
- معرفش.
- محمود يوم الإثنين الساعة أربعة ونص دخلت شقتك ومعاك طبنجة هددت مراتك بالقتل، ولما حاولت تهرب مسكتها وضربتها قدام ابنك، وبعدين ضربت عليها النار والرصاصة جت في ابنك، كان عاوز يفدي أمه ومات.
- محصلش، إنتي مرة كدابة.
- احفظ أدبك ... إنت بقالك ست شهور بتجيني هنا عشان نوصل للحظة دية إيلي هي الحقيقة ... أرجوك ساعد نفسك.
- إنتي كدابة.. أنا كنت مع محسن وسهرنا طول الليل في مركب عالنيل.

- محمود مفيش وجود لمحسن غير في خيالك إنت فاهم؟

- كدابة.. آمال مين إيلي بره ده؟!

قام من مكانه مسرعًا نحو الباب يتحسس مقبضه، وهو ينادي بصوت عال مصحوبًا بالبكاء، همَّ أحمد بالوقوف وانطلق نحو باب غرفة الكشف، لكن الممرضة منعتة من ذلك، موضحة له أنها حالة لها خصوصيتها، فرجع إلى حيث كان مجلسه، بينما محمود يقف على الجانب الآخر، وقد غلبته نوبة بكاء حتى أسقطته أرضًا، وبعد لحظات حاولت فيها بثينة أن تُهْدئ من روعه أخرج مسدس من حقيبته التي يحملها طوال الوقت، وأطلق رصاصة على رأسه فمات من فوره، أسرع أحمد حينها نحو الباب ولم يردعه أحد هذه المرة، حاول فتح باب الغرفة، لكن جسد محمود كان مُلقى على الأرض خلف الباب، بينما بثينة أصابتها حالة من الهلع الشديد المصحوب بالصراخ، وما إن فتح الباب حتى أُلقت بنفسها بين أحضان الضابط ثم فقدت وعيها تمامًا.

الفصل الثلاثون

الفيلم الوثائقي..

دكتور جوزيف جيرارد أستاذ الأحياء الجينية جامعة
لوكسنبورج..

على عكس توقعنا دائماً تعمل الخلية، فحين نطن أنها بدأت في الانهيار تنشئ جيلاً جديداً يحمل صفات تجعلها أكثر مناعة ومقاومة للمرض، حتى إذا أخذنا الظن الحسن فيها فإنها تكون ما يسمى بالخلايا القاتلة أو السرطانية، والتي تلزمننا حينها بالقضاء عليها حتى تتمكن من الجسد المريض كله، دعني أقول بشكل أوضح إن الخلية تحمل في طياتها ذاكرة صغيرة جداً، ربما يظهر ذلك في بعض عمليات زراعة الأعضاء، وما يترتب عليها أحياناً من تغيرات سلوكية للمتبرع له ولأسباب غير علمية أو ربما غير واضحة تماماً بالنسبة لنا حتى الآن.

ما أريد أن أقوله إن عملية التطور التي بدت لنا لا نهائية ومستمرة ليست مستمرة بشكل عام في كل الجوانب الحياتية، بالطبع نحن الآن أكثر تطوراً تكنولوجياً عن الأجداد بالطبع، نملك تقنيات أفضل وأسلوب تفكير أكثر فاعلية، لكننا وبالرغم من كل ذلك تخلفنا عنهم على النحو السلوكي والاجتماعي، بدليل أن معدل الزواج ينخفض بشكل مفرج،

وحالات الانتحار في تزايد مُضطرد، نسب الجريمة تزداد على المستوى العالمي، وجوانب أخرى كثيرة تدل أن بعض الناس، وخاصة الشعوب الفقيرة توقفت لديها عملية التطور البشرى، ربما انتكست عند البعض فكرة التحضر.

رغم أن فكرة التطور تعتمد في أصلها على أن البقاء للأصلح، فإن ما يحدث الآن هو العكس تمامًا فنجد الفاسدين أكثر حصانة من غيرهم، والأقدر على البقاء من الضعاف ممن يحتمون بالقانون والمجتمع، وذلك بالطبع أضعف فرصة بقاء الأصلح، وهذا ما أتحدث عنه باسم الانتكاسة المجتمعية، والتي تزداد على إثرها الجرائم، يتطور البشر على النحو التكنولوجي، بينما نتكس على النحو الإنساني في جانب آخر من الكرة الأرضية، فأجدادنا بالرغم من المذابح والدموية التي اتصفوا بها كانت لديهم القدرة على التطور الإنساني أكثر منا الآن، وإلا لما وصلنا إلى هذا التحضر، ولا أجد مبررًا لأن نتغاضى عن ذلك.

أيضًا أريد أن أذكر بعض الأمراض التي تدعى بالأمراض السلوكية المرتبطة بشكل وثيق بسلوك الإنسان الحياتي، فالجسد يعرف تمامًا كيف يعاقب صاحبه وفي الوقت المناسب، لأن هذا الجسد يفهم بشكل كامل طبيعته أكثر من وعى الإنسان نفسه، ونجد تلك الأمراض في الحيوان

أيضاً كالإنسان، وربما تسبب فيها الإنسان بالجهل أو قصر المعرفة لديه، كمرض جنون البقر مثلاً، والذي نتج عن أكل البقر لجيف الأبقار النافقة، وهو مرض فيروسي يؤدي إلى عدم قدرة الأبقار على الحركة، أو الحركة بشكل عشوائي خارج عن السيطرة لا إرادياً، وأنت تعلم أن ثمة قبائل في الغابات الإفريقية آكلة للحوم البشر، ولا نعرف أي أمراض نشأت عن ذلك مثلاً.

١٩٩٧م في مشفى..

أحمد:

أن تصيب أول الحب، هي لحظات لا تقدر بثمان، أعرف الكثير ممن أهدروا حياتهم لأجل لحظة كتلك، أريد أن أصرخ في العراء باسمها بشينة بأعلى صوت لدي، لكنني قلت لها أحبك، وهي تحت تأثير المهدئ، لم تسمعي بالتأكيد، لكن ربما تشعر بي الآن بين جنبات نفسها، ربما تراني الآن في الحلم، أشعر بالوحدة تأكلني من الداخل كالعادة لكنها اليوم نهمة جداً يزيد عليها شعور بالذنب نحو مني، لا أعرف لماذا لا أعالج الأمر بالمنطق؟؟!!، فقدتُ ذلك الشيء في الحادث، لاتزال عين ذلك الطفل تنصب نحوي وأتساءل: هل حقاً كان قتلاً خطأ أم أنني أردت

ذلك وبشدة؟؟، لا أعرف لماذا أرى فيه ذلك الصبي الذي كنته يومًا
يركلني في قدمي كما كنت أفعل مع أبي حين أغضب منه؟؟، لكم أردت
قتل ذلك الصبي، من أنا الآن؟؟ أي جحيم يلتهمني؟! هل حقًا
أحبها؟!، كيف لسنوات حب لمنى أن تتبخر؟!، ما تعلمته من تلك
الحياة أنها لا تسرى يومًا كما نريد، توغل في العناد كطفل يجرى خلف
ظله طوال الوقت لن يمسكه، بل سيكبر ظله كلما كبر جسده، ولن
يمسكه، كذلك أحلامنا، حلمت يومًا أن أموت وأنا أحب منى، واليوم
أريد أن ألقى بذلك خلف ظهري وأمضي في طريق جديد شاق، مُظلم،
مُوحش جدًا وكأول كل حب مُمتع جدًا.

منى:

يجبها أعرف ذلك، ذلك الشرود يذكرني بشيء أعرفه، ذلك الصمت
الطويل والإطراق في الأنحاء دون سبب، ذلك الرجل ربّيته وأعرفه
أحيانًا أكثر من نفسه، متى سيتكلم، وكيف سيجيب، متى سيغضب،
وما سيصنعه، أين يذهب حين يغضب، وكيف يجلس حين يفكر، هذا
الرجل رأيته يبكي، وحين يدع رجل امرأة ترى دموعه، فهو يعلم أنها
تعرفه أكثر من أي أحد، أذكر نصائح جدتي، قالت الرجال وحوش

بعقول أطفال، لذا حين تكون جحيمة مستعرة لا تقربيه، لذا سأبدي الهدوء لأنني أعرفه، أعرف فيما يفكر، أعرف الدفتر الذي يكتب فيه، وأين يُخبأه في المكتبة وقرأته ولن أخبره، لن أصنع شيئاً حتى تخرج تلك الكلمات المكتوبة على لسانه، حينها يكون قد وجب الحديث.

المشفى.. غرفة بثينة..

- بحبك.
- حضرة الرائد، أنت مُدرك إلي إنت بتقوله ده؟
- أيوه طبعا، هو أنا لسه مراهق؟!
- أحمد إنت جوز صحبتي فاهم؟
- بصي أنااااااااااا...
- أنا أفضّل إنك تروّح وكفاية كده، شكراً إنك فضلك كل ده معايا في المستشفى، أظن إن عندك زوجة وبيت هما أولى بالوقت ده.
- بثينة...
- دكتورة بثينة من فضلك .. شرفت يا حضرة الظابط .. ما تنساش معادنا الجاي.

في الوقت نفسه دخلت مُنى إلى الغرفة، وبالطبع اندهش أحمد لحضورها بالرغم من عدم اندهاشها لوجوده، لذا بدا عليه الاضطراب، وبدا عليها نوع من السكون المستفز، لا أعلم لم توقع أحمد منها بعض الغيرة؟؟

- مُنى؟!

- أهلاً يا أحمد.

كان ذلك هو رد الفعل غير المتوقع، صحب في نفسه خيبة أمل، مصحوبة ببعض اليقين من أنه لا يزال يحبها، بادرت بثينة قائلة:

- آسفة يا مُنى، أخذنا منك حضرة الطابط شوية.

- لا أبداً سلامتك يا بثينة، أنا لما إتأخر اتصلت بيكي في العيادة والممرضة قالت لي على إيلي حصل.

- عموماً حضرة الطابط كان ماشي دلوقت، بس أنا كنت محتاجة أتكلم معاكي شوية.

استأذن أحمد بالتأكد لحفظ ماء وجهه على الأقل، يُجر أذيال الخيبة، ظهرت تلك الأذيال في أحبال صوته حين سأل مُنى إن كانت تريد أن تنتظرها أم ينصرف، وزادت هي بالرفض ثقلاً من جبل على قلبه فانصرف، بينما دخلت بثينة في نوبة أخرى من البكاء مصحوبة بسرد

الحكاية لصديقتها القديمة، وبين هذين الجبلين من الجليد تقبع مُنى
تسمع وتنصت وتواسي، وتدرك أن ثمة شيئاً انكسر بينها وبين زوجها،
ولن يعود أبداً كما كان سابقاً.

- كانت غلطتي يا مُنى، أنا مش هسامح نفسي.
- بلاش تحمّلي نفسك أكثر من اللازم، في النهاية دية أعمار.
- كان ممكن أتصرف معاه أحسن من كده، لكن فكّرت بأنانية كنت عاوزة
أكمل البحث عنه في أسرع وقت عشان الدكتوراه.
- بشينة أنا مدركة تماماً حجم إلی إنتي بتمرّ بيّه، بس أحمد بيحبك.
- منى صدقيني أنا!!! ...
- عارفة، عارفة كويس إن إنتي لا يمكن تعملي كده، بس أعمل إيه؟
- أنا راجعة أمريكا، متخفيش.
- حتى لو رجعتي مش مهم، أنا لازم أمشي دلوقت، هتصل
بيكي ولازم أشوفك قبل ما تسافري أكيد؟؟
- أكيد.

مترو الأنفاق ١٩٩٨م

كالمرّة السابقة تقريباً، في نفس اليوم والساعة وبنفس الطريقة غالباً التقى الغريب مع الضابط، كان الجو هادئاً كأنه صنع لتلك الليلة ولهذا اللقاء المتّوقع المفاجئ، كل شيء كان نسخة كربونية من اللقاء السابق، غير أن الضابط أهدى حالاً من سابقته، محاولاً الاستماع أكثر، وبدأ مدرّكاً بعض الأمور عن المرّة السابقة، وكذلك الغريب بدأ أوضح في كلامه، أقرب إليه في جلوسه، حتى أنه وضع يده على كتف الضابط محيياً إياه، معلنا تلك المرّة عن اسمه، أو لعله اسم مخترع لا فرق، كذلك أجاب حين سأله الضابط إن كان ذاك هو اسمه الحقيقي أم لا، لكن بصوت بدأ مختلفاً مرهقاً مخلوطاً ببعض الصعوبة في التنفس كمريض ربو أجاب الغريب:

- عبد المنصف عبد الحق.. دكتوراه في العلوم الحيوية.
- ده اسمك الحقيقي؟
- ما تفرّقش، ... صحيح ... ليه ما جتّش زي ما قلت لك؟
- كنت محتاج أعرف قصدك الأول.
- ودلوقت عرفت؟
- الحقيقة لسه فيه حلقة مفقودة.

- لو كنت جيت لي كنت عرفت، بس واضح إنك فاهم أكثر دلوقت.
- وعرفت مين؟
- يعني ماحولتش تضربني أو تقاوم وجودي زي المرة إيلي فاتت.
- مش ممكن ده يكون ضعف، قلة حيلة.
- وممكن تكون مصدقني.
- ممكن، أو فضولي خليني صابر للنهاية.
- عمومًا النهاية قريبة جدًا.
- دكتور عبد المنصف إنت عاوز إيه بالظبط؟
- الحقيقة يا ابني أنا معدش فارق معايا، أنا وببساطة بموت، وأظن إني أدبّيت إيلي عليا للبشرية كلها.
- دكتور، ليه أنا؟
- لأنني شايف فيك إيلي غايب عنك يا سيادة الرائد.
- يعني كنت بتراقبني؟
- الحقيقة مش بالظبط، القدر، القدر حطك في طريقي ولاقيت فيك إيلي كنت بدور عليه.
- عشان إيه؟ عاوز مني إيه؟ عاوز إيه من واحد أعمى ميقدرش حتى يشوفك؟

- عاوزه يَكْمَل الطريق إلی یمكن ما أقدرش أكمله.
- رجعنا للألغاز.
- كنت فاكرك فهمت، لكن معلش، أنا موضح لك كل شيء في دفتر أرجوك خليه معاك، ولما تقراه إحرقه.
- أقرأه؟
- آسف مش قصدي إهانة، الكبسولة دية تاخدها قبل النوم لمدة أسبوعين وهترجع تشوف تاني.
- مش هاخذ حاجة.
- براحتك، إنت حر، بس ده علاجك الوحيد على سطح الأرض، ولو سبت نفسك أكثر من كده هتبقى النهاية مأساة .. إنت مازهقتش من الدبان إلی بتشوفه ولا إيه؟
- يعني إيه؟
- يعني الدبان ده هيكثر ويصاحبه صداع وزن لحد ما يزيد الصداع بشكل ما تقدرش تتحملة، ولا مُسكن على الأرض يقدر عليه، يا تتحملة يا تنتحر، ولو ما انتحرتش وده صعب، هتموت بانفجار في المخ ودية النهاية، بذمتك مش مأساة؟!
- وليه عمتني من الأول؟ إنت قاتل زيک زي أي مجرم.

- أنا مش هرد عليك، لكن لو مكنتش عملت كده كنت هضيّع شقى
سنين بغبائك، محطتي الجاية.

- وتضمن منين إني ما أدورش عليك؟، أو أنسى الموضوع كله، ومكملش
إلي إنت عاوزه.

- يبقى أنا اخترت غلط وده صعب قوي، أما إنك تدور عليا فمتوجعش
قلبك أنا زي ما قلت لك أنا بموت، تصبح على خير يا حضرة الرائد.

مُنَى:

- سافرت بثينة، تركت خلفها كل شيء لتهرب، تلك هي المرة الثانية، في
المرة الأولى سافرت لأجل قصة حب فاشلة، لم تكن تتحمل حقيقة ما
حدث، أعني قصة ماهر غنام، ذلك الطبيب والحبيب والجار، صاحب
أكبر قصة حب في حي الدقي، الذي كانت تسكنه بثينة، تسع سنوات
من الانتظار تصنع فارغاً حقيقياً في أي حياة، الانتظار هو إحدى صور
الموت الخفية، أعلم ذلك وأي مرار يتركه في الحلق، أما عما حدث فهي لم
تذكره يوماً، كل ما أعرفه أنه تزوج وبشكل مفاجئ دون أن يخبر أحداً
عن العروس وعرفت بعد ذلك أن العروس راقصة، سافرت بثينة لكنها
تركت لي هذه المرة رسالة طويلة أعرف أنها ستكون الأخيرة كما كانت

تلك المرة التي رأيته في المشفى هي الأخيرة، وجهها كان كشبح يختصر،
ثمة شيء لم تنطقه في عينيها، كان غريباً كما كانت غريبة، لم أعد أعرف
من تلك المرأة، لم تعد كبشينة..

- "أختي منى ربما ستجدين في رسالتي بعض الوقاحة، لكن لا بأس ربما
ينفث ذلك بعضاً مما اختزنَ في أعماقي لسنوات، سافرت ولن أعود هذه
المرة، ربما أني لم أعد أصلاً، كنت قد تركت بعضاً مني هناك، وكنت أظن
أنني كنت قد تركت بعضاً مني هنا، وتيقنت حين عدت أني لم أعد، عفوًا
عن ذلك الغموض لم تعتادي عليه أعرف، كنت أقصد أن لي ابنة كنت
أحاول أن أنسى أمرها للأبد، لكنني لم أستطع، حتى أني أقحمت نفسي
في قصة حب زوجك، ولكنني تيقنت أنها محض سراب، كان كل منا
يهرب من شيء، لذا سامحي ضعفي فأنا لم أصح له يوماً بالحب، لذا لم
أخحك كما تظنين، بل خنت نفسي حين خدعتها قبل ذلك، وأنجبت
طفلة مصابة بمتلازمة داون، وظننت أني سأنسها، ولن أعترف بها كما
فعل أبوها وسينتهي الأمر، وخدعتها مرة قبل ذلك حين انتظرت، وربما
سأخدعها في مرات أخرى، لكنك لن تعرفي عنها شيئاً أعدك بذلك."

حمقاء مثلي أنا، أنا حمقاء ربما أكثر، آمنت بشيء اسمه الحب، صنعت
خرافتي صنمي الذي نسيت أني صنعته بيدي وعبدته، عليّ الآن أن

أَتَخْلَصُ مِنْهُ رَبِّمَا أَدُسَّهُ فِي الرَّمَالِ لِيُنْسَى، وَلَنْ أَلْتَفِتَ لَهُ مَهْمَا تَحَايَلُ،
وَسَيَعْلَمُ حِينَهَا أَنِّي كَفَرْتُ بِهِ، لَا شَيْءَ اسْمُهُ الْحُبُّ، لَمْ يَكُنْ، لَمْ يَعُدْ، وَلَنْ
يَبْقَى.

الفصل الحادي والثلاثون

أحمد:

أبصرت من جديد، كان أول ضوء كميلاد جديد، أبصر الأشياء للمرة الأولى كطفل في المهد، أبصر فتاتي للمرة الأولى، أبصر بيتي للمرة الأولى، أبصر أُمِّي فرحة للمرة الأولى، لا أفسر نظراتها كما أشاء، أبصر بكاء الفرحة في عين مُني للمرة الأولى، وأدرك أن تلك الدمعات أغلى من حياتي السابقة كلها، صدقني وُلِدْتُ من جديد، وأدركت أني أبصر للمرة الأولى في حياتي، ولن أغمض تلك العين ثانية أبدًا.

أمضيت ساعات ليلي أقرأ في دفتره الأحق، وحين أنهيته أدركت أني قضيت حياتي أحقَّ كبيرًا، سأُنظر الآن في المرأة وأبصق على ذلك الوجه، أي وقاحة عاملت بها ذلك العبقري، وأي بلاهة نعيشها بينما نمر بهؤلاء في طرقتنا ولا نعرفهم، ثمّة أناس في هذا العالم لا يستحقون الحياة بينما منهم عبد المنصف، من يعطي لنفسه حق الحياة والموت هو نفسه لا يستحق الحياة، لكن ربما نترك ذلك للقدر، ربما فقط نُيسر له السبل ليخلصنا من سوء البعض للأبد، ثمّة شيء لا أفهمه، ماذا يريد ذلك الكهل المريض من العالم؟؟ وأي حنق يغص في حلقه نحوه لينكر على الناس صنعهم؟؟، ربما أحتاج لأن أحمل نفسي على القراءة لفهم الأمر

أكثر، ربما يدفعني لقول ذلك عدم صبري على القراءة أو الفهم، سرعة إصدار الأحكام والشك المستمر الذي صار جزءاً مني يدفعني دفعاً لقول ذلك، لحظة واحدة هذا الرجل يُعلِّمني شيئاً دون أن ألاحظ.

منى:

عاوده البصر ولم يعاوده الحب، عاوده البصر ولم تغادره الحماقة، صار أغلب الأوقات وحده علّه يبيها في بعض الوقت، وعلّه يبيها كل الوقت، ولا أعرف، لم أعد أدرك المجهول فيه، لم نلتق بالعين مرة بعدها، يقرأ طوال الوقت، ويختفي بالساعات خارج البيت، بل يبيت خارجه أحياناً كثيرة، لم يعد يكثر الطعام، لم يعد يكثر الكلام، أي روح شر تلبسته!!، ما يُكيّدني أنه حتى لم يعتذر، لا يذكر شيئاً عنها، ربما عدم الاعتذار أفضل، أي كلمات سيخترعها ليعتذر "آسف كسرت قلبك" مثلاً؟؟!!، أي دمامة في تلك الكلمات!!، إنك لم تدهس قدمي بالخطأ لتقول ذلك، لذا سأحاول تجاهل الأمر أيضاً هذا أفضل من اعتذار وقح.

عبد المنصف:

لا أعرف ما الذي يحملني على الكتابة ربما أصبح داء لا شفاء منه، بدأ الأمر ببضع وريقات متفرقة، وها أنا أبدأ الصياغة من جديد، ربما لأنني أيقنت أنني على مشارف النهاية، لكم آسى على نفسي!! كان لي أمل في الحياة، ولم أتمه بعد، وعلى أحدهم أن يفعل، ما هذا؟! أنا أكرر كلمات جدي، ذلك الحكيم الذي صحبته في الجامعة.. مثقف لا يقرأ، هذا ما كان يثير دهشتي، أذكر يوم رحلت عنه إلى ألمانيا لأكمل دراساتي العليا بعد الجامعة قال لي وأنا أودعه: "يا ولدي أنا وإن رحلت عن هذا العالم لا تنقطع عن زيارتي في ذلك البيت"، وبالطبع تعجبت قوله حتى كدت أن أتهمه بالخرف، لكنه حين أجاب عرفت أن بعض الحكمة تبدو على عكس ما تحمله: "يا ولدي وإن رحلنا ثمة شيء منا سوف يبقى، تلك الجدران التي تشهدنا ستحفظ لنا حياتنا، ولن تنتهي أبداً، وإن زال البيت ستبقى أرواحنا حائمة بالمكان لا نزول"، أي شيء يقول، نوع الحكمة التي كان ينطقها فريد جداً، تحتاج ألف كتاب على الأقل وألف عام من أجل أن تعرفه، وتحتاج لتأمل ساعات لتفهم كلمات بسيطة، قضيت حياتي ولم أصادف حكمة كذلك، ربما قضيت شطرها لا أعرف ما أريده حقاً، ولا لأي طريق تأخذني، ولم أجده سوى في الوحدة، تلك التي

علمتني الكثير، تعلمنا المعاناة والألم والكفاح أكثر مما تعلمنا الحياة الرغدة، لذا لا تضيق على نفسك فرصة التعلم، وتستسلم للسهولة، هذا ما كنت أردده دومًا بيني وبين نفسي، لا فرق الآن إن كنت مخطئًا أم على صواب، ربما بعد أيام سيزول كل شيء ولن يعرف العالم ما قدمه ذلك الاسم الممزوج بالعاطفة والدين للبشر، "عبد المنصف جاد عبد الحق"، أي بئس أنا!!، أضعت عمري على فكرة آمنت بها، والآن ستضيع بين جنبات الكتب في بيت قديم بالجَمَّالية، بيت جدي الذي كنت أحكي عنه.

لم أتزوج.. آثرت أن أبقى نفسي، ظنًا بأن الزواج شيئًا جيدًا، على أن أتزوج لأواجه الحقيقة، حتى قصة حبي الوحيدة كتمتها بين أضلعي، ولم أتفوه بها لأحد حتى لصاحبته مارفن، تلك الفتاة الألمانية التي كانت تملك في عينيها الدنيا بالنسبة لي، لكن لا فرق الآن من ذكر ذلك، ربما لن يقرأ ذلك أحد إذن لماذا أكتب؟، لا أعرف.

سؤال لذاتي للمرة المائة "هل تؤمن بما تفعله؟"، نعم وألف نعم.. أؤمن بكل دقيقة أضعتها من أجل هذا العالم، وحتى الآن تلك اللحظة التي أكتب فيها كلمات ربما لن تُقرأ يومًا، وستُدفن في بيت جدي القديم أؤمن بها، أؤمن بها كنبي برسالته، ككاتب بقصته، أؤمن كما يؤمن

المؤمنون، فلا يعينهم الغد الذي بيد الإله وحده، ولا يعينهم الماضي الذي كان قاسياً فغمسة الجنة ستبقى للأبد وسيزول العذاب، أفسد هذا العالم بعض السفلة، وعليه الآن أن يقوم من جديد، مضى عهد الأنبياء، ولم يمض عهد السفلة، لذا انتصروا ونحن بشر ننسى ونخطئ أكثر مما نصيب، وانظر إلام انتهى بنا الحال.

لا عيب في أني أحلم، ماذا إن استيقظت صباحاً فلم تجد هؤلاء السفلة من حولك؟؟ تذهب للعمل بابتسامة بيضاء، وتحتسي الشاي، يقدمه لك رجل طيب بأدب، وتعمل عملاً حقيقياً، وتكسب مالاً حقيقياً حرّاً حلالاً، لست خائفاً مما سيأتي، أو أسفاً على ما مضى، تعرف مبتغاك من الحياة، وتنصرف آخر الليل إلى بيت عادي وتنجب أطفالاً عاديين، لتحيا حياة عادية، لا أقصد مثالية، أقصد تلك الحياة التي تتذكرها وقت خروج روحك دون أن تشعر بالخوف أو الخجل، دون أن ترى الجحيم أمام عينيك، علاوة على أنك تعيشه، ماذا إن مات أو غاد العالم وبقي الطيبون؟، ألن تكون حياة جميلة؟!!، إن اختفى اللصوص فلن يبقى فقراء، إن اختفى القتلة فلن يبقى خائفون، وإن اختفى الخائفون فلن يبقى سُدَجَ واهمون، ستسير دائرة الحياة بشكل عادي.

أعرف أن البعض سيتهمني بالجنون، لا بأس فأنا أعرفهم أوغادًا أو
سُدَجًا، ولن يكون القاضي عادلًا في حكمة إلا إذا انتفت المصلحة، لذا
لن أعتد بحكمهم عليّ، نحن بحاجة ضرورية تتعدى فكرة الثواب
والعقاب، نحن بحاجة ضرورية وملحة ليكون ذلك بشكل فوري،
يعاقب المسيء في التوفيتي الأمر، ويستشعر الخلق نوعًا من الإنصاف،
نحتاج ذلك العمى الذي نرى فيه الذباب أكثر من احتياجنا لأن نكون
أصحاء، احتياجنا له ضروري ومُلِح كاحتياجنا للعدالة.

ربما سيكون ذلك التشبيه أوضح لتصل الفكرة.. هب أن رزق الله هو
المطر، وهب أن الناس قد صنعوا خزانات للمطر، ومن تلك الخزانات
تنتشر مواسير للبيوت، من العدل أن يصل الماء لكل بيت، ما حدث أن
تلك المواسير تُركت لتصدأ، وتراكم فيها الوسخ، فلم يصل الماء
لللبعض، وصار نصيبهم بدوره يصل لللبعض الآخر، فمن يصل إليه الماء
لا يريد أن تُنظف تلك المواسير من الوسخ ليظل يأخذ حظ الآخرين..
أهذا من العدل؟!، فما بالك بمن يسرقون حظ الآخرين لا من المطر،
بل من الحياة.

يظن المحرومون من هذا العالم ظنونًا كثيرة بعضهم يبكي سوء حظه،
وبعضهم يدعو الله، وبعضهم يفقد إيمانه، بينما ينعم المتنعمون بالمطر

بحظ غيرهم، غير عابئين بشيء غير الحياة السهلة، لذا ما أفعله أمر منطقي جداً، أنا أزيل الخبث، ومن يرفض إماطته ليصل ماء المطر للجميع.

من حسن الحظ أن ذلك المرض يتيح فكرة التنقية بشكل استثنائي جداً، حيث لا يبدأ ذلك المرض بالتكوّن والتفاعل إلا في حالات معينة يكون فيها الإنسان مقترفاً لخطيئة ما، لا أعرف تفصيلاً كيف يحدث ذلك، ولا أحد يعرف، لكنني أظن أن الخطيئة تنشط جزئاً ما في الجهاز العصبي، يكون ذلك إشارة للبدء الفوري لتكون ذلك الجزء البروتيني فذاك المرض ليس فيروساً كما كنا نظن في السابق، ومن ثم تبدأ الأعراض خلال ساعة واحدة فقط، أعتقد في القريب سيتحول البشر جميعاً لكائنات مثالية، فمن يأبى سيموت أعمى، ولن يكون حوله غير الذباب وطنينه.

أحمد..

الجمالية..

بيت جد عبد المنصف..

كما توقعته.. بيت عتيق، لم يبق فيه شيء سوى أوراق ضجت بمعادلاتها الكيميائية، وبعض الرسوم التشرّحية، ورسوم تصميم طائرة صغيرة الحجم تقريباً بحجم ذبابة، وتشبهها كثيراً في الشكل، وبعض وريقات عن طرق تشغيلها، معمل صغير، حاسوب حديث الطراز، شرائط فيديو، شرائط كاسيت لأم كلثوم، مكتبة من الموسيقى الكلاسيكية، "جراما فون" قديم، ثلاثة مشروبات صغيرة، ومكتب صغير عليه دفتر كتب فيه عدة رسائل بأسماء أشخاص، سجل كامل، وملفات كاملة عن أشخاص من صفوة المجتمع، مات بعضهم في العام الماضي بشكل مفاجئ: "محمود حسنين رجل أعمال، طارق نواره دكتور جراحة، عثمان ماجد مقال"، وغيرهم من مئات الأسماء التي قد تتخالج عقلك الآن ممن تعرفهم، ولا يستطيع أحد أن يقرب أحدهم بسوء، كلمة منهم كفيلة بأن تقتل حرفياً، مثلاً اللواء داوود عرفة، وما أدراك من هو داوود عرفة، هذا أحد رجعات الشيطان للبشر، آه كانت جدتي تقول دائماً إن الشيطان يرجم البشر كما نرجمه في الحج، نرجمه بالحجارة

ويرجعنا ببعض من آكلي حقوق البشر، لأنه أدرك أنهم أكثر فاعلية من آكلي لحومهم.

ذِكَل كل تلك القائمة من الأسماء بجملة "عليك الآن أن تصنع قائمتك"، هل حقًا عليا الآن فعل ذلك؟، حسي البوليسي يجعلني غير مرتاح بعض الشيء، لكن شريط فيديو آخر كان كفيلاً بأن يزيل ذلك الحس.

شريط الفيديو..

دكتور فيرناندو موخيكا..

عالم الأحياء الدقيقة..

في الحقيقة حالات العمى الأبيض، أو ما سُمي بمرض رجال العصابات، هو ناتج عن جزيء بروتيني معدٍ يسمى "إم جي ٢٤٤٠"، وهو يسبب اضطراباً أو خللاً عصبياً، كما يُدمر أجزاء من الدماغ والحبل الشوكي، بل يُؤثر تأثيراً سرطانياً غير ملحوظ في أجزاء من الدماغ في مراحلهِ الأخيرة تؤدي إلى ألم شديد، ويفرز بعض الهرمونات بشكل خاطئ وعشوائي، ربما يكون ذلك سبباً في الرغبة في الانتحار غير المفهومة لدى العلم حتى هذه اللحظة.

ما يجعله مرضًا خطيرًا جدًا أن فترة حضائته قصيرة جدًا لا تتعدى الساعة، ويتطور بشكل سريع جدًا، وهذا التطور يكون مصحوبًا بهلوسات سمعية وبصرية برؤية الذباب، وسماع طنينه بشكل مستفز جدًا، مصحوبًا بالصداع القاتل، كما أنه يشمل تغيرات سلوكية عنيفة جدًا، ربما تصنع من الشخص نقيضه تمامًا، هذا المرض قاتل بلا ريب، ولم يتم اكتشاف ترياق أو دواء أو حتى تطعيم، فهذا المرض يختفي لفترات طويلة ثم يعود لفترة قصيرة جدًا يحصد بعض الأرواح، ويختفي بشكل مفاجئ أيضًا، ويمكنه قتل الإنسان البالغ في غضون شهر على أقصى تقدير ما لم يقم المصاب بالانتحار، وهذا ما يجعلنا عاجزين على دراسة المرض بشكل كامل، أو حتى معرفة أسبابه.

الأمر أشبه بمرض جنون الأبقار، والذي يصيب بدوره الجهاز العصبي للبقرة، وهو أيضًا قاتل، أو مرض "كروتسفيلت جاكوب"، والذي يصيب البشر ويشابه في أعراضه جنون البقر، وأيضًا يصيب الجهاز العصبي للإنسان، ويقتله في عام واحد فقط.

أظن أنني قرأت بحثًا عن المرض نشره باحث عربي عن تأثيره القاتل، إذا وصل بقدر معين إلى الجسم البشري وبأي طريقة، وهذا ما سيجعله خطيرًا إذا ما ظهر يومًا بشكل وبائي، ولا أذكر أن أحدًا قد شفى من

ذلك المرض، لكن كل ما أعرفه أن ذلك الباحث العربي المدعو عبد المنصف يعمل على الأمر بجهد حقاً.

أحمد:

على قصاصة ورق علقها الدكتور عبد المنصف على الحائط كتب فيها "ما تعلمته من الحياة ألا أدع نفسي أسقط أرضاً ولا أقوم، لا تنتظر أن يداوي أحد جرحك، بل اجعله شاهداً على كفاحك، احمل جراحك وانطلق للأمام هذا ما يسمى بالحياة.. هذا ما جعلني أحقن "فرناندو موخيكا" بالمرض فمات من فوره، لأنه نسب البحث لنفسه، وكان ينعتني بالعربي كنوع من الازدراء لا أكثر"، نسيت بشينة في تلك اللحظة، عاود حب منى متصراً من جديد، عاود شيء ما قد فقدته من جديد أستشعره في جنباتي، كان محققاً عبد المنصف كما كنت أعمى حقاً، والآن على أحدهم أن يكمل الطريق.

قطار الإسكندرية – القاهرة ٢٠٢٠م

يوم عادي، كان على القطار أن ينطلق في تمام الثامنة مساء كالعادة، لكن أمراً ما جعل ذلك لم يحدث كالعادة، ركاب الدرجة الثانية متدمرون

قليلاً بينما الدرجة الأولى خاوية، عدا رجل وامرأتين تقريباً في العربّة، بعض الشباب يصعدون ضجيجاً في آخر العربّة، بينما يجلس قارئ في منتصف العمر يحمل معه كتاباً بالإنجليزية يبدو كأستاذ جامعي، وتجلس في المقعد الذي يليه آنسة ترتدي سماعات أذن وترتكز برأسها على شباك القطار المتسخ غير عابئة بذلك، أحدهم يحمل جيتاراً ويسير في الممر، وآخرون يلحقونه بكوبين من الشاي الساخن في أكواب بلاستيكية، يبكي طفل يجلس بجوار أمه في أول العربّة، ثم تصيح به أمه ليصمت، ينام رجل أربعيني بدين على كرسي آخر، مصدراً صوت شخير معتاد، على كرسي آخر يجلس محام إلى جواره روب الحمامة وحقبة من الجلد بُنية اللون، يتحدث بصوت عالٍ في هاتفه الخليوي كبير الحجم حديث الطراز.

وأخيراً بدأ القطار يتحرك في الساعة التاسعة والرّبع، وبدأ الجالسون سعداء بعض الشيء، بينما قام بعضهم ليدخن بين العربات أو يتجول ليكسر الملل، ثمّة ذبابة تطن في المكان، طنينها غريب بعض الشيء كما تبدو أكبر حجماً من الذباب العادي، في العربّة المجاورة يجلس قاض في الدرجة الأولى يتفحص أوراقاً كثيرة بينما يقابله رجل آخر يدع له حقبة نقود وينصرف، بعد ساعة واحدة قام القاضي من غفوة سريعة يصرخ:

"أنا مش شايف.. عيني، اتعميت، اتعميت"، هذا ما يعرف الآن بعمى
الذباب، ولا أعرف بمن يقصد بلفظ الذباب؟؟، ما يروونه أم أولائك
المصابون به؟؟.

الفهرس

٥	الفصل الأول
١٩	الفصل الثاني
٣٢	الفصل الثالث
٤٣	الفصل الرابع
٥٣	الفصل الخامس
٦٤	الفصل السادس
٧٣	الفصل السابع
٨٣	الفصل الثامن
٩٣	الفصل التاسع
١٠٥	الفصل العاشر
١١٨	الفصل الحادي عشر
١٢٨	الفصل الثاني عشر
١٣٨	الفصل الثالث عشر
١٤٧	الفصل الرابع عشر
١٥٦	الفصل الخامس عشر
١٦٧	الفصل السادس عشر
١٧٦	الفصل السابع عشر
١٨٤	الفصل الثامن عشر

١٩٤	الفصل التاسع عشر
٢٠٤	الفصل العشرون
٢١٤	الفصل الحادي والعشرون
٢٢٣	الفصل الثاني والعشرون
٢٣٢	الفصل الثالث والعشرون
٢٤٠	الفصل الرابع والعشرون
٢٤٩	الفصل الخامس والعشرون
٢٥٩	الفصل السادس والعشرون
٢٦٩	الفصل السابع والعشرون
٢٧٩	الفصل الثامن والعشرون
٢٩١	الفصل التاسع والعشرون
٣٠٢	الفصل الثلاثون
٣١٥	الفصل الحادي والثلاثون



مرفوف من نور

١٠ برج الاشراف- شارع الهداية- المريوطية فيصل- الجيزة

”جمهورية مصر العربية“

الايمليل : yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)